

كتاب أحكمت آياته

(٣)

تأليف

الأستاذ / احمد محمد جمال



مباحث الكتاب

الموضـــوع	الصفحـــة



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

أحمد الله تبارك وتعالى على توفيقه إياي للاهتمام بدراسة القرآن الكريم ، وتتبع ما يكتب عنه وحوله من أبحاث ودراسات ، والتعقيب على المفهومات الخاطئة لبعض آياته المتضمنة أحكاماً ، أو أخباراً أو قصصاً أو اعتقاداً أو أخلاقاً .

وهذا هو الجزء الثالث من كتابي (القرآن : كتاب أحكمت آياته) وقد سبق أن صدر الجزء الأول سنة ١٤٠٢هـ وصدر الجزء الثانى سنة ١٤٠٤هـ وهما يتضمنان الموضوع نفسه ، وهو كون القرآن كتاباً أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ـ أى أن القرآن الكريم ميسر للفهم المستقيم والتدبّر الأمين ، دون أن نذهب بعيداً نحو التأويل الباطل ، وافتعال المفهومات الخاطئة ، وخاصة ان القرآن نفسه يفسر بعضه بعضا .. فما نجده مجملاً فى بعض آياته نجده مفصلاً فى آيات أخرى .

ولا أريد أن أعيد ما ذكرته فى مقدمتى الجزءين السابقين . والله الموفق والملهم للصواب .

حول مفهوم الآية :

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جآءوك فاستغفر الله واستغفر لهم الرسول﴾

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جآءوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما﴾ [1] .

هذه الآية الكريمة ـ فى رأى الشيخ جمال الدين عبدالسيد كاتب المقالات المتتالية فى تفسير القرآن بمجلة الرابطة الاسلامية ـ التى تصدر بمصر ـ : هى من أدلة جواز التوسل ، بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وهو يردُّ بها على القائلين بحرمة التوسل الذين يحتجون لرأيهم بالآية الأخرى :

﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ [2]

ويتساءل الشيخ : هل بنى هؤلاء حكمهم على العادة أو العقل أو النص ؟ ثم يجيب نفسه بأن العادة والعقل والنص جمعاء ليست من أنصار هؤلاء ـ فالعقل والعادة كما يقول يجيزان رفع المطالب

---

(١) سورة النساء الآية ٦٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

والحاجات إلى ذوى المراتب العالية على يد من هو عندهم مقبول ووجيه ومبجل ، فلم يكن التوسل إلى ملك الملوك الا نوعاً بليغاً من تعظيم ذلك المقام ، وضرباً كريماً من المهابة والاجلال ، واعترافاً بأن السائل غير أهل للوقوف على بساط المشافهة لسيده ومليكه !

أما النص ، كما يقول أيضاً «فغير موجود فى الآية التى يستدل بها القائلون بحرمة الوسيلة إذ ليس فيها نَهْىٌ عن نداء الغير ، بل إن نصوص الشريعة ، ودلالات العقل قائمة على التعاون بين الخلق ، فقد جرت سنة الله على ربط المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات» !

ولا يستوى فى رأيه دعاء المقرَّب ودعاء المُبْعَد ، إذ لا بد لأهل البعد والحرمان من شفيع مق ول الدعوة ، كما أن نداء غير الله مثل يا رسول الله أدركنا .. ويا حسين راعنا .. لا ينتظم فى سلك الاشراك !»

ويقول : كيف يكون كل دعاء عبادة وفى القرآن :

﴿أدعوهم لآبائهم﴾ وفيه : **﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾** ؟

ويضيف : «فإن قالوا إن دعاء الأموات عبادة قلنا النداء لا يتغيَّر مدلوله بتغير حالة المنادى ، فقد يكون قول المضطر يا رسول الله أو يا حسين عند الله أوجب للخير من قوله يا مأمور ويا شرطى» ويقول : «إن ابن الخطاب نادى الحجر حين قال له : إنى لأعلم أنك لا تضرّ ولا تنفع ، ونادى نيل مصر حين كتب على الورقة التى

أمر ابن العاص عامله على مصر حينذاك بإلقائها فيه : إن كنت تجرى بأمر الله فأجر .. الخ» .

ثم يتساءل الشيخ كيف يكون نداء الموتى أنزل درجة وأقرب إلى الوثنية من نداء الحجر والنيل ؟!

ويختتم دفاعه عن التوسل بقوله : «من خَرَقِ هؤلاء وحمقهم تكفير من يكتب عرائض بأسماء الأولياء مع ما سمعت من كتاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، فهل النيل حى سميع بصير؟ مع أن الموتى قد أخبر عنهم الرسول الصادق أنهم يسمعون ، وصحَّ سؤال الملكين لكل مقبور ، وصحَّ خطابهم وإلقاء التحية عليهم لما بهم من سمعٍ وقدرة الخ الخ» .

□ □ □

ونحن نخالف الشيخ عبدالسيد فى كل ما ذهب إليه من فهم أو دليل أو قياس ـ وذلك من وجوه :

□ **الوجه الأول** : أَنَّ آية ﴿**ولو أنهم إذ ظلمـــوا أنفسهم**﴾ لا تعنى إجازة التوسل مطلقاً ، وإنما أجازته بالنبى عليه الصلاة والسلام وحده عندما كان حيّاً . وما يقوله القائلون عن توسل ابن الخطاب بالعباس عمه رضى الله عنه ، لم يكن بالأسلوب الذى يدافع عنه الشيخ عبدالسيد من دعاء المتوسل به نفسه ، وإنما كان بالأسلوب الذى توسَّل به إبن الخطاب ، حيث وجَّه الدعاء إلى الله تبارك وتعالى ثم قال : اللهم كنا نتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ ، ونتوسل إليك اليوم بعمه العباس الخ .

والآية قبل ذلك تقدم استغفار الله على التوسل برسوله فتقول : ﴿**فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول**﴾ ولم تقل : فاستغفروا واستغفر الرسول لهم الله ، وفرق بائن بين هذا الأسلوب التوحيدى وبين ما يدافع عنه الشيخ من دعاء الأولياء والوجهاء ـ الأموات منهم والأحياء .

على أن للآية نفسها احتمالين آخرين ، أولهما : أن يكون مجىء الذين ظلموا أنفسهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام إنما هو للتحاكم وأن يكون معنى ﴿**ظلموا أنفسهم**﴾ أى ظلم بعضهم بعضاً بأكل الأموال وسلب الحقوق ، وتؤيد هذا الاحتمال الآية التالية :

﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾[1]

□ **وثانيهما** : أن يكون المطلوب من المجىء والاستغفار هو اعتراف المنافقين بين يدى الرسول عليه الصلاة والسلام بما اسلفوا إليه من إيذاء فى نفسه وأهله وصحبه ، ثم التوبة أمامه والاستعانة به عليه الصلاة السلام على قبول الله لهم ، وذلك شىء غير التوسل ، فقد تمنَّى عكاشة بن محصن يكون من أهل الجنة ، وسأل النبى أن يدعو له بذلك ، فدعا له بها . وخرج ابن الخطاب مرةً للاعتمار فأوصاه عليه الصلاة والسلام بأن يدعو له ـ وهو من هو ! ! ـ فقال له : «لا تنسنى من دعائك يا أخى» .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥ .

□ **الوجه الثانى** : أن الكتاب والسنة يفيضان بوجوب التوجه إلى الله تعالى بجميع أنواع العبادة مشاعرها ومظاهرها ، وآية ﴿**واذا سألك عبادى عنى**﴾ من أصرح الآيات فى هذه السبيل . وماذا نطلب فيها أكثر من قوله تبارك وتعالى ﴿**فإنى قريب**﴾ وفيه تأكيد بأن الإجابة هينة بالدعاء فحسب ، لا بالتوسل ولا بالاستشفاع ؟ وقوله ﴿**فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى**﴾ فيه أمر باخلاص الاستجابة له والايمان به ، وماذا بعد الاستجابة والايمان به من حاجة إلى وسطاء ... أموات أو أحياء ؟

فَعَجَبٌ .. عَجَبٌ لا ينتهى أن ينفى الشيخ عبد السيد النَّصِّية فى القرآن على وجوب اخلاص الدعاء لله دون إتخاذ الوسطاء ، فى حين أن القرآن ـ كما قلنا ـ يفيض بالنصوص ، وفى طليعتها آية : وإذا سألك عبادى عنى﴾ وآية ﴿**وقال ربكم أدعـونى استجب لكم**﴾ وآية ﴿**ادعو الله مخلصين له الدين**﴾ وتوجيه كثير من الأنبياء لأقوامهم بهذا التوجيه : ﴿**استغفروا ربكم ثم توبوا إليه**﴾ وما أدَّب الله تبارك وتعالى به يوسف عليه السلام على قوله :

﴿**للذى ظنَّ أنه ناجٍ منهما أذكرنى عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين**﴾ .

ومع أن الملحوظ فى المعاملات الإنسانية جواز الوساطة بين الكبراء أصحاب الحل والعقد .. والصغراء أصحاب الحاجات .. فإن تأديب سيدنا يوسف يكاد يكون حجةً حتى فى منع هذه الوساطة الدنيوية ، لو لا ما يقال من : «أن حسنات الأبرار سيئات

المقربين» وان ما يطلب من الأنبياء قد لا يطلب من غيرهم .. بالاضافة إلى ماجاء فى القرآن الكريم من جواز الشفاعة الحسنة ومنع الشفاعة السيئة :

﴿من يشفع شفاعة حسنةً يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئةً يكن له كفلٌ منها﴾ (١)

وما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : **(اشفعوا تؤجروا .. ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء)** (٢)

□ **الوجه الثالث** : لم يستقم للشيخ قياس استشفاع أصحاب الحاجات بمن يدنى إليهم حاجاتهم الدنيوية المحسوسة عند أولى الأمر .. بنداء الأنبياء والأولياء الذين انقطع عملهم فى الدنيا ، وصاروا إلى ما ليس لنا به علم يقينى .

ذلك أن الله قد قسم بيننا معيشتنا فى الحياة الدنيا ، ورفع بعضنا فوق بعض درجات ليتخذ بعضنا بعضاً سخريا ، فنحن بخير ما تفاضلنا ـ كما فى حديث نبوى ـ أى أنه لا بدَّ فى هذه الحياة الدنيا ، التى هى امتحان للإنسان ، من أمير ووزير ، وكبير وصغير ، وغنى وفقير ، وعالم وجاهل ، وراع ورعية ، ومالك ومملوك .. وهم أصناف يحتجب بعضها عن بعض ، والقرآن يؤيد ذلك ، حيث يقول الله عز وجل :

---

(١) سورة النساء الآية ٨٥ .

(٢) رواه البخارى .

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً﴾[1]

فليس غريباً ، بل ليس ممنوعاً ـ لا شرعاً ولا طبعاً ـ أن آتى أو تأتى إلى ابن عم الوزير أو جاره أو خليله ، لتتخذه وسيطاً فى تيسير حاجة ، أو إنقاذ حق ، أو إنصاف مظلوم ، وذلك أولاً : لأن هذا هو طبع الحياة منذ بدايتها ، ولن يحول أو يزول ، وهو ضرب من استعمال الأسباب المسنونة ، وتبادل المنافع المشروعة بين الأحياء .

وثانيا : لأن شرع خالق الحياة أجاز هذه المعاملات الدنيوية على لسان نبيه ﷺ حيث قال : «**من نفس عن أخيه كربةً من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**» وحيث قال ما معناه : «**إن لله عباداً يفزع إليهم الناس فى قضاء حوائجهم ، أولئك هم الآمنون من عذاب الله**» وحيث حض على الشفاعة الحسنة ، كما أسلفنا فى فقرة سابقة .

فأين مجازات طبع الحياة ومباحات شرع خالق الحياة من هذا الذى يدافع عنه الشيخ عبد السيد من نداء الأنبياء والأولياء الأموات .. للاستقضاء والاستشفاء ؟

إن الله تبارك وتعالى ليس كأصحاب المراتب العالية فى الدنيا ، وهو قريب وسميع بصير ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وليس بيننا وبينه حاجب ولا كاتب ، وليس له من غرض فى خلقه الا العدل بين جميعهم ، والرحمة بجميعهم ، والرزق لجميعهم ،

---

(١) سورة الزخرف الآية ٣٢ .

محسنهم ومسيئهم فى ذلك سواء .

وأقول «مسيئهم» لأن الشيخ عبد السيد لا يسوِّى المقرَّب بالمُبْعَد فى الوقوف لدعاء الله ، ويقول لا بدَّ لهذا من وسيط .. يتخذه إلى الله زلفى ليضمن له الدعاء المجاب» .

أفنسى الشيخ ان الله تبارك وتعالى ــ كما فى حديث نبوى ــ أفرح بتوبة عبده من أحدنا بضالته ؟ هذه واحدة ، أَم نسى أن القرآن الكريم يقول :

﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات﴾[1]

ولم يقل بوسيط ؟ وهذه الثانية .

وأنه يقول أيضاً :

﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[2]

ولم يقل هنا بوسيط أيضاً مع أن هؤلاء الموعودين بالغفران مسرفون فى الخطيئة ؟ وهذه الثالثة .

وان الله عز وجل يقول كذلك :

﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرَّعوا﴾[3]

ولم يقل هنا بوسيط أو شفيع ، مع أن هؤلاء المدعوين إلى التضرُّع ، لم يسرفوا وحسب ، بل جاءهم عقاب إسرافهم ؟ وهذه الرابعة .

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٥ .

(٢) سورة الزمر الآية ٥٣ .

(٣) سورة الانعام الآية ٥٣ .

ألا نؤمن بعد هذه الحجج الأربع ، أن الله تعالى مستعد لسماع دعاء الداعين وتوبة التائبين بلا وسيط ؟ لأن المحسن والمسىء فى مقام التوجُّه إلى الله بدعوة أو توبة وسماعه تبارك وتعالى منهما : سواء .. ذلك أنه قال للناس جميعاً : ﴿**أدعُونى**﴾ وقال لهم : ﴿**توبوا إلى الله**﴾ وقال : ﴿**لا تقنطوا من رحمة الله**﴾ وقال : ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ وقال : فى الحديث القدسى ـ **(هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه)** ولم يقل تبارك وتعالى لهم : إن دعاءكم لا يصل إلىّ ، أو أن توبتكم لا أقبلها ، أو أن ذنوبكم لا أغفرها ، أو أن حاجاتكم لا أقضيها حتى تتخذوا الأنبياء والأولياء إلىَّ وسطاء ؛ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

□ **الوجه الرابع** : من البدائه قول الشيخ كل دعاء عبادة ، ونحن معه فى هذه البديهية ، ولسنا معه فى احتجاجه للتوسل ودعاء الغير بآية : ﴿**أدعوهم لآبائهم**﴾ وآية : ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا**﴾ .

فالفرق بائن ـ بحيث يجب الا نطيل ـ بين معنى الدعاء للتوسُّل الذى يدافع عنه الشيخ ، وبين معنى الدعاء الذى تعنيه الآيتان .

فالدعاء فيهما بمعنى الخطاب والتسمية والهتاف والنداء كما يقول أحدنا يا عمرو أو يا زيد أفعل كذا أو أقض لى الحاجة الفلانية الخ .. ومعنى «دعاء الرسول» مناداته التى يجب أن تكون بأدب وإجلال .. لا كما يفعل الأعراب الأجلاف فى ندائهم له ﷺ :

(يا محمد ـ يا محمد) وقد نزلت الآية تأديباً لهم ولأمثالهم .

ومعنى ﴿**أدعوهم لآبائهم**﴾ أى أنسبوهم لآبائهم وقد نزلت الآية فى تحريم التبنيِّ .. حيث كان (زيد بن حارثة) رضى الله عنه يدعى (زيد بن محمد) فلما نزلت الآية دُعِيَ لأبيه حارثة .

□ **الوجه الخامس** : أن النداء ـ خلافاً لرأى الشيخ عبد السيد ـ يتغيَّر حكمه بتغير حالة المنادى ، فإن نداء الحى السميع البصير القدير لقضاء وطر ، أو إتقاء خطر . ليس سواء ونداء الميت الذى انقطع عمله عن الدنيا لا يرفع فيها يداً ولا يمد قدماً ، ولا يفتح عيناً ، ولا يصغى أُذُناً ، وهو أضيق أملاً ـ من الحى الذى يدعوه ـ فى النجاة بعد الممات حيث لا ينقذه ندم ، ولا ينفعه متاب ، بينما الحى فى مندوحة من الندم والتوبة والنجاة .

وإذا كان النداءان ـ كما ترى ـ لا يتساويان فى مُكْنة الإرسال والاستقبال ، فهما غير متساوييْن تَبَعِيّاً فى حكم المنع وحكم الجواز ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿**إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ..**﴾[1] .

□ **الوجه السادس** : أن الشيخ عبد السيد يقارن بين الدعاء للتوسل ، وبين صرخة ابن الخطاب فى الحَجَر بأنه لا يضر ولا ينفع ، وتهديده لنيل مصر بقدرة الله التى ستجريه رغم أنفه ورغم آناف الخرافيِّن الذين كانوا يتقرَّبون إليه بفتاة حسناء يلقونها فيه ليجرى ، ثم يتساءل كيف يكون نداء الموتى لقضاء الحاجات أنزل

---

(١) سورة فاطر الآية ١٤ .

درجةً من نداء عمر للنيل والَحجَر بالاستغناء والتهديد» ؟

وهو سؤالٌ لا يجاب عليه الا بفهم معنى نداء عمر الاستغنائى التهديدى ، ومعنى نداء أصحاب القبور لجلب المأمول المحذور !

وهما معنيان مختلفان جداً ، ظاهرا الاختلاف جداً . ولكن الشيخ يرى رأياً آخر فى هذا الاختلاف الظاهر ، فهو يعيد ما بدأ فى موضع آخر حيث يقول : «من خَرَقِ هؤلاء تكفيرهم لمن يكتب عرائض بأسماء الأولياء مع ما سمعت من ورقة عمر للنيل وخطابه للحَجَر» !

ولا نحب أن نعيد ما بدأناه فى دحض هذا القياس العجيب ، ويكفى أن نقول : أن الفرق بين كتابة عرائض بأسماء الأولياء .. وبين كلام عمر للنيل والحجر هو الفرق عينه بين الحاجة والغَنَاء .. بين التوجّهُ إلى الموتى من أنبياء وأولياء ، والتوجّهُ إلى الله مباشرة ، وهو فرق واضحُ مبين ، يدل على العَكسْ والنقيض ، بل هو الفرق الفارق بين الشرك والتوحيد .

□ **الوجه السابع** : ليس فيما يقال من تلقى الأموات لتحيَّات الأحياء ، وإمكان ردَّهم عليها : سبيل لإجازة دعائهم بالاستشفاء والاستقضاء . ذلك أن الأموات ـ كما أسلفنا ـ أحوج منا نحن الأحياء القادرين على التوبة والنجاة ، إلى دعائنا المستجاب ، واستغفارنا المقبول .

ثم لا نجد قرينة معقولةً ولا علاقة صحيحة ، بين مقام تحية الموتى ـ كأدبٍ من آداب ديننا واعتقاد من اعتقاداته ـ وبين مقام الايمان بقدرتهم على السفارة بيننا نحن الأحياء وبين الله ، لرغبة أو رهبة .

وأخيراً ليقرأ معنا الشيخ جمال عبدالسيد ماجاء فى إنجيل متى (٦/٦) من بشارة عيسى عليه السلام بملكوت الله الذى هو الإسلام وكلام الملكوت الذى هو القرآن :

□ «إذهب إليه بمجرد نفسك فإنه لا يريد هذه الأشياء التى تهديها باسمه إلى من يستغفر لك ، إن إلهك ليس فى المعبد الفلانى أو المكان الفلانى أو العيد الفلانى أو اليوم الفلانى . إنه قريب فى كل مكان وكل زمان ، فاذكره وادعه بلسانك وقلبك فهو يسمعك ويقبل عريضتك .»

وبعد ، فغفر الله لى وللشيخ وهدانى وإياه إلى سواء السبيل[1] .

---

(١) يذهب إلى تفسير الآية موضوعة البحث الدكتور أحمد جمال العمرى المذهب نفسه الذى ذهب اليه الشيخ عبد السيد فى مقال له بمجلة (القافلة) العدد الثالث الصادر فى ربيع الأول سنة ١٤٠٥ ـ نوفمبر ١٩٨٤م .

حول مفهوم الآية :

﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾

فى منتصف عام ١٣٧٤هـ ألقى الدكتور أمين الخولى فى افتتاح الدورة التاسعة للمؤتمر الثقافى التابع لجامعة الدول العربية ـ فى جدة ـ كلمة تحدث فيها عن العلم والعلماء ، وأورد هذه الآية القرآنية : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ برفع لفظ الجلالة ونصب كلمة (العلماء)[1] فكتبت هذا الفصل يومئذ تعقيباً عليه ، قلت :

إن قاعدة الدين الاسلامى الأولى هى : التوحيد ، وقاعدته الأخرى : التقوى ، والمسلم الحق هو الذى يؤمن بإلّه واحد ، يسلم وجهه إليه سبحانه بما يخاف وما يرجوه وفى الوقت نفسه يتقيه تبارك وتعالى فيما يأخذ من شئون الدنيا وما يدع ، ولن يكون الإسلام ـ فى إجمال ـ أكثر من توحيدٍ وتقوى .

ونحن حين نتدَّبر واقع العالم كله من أقصاه إلى أدناه ، وحين نأسى على ما أصابه من قلق واضطراب ، وحين نفزع لتداعى دوله القوية على دوله الصغيرة كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .. لن تجد سبباً لفقدان السلام فى عالمنا المحروب الا فقدان التقوى ! !

إن عالمنا الحاضر قد أوتى من كنوز العلم وفنونه ما لم تتفتح

---

(١) يراجع الفصل الخاص بنقد كتاب : (الفن القصصى فى القرآن) وعلاقة الدكتور الخولى به .

أبوابه ، وتتيسر أسبابه لعالم قديم أو أقدم ، وما يكفل لناسه معيشةً رغداً ، وحياةً رُخَاءً وتآخياً وَوِدّاً .. ولكنه استبدل بسعادة ما وجد من علم ، شقوة ما افتقد من تقوى ، فهو أبداً يستخدم هذا العلم للظلم ! والظلم ـ كما يصوره الاسلام ـ ظلمات ! من أجل ذلك يعيش العالم اليوم فى ظلمات بعضها فوق بعض ...

يقول القرآن الكريم : ﴿**إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ**﴾[1]

نعم ، إن المفروض فى العلم انه مصدر التقوى والعمل الصالح ، فالجاهل بأمرٍ لا يدرى ما يأخذ وما يدع ! ولكن العالم بأى أمرٍ من الأمور ، أو فن من الفنون ، أو عملٍ من الأعمال ، يعرف كيف يورد ثم يصدر ، وأين يبدأ وأين ينتهى ، ومتى ينفع بعلمه ومتى يسىء ، ومن هنا كان مسئولاً عن علمه فيما استخدمه ، والمفروض عليه أن يستخدمه فى الخير.

إن هذه الآية الكريمة : ﴿**إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ**﴾

ما أجدر أن يكتبها كل عالم فى لوحة لافتة يضعها نصب عينيه ، ليتذكَّر عهد الله عليه أن يخشاه ويرعاه ، والا يكتم ما أنزل الله من علوم وبينات ، والا يبيع علمه بثمن بخس فى الدعاوى والفتاوى الباطلة ، وأن يجهر بالحق بين يدَىْ ذوى الغنى والجاه ، وأولى الزعامة والرئاسة ، مهما مسَّه فى ذلك من متاعب ومصاعب ، بل مهما كلَّفه ذلك نفسه ونفيسه[2]

إن العلم أى علم لا قيمة له ، وان العالم أى عالم لا فضل له ،

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٢) تراجع محاضرة (مسئولية العلماء فى الاسلام) فى كتابنا (محاضرات فى الثقافة الاسلامية) الطبعة/٦ص/٢٤٥ .

إلّا إذا كان هنالك علم نافعٌ إلى جوار عملٍ صالحٍ ، ولا عذر لعالم غير عامل ، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف : **(مهما أوتيتم من كتاب الله ، فالعمل به لا عذر لأحدكم فى تركه)** .

ذلك جانب واحد يخص العلماء وحدهم فى بحث مسألة علمهم ، حين يؤدون واجب الأمانة أو لا يؤدون . وهنالك الجانب الذى يعم المجتمع معهم ، فإن صلحوا صلح الناس ، وإن فسدوا فسد الناس ، كما هو توجيه مبدأ إسلامى حكيم[١] ذلك أنهم فى موضع القدرة ، مناط الثقة ، فإن لم يكن العالم عاملاً بعلمه ، فاضلاً فى خلقه . ليس له بين الناس مقام توقير ، ولا لعلمه المعطّل فضل تأثير !

ولئن كان تحوُّل العلم إلى جهل ، والحلم إلى سَفَه ـ فيما مضى من تأريخ البشرية ـ يقع قليلاً أو نادراً ، فهو فى قرننا العشرين أكثر وقوعاً ، لأن القرن العشرين فترة من عمر الانسانية ، وان ازداد فيها تقدُّمها الصناعى والزراعى والعلمى المادى ، إلاّ أنها فترة تخلو من احترام المبادىء الروحية والاقتناع بتوجيهات الدين .

□ □ □

ولهذه الآية القرآنية موقف خطير مع أعداء الإسلام قديماً ، ومع الاستعمار الغربى حديثاً ، فلقد تنوولت منهم بمعاونة ربائبهم وصنائعهم فى الشرق العربى ، بالتحريف الآثم ! ! فقرؤوها وطبعوها برفع كلمة «الله» ونصب كلمة «العلماء» ، أى أن الله هو الذى يخشى العلماء بمعنى يُجلُّهم ويُعظِّمهم .

---

(١) هناك القول المإثور عن بعض السلف : «صنفان من الناس .. إذا صلحا صلح الناس . وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والامراء» .

ولقد استعان الاستعمار الفرنسى فى بداية احتلاله لشمال إفريقيا بالخونة من علماء تلك البلاد ، فى توجيه الناس إلى طاعة ولىّ الأمر وإن كان كافراً ! وفى سبيل التمكين لهؤلاء العلماء الخونة من التأثير فى الرأى العام هناك ، أخرج المستعمرون الكفرة طبعة للقرآن الكريم ، وفيها تلك الآية بالقراءة المحرَّفة ! بقصد الإيحاء إلى العوامِّ وأنصاف المثقفين بأن الله ـ وحاشاه ـ يخشى العلماء فاسمعوا لهم وأطيعوا فيما يطبخون لكم من فتاوى ، وما يخترعون فى القرآن من فهوم ! !

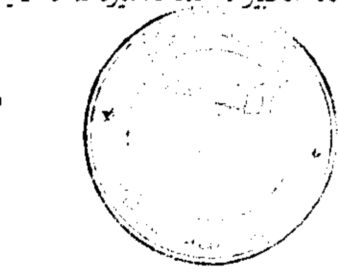
□ □ □

نعود فنقول : إن القراءة التى يتمسك بها اليوم بعض العلماء لهذه الآية الكريمة : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ ـ برفعٍ لفظ الجلالة ونصب كلمة العلماء ـ قراءة منكرة نقلاً وعقلاً .

فأما النقل فجمهور العلماء والقُرّاء على القراءة برفع العلماء ـ وهذا بعض ما قيل فى ذلك :

١ ـ قال ابن الجزرى فى كتابه : (النشر فى القراءات العشر) : (قال أبوالعلاء الواسطى إن الخزاعى وضع كتابا فى الحروف نسبه إلى أبى حنيفة ، فأخذت خط الدار قطنى وجماعة أن الكتاب موضوع لا أصل له .. وفيه : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ ـ برفع الهاء ونصب الهمزة ، وقد راج ذلك على كثير من المفسرين ونسبها إليه ، وتكلف توجيهها ، وأن أبا حنيفة لبرىء منها) ! !

٢ ـ قال الامام الطبرى فى جامعه الكبير ، عند تفسيره لهذه الآية :



﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ .. أى إنما يخاف الله ، فيتقى عقابه بطاعته ، العلماء بقدرته ، ثم روى عن ابن عباس قوله : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ ، أى الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير.

٣ ـ قال الامام الألوسى فى (روح المعانى) : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ .. تكملة لقوله :

﴿**إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب**﴾[١]

بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد الانتماء إلى شرف الخشية وتقرير خشيته ، والمراد بالعلماء العالمون بالله عز وجل وأفعاله الحميدة ، فمدار الخشية العلم ، فكل من كان أعلم به كان أخشى له . قال موسى عليه السلام : يا رب أنى عبادك أخشى؟ قال : أعلمهم بى .

٤ ـ قال الإمام الزمخشرى فى (الكشاف) : «العلماء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده ، فعظَّموه وقدَّروه وخشوه حق خشيته ، ومن إزداد به علماً إزداد منه خوفاً ، وعن مسروق : كفى بالمرء علما أن يخشى ، وعن الشعبى العالم من خشى الله» ثم أورد الزمخشرى تلك القراءة المنكرة ، وعقَّب عليها بأنها من قبيل الاستعارة ، أى أن الخشية بمعنى الإجلال والتعظيم .

٥ ـ قال الامام الجوهرى فى كتابه (تفسير الجواهر) : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ ـ قال علماؤنا رحمهم الله إن من شرط

---

(١) سورة فاطر الآية ١٨ .

الخشية معرفة المخشى ، والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشى منه) .

٦ ـ كذلك كان مذهب الإمامين ابن كثير والبغوى فى تفسيرهما ، ولم يرويا هذه القراءة المنكرة بتعليق ولا بدونه .

□ □ □

بقى بعد ذلك أن نذكر حكم العقل فى هذه القراءة المنكرة ؛ فلننظر إلى سياق هذه الآية فيما قبلها وفيما بعدها ـ يقول سبحانه :

□ **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدَدٌ بِيض وحُمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور﴾**[1] .

لنتأمل حديث الله سبحانه إلى خلقه ، وفى مقدمتهم رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام .. إنه سبحانه يقول لهم : ألم تروا إلى ما أنزلت من السماء من ماء ، أخرجت به ثمراتٍ مختلفات الألوان بين أبيض وأحمر وأصفر ؟ ألم تروا إلى ما خلقت من جبال تتخللها الطرائق والخطط البيض والحمر والسود شديدة السواد ؟ ثم ألم تروا إلى ألوانكم أنتم أيها البشر بين أبيض وأحمر وأسود ؟ .. أفليس ذلك من الآيات الدالة على قدرتى ، الموجبة لتوحيدى ، الموصلة إلى معرفتى والعلم بى وبالتالى إلى خشيتى والخوف منى ؟ وإنما العلماء بى هم وحدهم الذين يخشوننى ..

إذن فالحديث هنا فى هذه الآية تعديدٌ لنعم الله ووصف

---

(١) سورة فاطر الآيات ٢٧ ـ ٢٨ .

لقدرته ، وبيان لآياته فى الخليقة . وهو حديث الدعوة للبشر إلى معرفة هذه النعم والقدرة والآيات الإلهية وإلى العلم بها ، وإلى تدبرها ، لتكون سبيلاً إلى الإيمان به سبحانه ، وإلى خشيته وتقواه ..

وليس الحديث هنا فى هذه الآية ذِكْراً لِفَضْل العلماء ، حتى تؤول هذه القراءة المنكرة على استعارة الخشية عن الإجلال والتعظيم لمقام العلماء ! فإن مقام الله هنا ـ خلال عرض هذه الآيات الكونية ـ أحق أن يُجَلَّ ويعظَّم ويُخْشَى .

هذه واحدة .. أما الثانية فقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿**إن الله عزيز غفور**﴾ فكيف يصح فى الأذهان أن يقرِّر القرآن الكريم ـ بزعمهم ـ خشية الله من العلماء ، ثم يردف وصف الله سبحانه بأنه عزيز؟ والعزيز هو القوى الغالب الجدير بالإعزاز والاجلال ؟؟

ثم لماذا يخشى الله تبارك وتعالى العلماء ، بمعنى يُجِلَّهم ويُعظِّمهم ؟ كما زُيِّن لزاعم تلك القراءة المنكرة مع أنه سبحانه يمنُّ عليهم فى قرآنه الكريم بأنه هو الذى علَّمهم البيان والحكمة ، وهداهم للإيمان ، بعد أن أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ! !

وإذا كان الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم وهم أفضل وأعلم وأتقى من العلماء قطعاً ، لم يظفروا من كلام الله سبحانه بهذا المعنى من الخشية والإجلال والتعظيم ، فكيف يصح فى أذهان قراء القرآن أن يفهموا هذا المعنى المنكر المفترى على عبير القرآن ، إدعاءً لكرامة العلماء ، ولو على حساب عظمة الله وعزته وجبروته ؟!

لقد قال الله سبحانه وتعالى عن نبيه عيسى وأمه مريم : ﴿**قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن فى الأرض جميعاً**﴾ وقال لنبيه محمد وأمته : ﴿**تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة**﴾ ثم قال : ﴿**لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾ والقرآن ـ بعد ـ مليء بأمثال هذه الخطابات الإلٓهية التى تثبت أن الله سبحانه لم يجامل نبياً ولا رسولاً ، وما ينبغى له ، فهو صاحب الفضل عليهم ، اصطنعهم لنفسه ، واصطفاهم لهداية عباده .

وإذا كان ذلك كذلك فى شأن الأنبياء ، فكيف به فى شأن العلماء ؟

وبعد .. فإن هذه القراءة المنكرة من دسائس أعداء الإسلام والقرآن ، وهنالك الكثير والكثير من أمثالها فى كتب التفسير ، مما يناقض تعاليم الاسلام عقلاً ونقلاً ، ولكنها مع ذلك راجت بين معظم المفسرين القدامى على حسن نية ، ثم استغلها الكُتَّاب المعاصرون بنية سيئة .

حول مفهوم الآيتين :

﴿أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾

فى (بريد) مجلة الوعى الاسلامى [1] أجاب الأستاذ «عبدالحميد رياض» على سؤال لأحد قراء المجلة عن إمكانية تربية الأجنَّة فى أرحام صناعية ـ بقوله : «إن تربية النطفة فى الأرحام الصناعية ليست خَلْقاً حتى يشتبه الأمر على القارىء السائل ، ونجاح هذه التجربة لا يزعزع العقيدة فى أن الله وحده هو «الخالق» فالخلق هو أثر القدرة الإلٓهية فى وضع سر الحياة فى ماء الرجل ، فبذرة الحياة هذه هى خصوصية الخالق التى لا يمكن لبشر أن يوجدها ويخلقها . أما تربيتها فى رحم صناعية وفق مواصفات طبية معينة ، فهذا لا يُعَدُّ خلقاً ـ قال الله تعالى :

﴿أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ ؟ [2] .

ونحن نقول للأستاذ «عبدالحميد رياض» ولمن سأله : إن تربية الأجنة فى أرحام صناعية غير ممكنة دينياً وعلمياً أيضاً ..

أما عن الدين فبين أيدينا القرآن الكريم ، والحديث النبوى الصحيح يؤكد أن الله عز وجل هو الخالق وهو المصور ، وهو المربِّى للأجنة فى الأرحام الطبيعية طوْراً بعد طور ، وخلْقاً من بعد خلْق

---

(١) العدد ٩٦/عام ١٣٩٢هـ .

(٢) سورة الواقعة الآيات ٥٧ ، ٥٨ .

إلى أن ينفخ فيها الروح سر الحياة ـ حتى يكتمل نموها لحماً وعظماً وعصباً ، فتخرج من بطون أمهاتها خَلْقاً آخر .. فتبارك الله أحسن الخالقين ـ يقول الله عز وجل :

□ **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ، ثم جعلناه نطفةً فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة عَلَقةً ، فخلقنا العَلَقة مُضْغةً ، فخلقنا المُضْغَة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر .. فتبارك الله أحسن الخالقين﴾** (١)

□ **﴿يخلقكم فى بطون أمهاتكم خَلْقاً من بعد خَلقْ .. فى ظلماتٍ ثلاث﴾** (٢)

□ **﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خَلَقكم أطوارا﴾** (٣)

□ **﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء﴾** (٤)

□ **﴿هو الذى أنشأكم من نفس واحدة .. فمستقر ومستودع﴾** (٥)

□ **﴿يآ أيُّها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مُخلَّقة وغير مخلَّقة .. لنبيِّن لكم ـ ونقرُّ فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمًّى ، ثم نُخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ..﴾** (٦)

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٢.١٣.١٤ .
(٢) سورة الزمر الآية ٦ .
(٣) سورة نوح الآيات ١٣ . ١٤ .
(٤) سورة آل عمران الآية ٦ .
(٥) سورة الانعام الآية ٩٨ والمستقر والمستودع : الاصلاب والارحام .
(٦) سورة الحج الآية ٥ .

□ **﴿ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون﴾** [1]

□ **﴿وهو الذى خلق من الماء بشَرَاً ، فجعله نَسَباً وصهراً﴾** [2]

□ **﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم﴾** [3]

فهذه الآيات المحكمات من القرآن الكريم تقرِّر وتؤكِّد ـ بما لا يدع مجالاً للشك أو الاشتباه أو التأويل ان الله عز وجل هو المنفرد بالخلق والتصوير للأجنة فى بطون امهاتها أو فى الأرحام الطبيعية ، وبالاستمرار والتتبع فى تربيتها وتنميتها خَلْقاً من بعد خلْق ، وطوراً من بعد طور .

وهى ـ هذه الآيات المحكمات ـ تقرر وتؤكد أيضاً أن الأرحام الطبيعية قد جعلت مستقراً للنطف ومستودعاً لها بعد اتحادها مع بويضات الأنثى ، حتى تتدرج فى أطوار الخلْق الإنسانى إلى العلقة فالمضغة ، فتكوين العظام ثم اكتسائها باللحم الخ : (فمستقر ومستودع) .

ثم هى تؤكِّد أن الله عز وجل جعل من خلْق الإنسان على هذه الكيفية الطبيعية من استقرار النطف والبويضات فى الأرحام سبباً لامتداد الأنساب وقيام الإصهار بين الناس ، فالنسب من جهة الأب ، والصهر من جهة الأم : (فجعله نسباً وصهراً) .

---

(١) سورة المرسلات الآيات ٢٠ ـ ٢٤ :

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٤ .

(٣) سورة النجم الآية ٣٢ .

وإلى جانب ما تقدم تقرِّر الآيات : رعاية الله للأجنَّة وإحاطته إياها بالعلم واللطف والتدبير ، وهى فى بطون أمهاتها ، وتصف الرحم الطبيعى بأنه قرار مكين .

□ □ □

وننتقل إلى ما جاء فى الحديث النبوى عن خلق الإنسان فى بطن أمِّه يقول ﷺ : (**إن خلق أحدكم يكون فى بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ، ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغةً مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلماتٍ فيكتب : رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ـ ثم ينفخ فيه الروح**)[1] .

وفى رواية أخرى : (**إن الله قد وكل بالرحم ملكاً فيقول : أى رب نطفة : أى رب علقة : أى رب مضغة : أى رب ذكر أم أنثى ؟ شقى أم سعيد ؟ ما الرزق ء ما الأجل ء فيكتب كذلك فى بطن أمه**) قال الإمام النووى : قال العلماء : «إن للملك ملازمةً تامةً ، ومراعاة لحال النطفة ، فكل وقت يقول فيه ماصارت إليه بإذن الله ، واتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون الا بعد أربعة أشهر» .

ـ وفيما يرويه البخارى عن سؤال أم سليم للنبى ز عن احتلام المرأة وان شبه الجنين بأمه يأتى من مائها ، وما يرويه ابن إسحاق فى السيرة عن سؤال بعض اليهود له ﷺ فى المسألة ذاتها جاء قوله لليهود : (**إن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فأيتهما علتْ صاحبتها كان الشَبَهُ لها**) .

(١) رواه الشيخان .

□ قلت : فكيف تعلو إحداهما الأخرى فى الرحم الصناعية حتى يكون الشبه لها ء بل كيف تتحد الخليتان الذكرية والأنثوية ، فتكون خلية واحدة وتعلق بالرحم الصناعية .. كما هو الحال فى الرحم الطبيعية ؟

□ □ □

أما ما يقوله علماء الطب الحديث ، فقد أيَّدوا ما جاء فى النظريات بل الحقائق الاسلامية عن مراحل تكوين الجنين ، وعن نفخ الروح فيه بعد (١٢٠) يوماً وعن شبه الجنين بالأب أو الأم نتيجة (لحاملات الوراثة) فى النطفة والبويضة ..

ويقول الأطباء : إن دم الحيض فى الرحم الإنسانية هو الذى يمد الجنين بالغذاء والنماء ، لأنه ينقطع أثناء الحمل ـ وان صحة الجنين البدنية تعتمد اعتماداً كبيراً على حالة أمه الصحية ، كما أن مجرى الدم فى الأم يتصل اتصالاً غير مباشر بمجرى دم الجنين داخل المشيمة» [١] .

أما علم وظائف الأعضاء فيقرِّر أن من وظائف (الطحال) المتعددة : صنع خلايا الدم الحمراء والبيضاء للجنين ، وبعد ولادة الطفل يتوقف عمله هذا ..

وفى دراسة علمية للطبيب المصرى الدكتور (عبدالفتاح محمد طيرة) يتحدث عن الآية القرآنية : ﴿**سبحان الذى خلق الأزواج كلها : مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون**﴾ [٢]

(١) المجلة الطبية (نداء الصحة) عدد فبراير ١٩٧٣ م .
(٢) سورة يس الآية ٣٦ .

فيقول : إن الإنسان يتكون «أولاً» من الغذاء الذى تنبته الأرض «وثانيًا» من الخلايا الجنسية المتقطعة من الذكر والأنثى و «ثالثًا» من الروح التى هى سر الحياة .. أى مما لا يعلمون ..

ثم يتحدث الدكتور طيره عن نمو جسم الجنين فى بطن أمه ـ وتطور هذا النمو فى حجم (السمسمة) بعد الأسبوع الأول من الحمل ـ إلى أن يصل وزنه فى الشهر التاسع إلى ثلاثة أو أربعة كيلوجرامات .. وقد أثبتت التجارب والملاحظات أن مصدر كل زيادة فى جسم الجنين هو الغذاء الذى ينقله الدم من أمعاء الأم إلى جسم الجنين» .

وفى دراسة أخرى للدكتور طيرة ـ بمجلة الرسالة الاسلامية ـ حول قوله عز وجل ﴿**خُلِقَ من ماء دافق**﴾ : نستطيع أن نقرر أن المواد التى يتكون منها جسم الانسان فى بطن أمه إنما تستخلص من ثلاثة أنواع من الماء الدافق : ١ ـ ماء الرجل يتدفق من الخصية ٢ ـ السائل المبيضى الذى يتدفَّق من مبيض المرأة ٣ ـ الدم الذى يشارك فى تكوين الجنين بالقسط الأكبر ، وهو يخرج دافقاً فى قذفات متتالية من قلب الأم إلى رحمها .

وبعبارة أخرى أوضح الدكتور طيرة : أن العلقة لا تلبث أن تكبر ويتضاعف حجمها آلاف المرات لتصبح وليداً .. آخذة المادة اللازمة لنموها من الدم الذى يتدفق من القلب إلى الرحم عبر مجموعة من الأوعية الدموية[1] .

(١) الرسالة الاسلامية/ذوالحجة ١٣٩٣ .

□ قلت : فكيف يتوفَّر هذا الغذاء ـ أو هذا النماء ـ للجنين فى الأرحام الصناعية ؟

وأخيراً يقول الدكتور طيرة إن ثمة فى تكوين الجنين صناعةً وتصويراً وخَلْقاً ، وكما أنه لا بد من وراء صناعة السيارة والساعة من صانع ماهر ، فكذلك من وراء الانسان وأمثاله من الكائنات الحية لا بدَّ من خالقٍ .. مصوِّرٍ .. قديرٍ .. حكيم .

وحول قوله تبارك وتعالى : ﴿**ومما لا يعلمون** ..﴾ يقول الدكتور طيرة ما خلاصته : إن الجسد المادى بدون هذا الذى لا نعلمه ـ وهو الروح التى هى سر الحياة ـ يعجز عن مقاومة عوامل الإيذاء والفناء . إنه بالروح أصبح التراب إنساناً ، وبدونه يصبح الإنسان تراباً ! وبالروح يدرك الجسد ما يضره وما ينفعه ، وبها يتقبل الغذاء وينتفع به .. وبها ينمو ويتكاثر ، وبها يحب ويكره ، ويتأمَّل ويفكِّر ويضحك ويبكى ، ويتعلم ويعمل ، ويشقى ويسعد ، وصدق الله العظيم :

□ ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا**﴾ .

حول مفهوم الآية :

﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة﴾

نشرت مجلة «الحج»[1] بحثاً قيماً للدكتور محمد محمد أبوشهبة تحت عنوان (قصة بناء البيت الحرام) ـ استوقفنى فيه الفقرة التالية :

«روى فى صحيح البخارى وغيره عن كتب الحديث المعتمدة ، وكتب السير والتفاسير قصة بناء البيت الحرام على يد الخليل إبراهيم وإبنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بما لا يدع مجالاً للشك ولا للتشكيك فى هذا . وقد رويت روايات أخرى أغلبها موقوفة على بعض الصحابة والتابعين رواها أصحاب التواريخ كالأزرقى والفاكهى وبعض المفسرين بعضها يفيد أن أول من بنى البيت هم الملائكة ، وبعضها يقول : أو أول من بنى البيت آدم عليه السلام وقيل : إبنه شيث الخ) .

كما استرعى انتباهى الفقرة التالية التى عقَّب بها الكاتب الفاضل على ما سبق : (ويعجبنى ـ فى هذا ـ ماقاله المفسر المؤرِّخ إبن كثير فى بدايته : إنه لم يجىء فى خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام . ومن تمسك فى هذا بقوله : «مكان

(١) شهر ربيع الآخر ١٣٨٨هـ .

البيت» فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله ، المقرر فى قدرته ، المعظَّم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم) ..

ذلك ما أورده الباحث العالم الجليل الدكتور أبو شهبة عن بناء البيت الحرام ، وهذا ما عقَّب به من إعجابه برأى الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ فى نفى القول ببناء الملائكة أو بناء آدم أو بناء ابنه «شيث» للبيت ، قبل ابراهيم عليه السلام .

ونحن نرى أن ابن كثير فى نفيه لبناء البيت الحرام قبل ابراهيم قد اعتمد فى رده على المحتجين فى دعوى اسبقية البناء بقوله عز وجل : ﴿**وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت** ..﴾[1] على أن هذا القول ليس حجةً ناهضة ولا ظاهرة ، لأن المراد ـ فى نظره ـ هو مكان البيت المقدر فى علم الله ، وليس مكان البيت الموجود القائم فعلاً أو أثره الباقى الذى يشير إليه أو يدلّ عليه .

ورأى ابن كثير هنا فى الرد على المحتجين بهذا الجزء من الآية القرآنية ـ صحيح ، فليس فيه حجة ظاهرة ولا ناهضة بسابق بناءٍ للبيت الحرام .

وان كنا نرى أن فى قول إبن كثير : (المعظم عند الأنبياء موضعه) بعد قوله : «المقدَّر فى علم الله المقرَّر فى قدرته ـ اعترافاً غير مباشر من ابن كثير بوجود سابق للبيت قبل ابراهيم ، وإلا فكيف يعظِّم الأنبياء من لدن آدم إلى زمان إبراهيم كما يقول إبن كثير ـ بيتاً غير قائم ، أو غير موجود .

---

(١) سورة الحج الآية ٢٦ .

□ □ □

والأهم من ذلك أنه قد فات إبن كثير وفات المعجبين برأيه فى نفى أسبقية بناء الكعبة قبل ابراهيم ـ أن هناك آية من القرآن الكريم .. واضحة صريحة لا تحتمل الجدل ، ولا تقبل التأويل ، وهى تؤكِّد أسبقية بناء البيت قبل الخليل عليه السلام وهى قوله عز وجل حكاية عن إبراهيم نفسه :

□ **﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم .. ربنا ليقيموا الصلاة ...﴾**(1)

فقوله : (عند بيتك المحرم) لا تقبل التأويل الذى أوَّل به إبن كثير آية : **﴿وإذ بوَّأنْا لإبراهيم مكان البيت ..﴾** ـ فهى صريحة الدلالة قوية التأكيد .. على أن إبراهيم عليه السلام جاء بزوجته «هاجر» وولده «اسماعيل» ، وأسكنهما بهذا الوادى الجديب ، حيث لا ضرع ولا زرع ، وإنما حيث بيت الله المحرم .. ولماذا جاء بهم ؟ ليقيموا الصلاة ! !

ومن المعروف المسلَّم : أن إبراهيم عليه السلام يوم هاجر إلى مكة ، ويوم قدمها ، ويوم أنزل بها ذريته ، ودعا دعوته ـ التى أثبتها القرآن ـ لم يكن قد أُمِر ببناء البيت بعد ، ولم يُبَوَّأ له مكانه . وقد عاد إلى دياره الأولى من فوره ، وتبعته أم اسماعيل وهو منطلق عنها ، وهى تقول له : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ تقول له ذلك مراراً ، وهو لا يلتفت إليها ، حتى قالت له : الله أمَرَكَ بهذا ؟ قال نعم قالت : إذن لا يُضيِّعنا . ثم

---

(1) سورة ابراهيم الآية ٣٧ .

رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات .. ورفع يديه» .

هذا ما يرويه الامام البخارى ـ فى صحيحه ـ يسنده عن إبن عباس رضى الله عنهما ، فى حديث طويل .. نلاحظ فيه عبارة : (استقبل بوجهه البيت) أى البيت الحرام الذى ذكره فى دعواته حين قال : ﴿**ربَّنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم .. ربنا ليقيموا الصلاة**﴾ .

□ □ □

وفى قصة بناء البيت التى رواها الإمام البخارى رحمه الله ـ وأوجزناها هنا ـ عبارات تؤكِّد وجود البيت الحرام أو آثاره على نحوٍ ما . فقد جاء فيها قول الراوى : «وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ من يمينه وشماله» .

وبعد سرده لأحداث القصة الطويلة .. من مجىء إبراهيم عليه السلام مرتين إلى مكة ، وبحثه عن إبنه اسماعيل ولقائه فى المرة الأولى بزوجته التى أمره بطلاقها ، ثم لقائه بزوجته الثانية فى المرة التالية وأمره بالإبقاء عليها ـ بعد ذلك يذكر الراوى جَيْئته الثالثة ولقاءه بابنه اسماعيل ، وإخباره إياه بأن الله أمره ببناء البيت ، وهنا ترد عبارة أخرى وهى قوله : «وأشار ـ أى إبراهيم ـ إلى أكمة مرتفعة على ما حولها .. فعند ذلك رفعا القواعد من البيت» .

وهكذا يثبت ـ فى نظرنا ـ بالقرآن الكريم والحديث الصحيح : أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم على نحوٍ ما .. وأن إبراهيم عليه السلام إنما كان مجدِّداً لبنائه ، ومعيداً لكيانه ، وباعثاً للطواف

حوله . والصلاة فيه ..

.. وأن القول بِنَفْى (البناء) قبل إبراهيم إنما هو مجرد شبهة لا تعتمد على دليل يركن إليه من القرآن أو السنة أو التأريخ .

□ □ □

كان ذلك رأينا حول بناء البيت الحرام ، وقد نشرته مجلة (الحج) أيضاً ، فعقَّب عليه الدكتور أبوشهبة تعقيباً قاسياً يتهمنى فيه بأنى : (تكلفت فى تأويل ما ورد فى حديث البخارى .. وبأنى ركبت كل صعب فى تأويل الحديث الصحيح) ..

ولو أن الدكتور أبا شهبة قرأ تعقيبى عليه فى أناة وتدبر وفسحة من المراجعة والمذاكرة ، لتبين بعد ذلك أنى لم أتكلَّف تأويلاً ، ولم أركب صعباً ، وأنى إنما تمسكت بصريح القرآن ، وصحيح السنة . ولم ألجأ ـ كما فعل هو ـ إلى تأويلهما مؤثراً عليهما آراء بعض المفسِّرين القدامى والمحدثين ؟ .

ولنبدأ مناقشة أخرى هادئة هادفة ، نتناول تعقيب الدكتور أبى شهبة فقرة فقرة ..

أولاً : يقول الدكتور : «وما قلته ، ولازلت ، من أن القرآن ، الذى لا يتطرق إليه الشك ، والسنة الصحيحة فى صيحيح البخارى وغيره من أن أول من بنى الكعبة البيت الحرام هو الخليل إبراهيم يعاونه إبنه اسماعيل الخ ..» .

فهذه القولة لم ترد فى بحث الدكتور الأول ، وهى مختلفة عن سابقتها التى عقبت عليها ، فقد قال الدكتور فيما سبق من بحثه : «روى فى صحيح البخارى وغيره من كتب الحديث المعتمدة وكتب

السير والتفاسير قصة بناء البيت الحرام على يد الخليل إبراهيم الخ» ..
والفرق واضح بين المقولتين ..

ففى الأولى السابقة يذكر الدكتور أبوشهبة صحيح البخارى وغيره من كتب الحديث والسير والتفاسير مستنداً له فى بناء البيت الحرام على يد الخليل إبراهيم وإبنه اسماعيل الخ ـ وفى الثانية ـ أى التعقيب ـ يجزم بأن القرآن والسنة الصحيحة يقرران أن (أول) من بنى الكعبة إبراهيم وإبنه اسماعيل .. الخ .

ولو أن القرآن صريح بأن أول من بنى الكعبة إبراهيم ، أو أن الحديث النبوى الصحيح جزم بذلك أيضاً ، لما بقى مجال للاختلاف بين العلماء قديماً وحديثاً .

وأنا أسأل الدكتور أبا شهبة : أين الآية القرآنية أو الحديث النبوى الصحيح عن أولية بناء الكعبةعلى يد إبراهيم بحيث تنتفى أسبقية بنائه على أى نحوٍ من الأنحاء قبله ثم أسأل الدكتور عن هذه الآية القرآنية :

□ **﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكّة مباركاً وهدىً للعالمين﴾** (1)

هل الناس فى هذه الآية هم الناس الموجودون فى عهد إبراهيم وما بعده : ولا (ناس) قبله ؟ وما الذى يقيد الناس فى الآية بهذه البعدية دون القبلية ؟ .

ثانياً : يقول الدكتور : «ولو أن الروايات التى ذكرها الأزرقى

(1) سورة آل عمران الآية ٩٦ .

والفاكهى ومن وافقهما صحيحة .. لتكلفت كما تكلف الأستاذ أحمد فى تأويل ما ورد فى حديث البخارى الخ» .

وأنا لم أعتمد فى تعقيبى على روايات الأزرقى أو الفاكهى أو غيرهما ، سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة ، وبالتالى لم أتكلَّف تأويل حديث البخارى ، بل ذكرت بعضه بنصه كما ذكره الدكتور نفسه ، وإن كان الدكتور عاد فى تعقيبه فقال : إن بعض الأحاديث النبوية فيها تقديم وتأخير ، ليبطل الاستدلال بحديث البخارى فى كون إبراهيم عليه السلام دعا أولاً بتلك الدعوات عندما أسكن ذريته فى مكان بجوار البيت فى قوله (عند بيتك المحرم) ثم عاد مرةً ثانية ثم ثالثة ليبنى البيت الخ ...

مع أن حديث البخارى الذى يروى قصة إبراهيم وهجرته مع زوجته هاجر وولده إسماعيل إلى مكة ، وتركه إياهما بها ، ثم عودته إليهما بعد ذلك مرتين ـ لا يقبل تسلسله التاريخى احتمال التقديم والتأخير فى بعض أجزائه .

وقد أورده الدكتور نفسه فى بحثه الأول ، وعندما رأى أنه حجة عليه فى عدم إثبات أولية بناء إبراهيم للبيت قال إن فيه تقديماً وتأخيراً !

□ □ □

وأى تكلُّف فى عبارتى هذه عن حديث البخارى : «ومن المعروف المسلَّم أن إبراهيم عليه السلام يوم هاجر إلى مكة ويوم قدمها ، ويوم أنزل بها ذريته ، ودعا دعوته التى أثبتها القرآن ـ لم يكن قد أمر ببناء البيت بعد ، ولم يُبَوَّأ له مكانه . وقد عاد إلى دياره

الأولى من فوره ، وتبعته أم اسماعيل ، وهو منطلق عنها ، وهي تقول له : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ تقول له ذلك مراراً . وهو لا يلتفت إليها حتى قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذن لا يضيعنا ـ ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه» هذا ما يرويه البخاري ـ في صحيحه ـ بسنده عن إبن عباس رضي الله عنهما .. نلاحظ فيه عبارة «استقبل بوجهه البيت» أي البيت الحرام الذي ذكره في دعواته حين قال :

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة﴾ .

هذه عبارتي عن حديث البخاري .. وقد تضمنت بعض نصوصه ، فهل فيها تكلُّف للتأويل ، وهل قلت فيها شيئاً من عندي ؟ أم النصوص صريحة في قصة إبراهيم وحواره مع زوجته هاجر ، ثم دعائه بتلك الدعوات كما جاء في نص الحديث ـ نفسه . وجاء في النص أيضاً قوله : (واستقبل بوجهه البيت) وورد فيه كذلك قوله : «وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ من يمينه وشماله» ..

فأين تأويلي ؟ وأين تكلفّي ؟. إنها ألفاظ صريحة لا تحتاج إلى تأويل فضلاً عن تكلُّف في التأويل !

ثالثاً : وفي حين يتهمني الدكتور أبوشهبة بالتأويل والتكلّف فيه .. لحديث البخاري ، وأنا براء منهما ـ يرفض استدلالي بالآية

القرآنية الصريحة : (عند بيتك المحرم) ويرى هو أنها تقبل التأويل .. فيقول : «إن التأويل فيها قريب ومحتمل يعنى عند مكان بيتك المحرم» .

وأنا أعجب كل العجب أن يرى الدكتور أن هذه الآية قابلة للتأويل على النحو الذى ذكره ، ثم أسأله : ما الذى يضطرنا إلى التأويل ـ سواء فى القرآن أو السنة ـ إذا كان اللفظ صريحاً واضحاً ولا يوجد نص آخر يخالفه ـ كآية (عند بيتك المحرم) ؟ .

فهل هناك آية قرآنية صريحة تقرر عدم وجود البيت قبل إبراهيم ؟ أم هل هناك حديث نبوى صحيح ، من قول الرسول ﷺ يقرر فيه صراحة بأن إبراهيم أول من بنى البيت ، وأنه لم يكن هناك بيت قبل إبراهيم ؟ بالطبع ليس هناك آية قرآنية ، ولا حديث نبوى يقرر أن هذه الدعوى . ومن ثم فلا ضرورة لتأويل (عند بيتك المحرم) بمعنى (مكان بيتك المحرم) .

وقياس الدكتور هذا التأويل المردود بالمجاز الوارد فى قوله عز وجل : (وأسألْ القرية) ـ قياس مع الفارق البعيد .. فهنا لا بدَّ من المجاز ، ولا بد من تقدير محذوف .. لأن القرية لا تسأل ولا تجيب . فلا بد عندئذ من تقدير «أهل» للقرية .. وكذلك (العير) فى نفس الآية أى أهل العير .. لأن العير لا تسأل ولا تجيب !

ثم أعجب عجباً أعظم عندما يقول الدكتور بعد ذلك : «والدليل إذا تطرَّق إليه الاحتمال لم يعد نصاً فى الاستدلال كما تقرر ذلك فى علم الأصول الخ ، أى أن آية : ﴿**عند بيتك المحرم**﴾ لم تعد نصاً فى الاستدلال ، فى الوقت الذى يستدل فيه الدكتور بآراء

المفسرين القدامى والمحدثين كابن كثير ورشيد رضا ، على أولية بناء إبراهيم للبيت ! ومع أن حديث البخارى الصحيح بتسلسله التاريخى عن قصة هجرة إبراهيم وبنائه للبيت ـ يفسر الآية القرآنية ويؤيد مفهومها الواضح الصريح ! .

رابعاً : يقول الدكتور : «ولكن الأستاذ اقتناعاً منه بفكرة بناء الملائكة أو آدم للبيت قبل إبراهيم جعلته يركب الصعب فى تأويل الحديث الصحيح .. الخ»

وأنا لم أقتنع بفكرة بناء الملائكة أو آدم للبيت .. وتعقيبى واضح صريح . وإنما أنا مقتنع بأسبقية بناء البيت قبل إبراهيم عليه السلام ، وكان دليلى فى ذلك القرآن والسنة . وليس كتب التاريخ والتفسير كما حاول الدكتور أن يوهم القراء بذلك من كلامه عن الاسرائيليات ! وليس دليلى ، كذلك مايراه ابن كثير أو رشيد رضا ، وغيرهما من المفسرين . فهما وسواهما يؤخذ منه ويرد عليه ..

□ □ □

أما ما ينقله الدكتور أبوشهبة عن الإمام على كرم الله وجهه من قوله : «القرآن حمّال ذو وجوه» فأرجِّح أن العبارة المأثورة عن الإمام هى قوله : (ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن وجوهه) وهى أصوب وأكرم لأن تكملتها التى لم ترد فى رواية الدكتور هى الواجب المفروض على دارسى القرآن ومفسريه .. والا لو اكتفينا بالشطر الأول منها لكان معنى ذلك أن يخوض كل من هب ودب فى تفسير القرآن على الوجه الذى يريده أو يفهمه . دون رجوع إلى المطلق والمقيد ، وإلى الناسخ والمنسوخ ، وإلى أسباب النزول ،

وإلى اعتبار المعنى المشترك بين بعض الألفاظ وإلى سياق الآيات سباقاً ولحاقاً الخ ..

أما قول الإمام (.. فاحملوه على أحسن وجهه) فهو قيد لا بدَّ منه لفهم القرآن على أفضل وجوهه وأصوب معانيه .. ومن هنا نقول : ليس كل تأويل للقرآن مقبولاً ، وللتأويل شروط ومقامات أشرنا إلى بعضها فيما سبق ، ونزيد هنا أن من الكلمات والآيات التى تحتمل التأويل ما يحمل «معنى مشتركاً» كألفاظ «الايمان ـ والاسلام ـ والنور ـ والظلمات ـ والارادة ـ والوحى ـ والهدى ـ والقضاء .. وكثير غيرها» وكآية ﴿**لا تقتلوا أنفسكم**﴾ وآية ﴿**وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم**﴾ وغيرهما .. فهذه الكلمات والآيات ذات وجوه ومعان متعددة ، وينبغى حملها على أحسن الوجوه ، وابلغها وأليقها بمقام القرآن الكريم .

□ □ □

وقد قرأت ـ بعد كتابتى هذا التعقيب ـ «رسالة الحج» التى أصدرتها حكومة الكويت فى موسم الحج عام ١٣٨٨هـ . ووجدت فى ص (١٢ و١٣) منها رأياً للدكتور عبدالمنعم النمر خلاصته «أن الانسان يحس من قول إبراهيم ﴿**عند بيتك المحرم**﴾ أن هنا مكاناً مقدساً سماه بيت الله الحرام ـ وان تقديسه سابق على عهده ، لا مبتدأ من رفعه لقواعده ، لأنه حين ناجى ربه بهذا الكلام لم يكن قد رفع قواعده» .. إلخ .. ويكفينا هذا تعضيداً لوجهة نظرنا

وتأييداً[1]

على أن القول : بأن أول من بنى الكعبة الملائكة أو آدم عليه السلام قد قاله الإمامان (القرطبى) و (إبن الجوزى) كما ذكر شيخ المفسرين الإمام أبو جعفر الطبرى اختلاف أهل التأويل فى القواعد التى رفعها إبراهيم واسماعيل هل هما أحدثاها أم هى قواعد كانت له قبلها ؟ وبعد أن سرد الطبرى الآراء المختلفة هذه قال رحمه الله : (وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت أهبطه الله مع آدم فجعله مكان البيت الذى بمكة .. أو القبة التى ذكرها عطاء .. وجائز أن يكون آدم بناه ثم انهدم) .

كما أن إبن ظهيرة القرشي مؤلف كتاب (الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف) يروى عن جده قاضى القضاة وخطيب المسجد الحرام فخر الدين أبوبكر بن ظهيرة : أنه يحتمل أن يكون إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدَّدا ما بناه غيرهما ـ أى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، ويجوز أن تكون الملائكة بنته ـ أى المسجد الأقصى ـ بعد بنائها للبيت الحرام . الخ ..

ويقول المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) : «إن العرب كانت تحترم مكان البيت قبل بناء إبراهيم عليه السلام له ، وان قوم عاد كانوا يعظمون موضع الكعبة وقد كان ربوة حمراء» .

فلماذا يتحكم الدكتور أبوشهبة برأى إبن كثير وحده فى القول

(١) ينبغى أن يلاحظ أن تعقيبى على الدكتور أبى شهبه كان فى جمادى الأولى سنة ١٣٨٨ ومقالة الدكتور النمر التى تؤيد وجهة نظرى نشرت فى ذى الحجة سنة ١٣٨٨ ـ إى بعد نصف سنة تقريباً .

بأن إبراهيم هو أول من بنى البيت ؟ ويخطىء الآراء المخالفة التى ترى أنه مجدِّد البناء .. وهى صادرة عن أئمةٍ أعلام ؟ .

على أن بحثى وتعقيبى كانا حول أسبقية البناء فقط دون تحديدٍ بآدم أو الملائكة ـ استدلالاً بالقران الصريح والحديث الصحيح .

حول مفهوم الآية :

﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾

قلنا مراراً .. ونكرر القول هنا ـ إن القرآن هو كتاب «الاسلام» الأول ومنهاج المسلمين الأصيل : تشريعاً وتأديباً وتهذيباً ، وهداية إلى الله خالق الكون ، ومدبِّر الأمر فى الأرض والسماوات .

أجل .. القرآن الكريم هو كتاب الإسلام ، وحامل معجزاته الباهرة .. من أنباء وقصص وغيوب غابرة وحاضرة وآتية .. بعضها تحقق فعلاً ، وبعضها يتحقق على مدار الزمن ، وتعاقب الأجيال .

ولكن «القرآن» مع ذلك ليس كتاباً علمياً .. أى ليس نظريات علمية ، وليس من شأنه أن يكون كذلك .. فالنظريات العلمية تتناقض ، وتصدق اليوم ، أو هكذا يبدو أنها صادقة ، ثم تُكَذَّب غداً .

وحاشا القرآن .. ما تناقض قط فى أنبائه ، ولا فى قصصه ، ولا فى مبادئه التشريعية والخُلُقية .

ويخطىء بعض المثقفين من المسلمين حين يحاولون تطبيق بعض إشارات القرآن أو بعض لفتاته المعجزة ، على الاكتشافات أو النظريات الحديثة ، وهم يظنون أنهم يرفعون بذلك شأن القرآن ، بينما يُعرِّضونه بادعاءاتهم للتناقض ، والانتقاد والتعارض ، ويضعونه

دون موضعه من التقديس والتصديق .

والعجيب فى أمر هؤلاء المتظاهرين بالفهم العميق لأسرار القرآن ، وأحكام الاسلام ، أنهم إذا قيل لهم : أخطأتم الفهم وتجاوزتم الحدود .. قالوا : كيف تزعمون أن الدين الإسلامى صالح لكل زمان ومكان ؟ إذا لم تطبّق آيات القرآن على النظريات والاكتشافات والانجازات العلمية والنفسية الحديثة ؟

□ □ □

لقد سألنى أحد الطلاب يوماً ، عن رأيى فيما قاله أحد مدرِّسيه : من أن نبأ المراكب الفضائية جاء فى هذه الآية القرآنية : ﴿**لتركبن طَبَقاً عن طَبَقٍ**﴾ من سورة الانشقاق ؟ .

□ فقلت للطالب : بعد أن حمدت له بحثه وسؤاله عن وجه الحق فى هذه المسألة : إن القرآن يا أخى ليس كتاباً علمياً ، ولا هو فهرست لنظريات علمية . وإن كان القرآن قد أورد الكثير من الاشارات واللفتات والأصول والمبادىء العامة والثابتة .. عن طبائع الأشياء ، ومظاهر الكون ، وفطرة الانسان ، وعن الماضى والمستقبل .. باعتباره كلام خالق الإنسان وصانع الكون ، والخبير العليم بالماضى أولاً ، وبالحاضر والمستقبل أبداً .

فالمبادىء والأصول فى العقيدة والشريعة القرآنيتيْن الاسلاميتيْن : صالحة وصادقة وناجحة فى كل زمان ومكان .. لأنها عامة شاملة تطلب الحق ، وتهدى إلى الخير وتقر العدل ، وتريد الجمال . وتسعى لتحقيق الكمال للانسانية . ولكن طبيعة الانسان تعجز عنه على كل حال .

والاشارات واللفتات ـ فى القرآن الكريم ـ عن الطبيعة : طبيعة الانسان وطبيعة الكون .. هى أيضاً صالحة صادقة ، تتأكد على مرِّ الزمان ، وتعاقب الأجيال ، وتطوُّر العقل البشرى فى إدراكه وكشفه عن مزيد من العلوم والفنون ... ولكن بدون تفصيل ، وبدون ترتيب وتعقيب ، وبدون فلسفات نظرية حتى لا يكون فيها تناقض أو تعارض .. وإنما التناقض والتعارض من صفات البشر ، وفى كلام البشر ، وقوانين البشر ..

﴿ويخلق ما لا تعلمون ..﴾

وقبل أن أشرح للطالب معنى الآية الكريمة ، دللته على آية قرآنية أخرى .. فيها إشارة عامة إلى قدرة الله عز وجل ، التى لا تحدُّها الحدود ، ولا تمسكها القيود ، وهى تنطبق على كافة اختراعات الانسان واكتشافاته على مدى الأجيال المتتابعة حاضراً ومستقبلاً ..

هذه الآية القرآنية .. هى قوله تبارك وتعالى : **﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾** من سورة النحل ـ بعد أن تحدث سبحانه عن نعمة خلقه للخيل والبغال والحمير ، لركوب الإنسان عليها ، وحملها لأثقاله وحاجاته ولأسفاره وانتقالاته ، وجمالا وزينة ومتعةً للإنسان حين يركبها ، وحين يقتنيها ، وحين ينظر إليها : **﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون﴾**[1] .

---

(١) سورة النحل الآية ٧ .

ثم قلت للطالب عن الآية موضوعة البحث : **﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾** إن سياق الآيات وبعدها يمنع تفسيرها بالمحاولات الحديثة لاكتشاف القمر ، وإرسال المراكب الفضائى : التى تحمل الحيوان أو الإنسان لتحقيق تلك المحاولات ـ ولنقرأ الآيات جملة واحدةً ليتضح المعنى ، ويتحدَّد الموضوع :

□ **﴿فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركبنَّ طَبَقاً عن طبق ، فمالهم لا يؤمنون ؟ وإذا قُرِىء عليهم القرآن لا يسجدون ؟﴾**

إن الحديث هنا ـ فى هذه الآيات ـ استنكار لشرك المشركين وكفر الكافرين ، مع بيان بعض آيات الله فى الكون ، التى يرونها بأعينهم ، ويلمسون آثارها المادية بأنفسهم .. الأمر الذى ينبغى أن يكون حافزاً لهم على الإيمان .

فقد أقسم الله بالشفق والليل وما وسق ـ أى ما ضمَّ وجمع تحت سواده وظلامه ، وبالقمر إذا اتسق ـ أى إذا كتمل نوره وتم جماله ـ أقسم سبحانه بهذه الآيات الكونية المحسوسة الملموسة لهم ، على أنهم والناس معهم جميعاً ينتقلون فى خلقهم ، وفى حياتهم .. من دور إلى دور ، ومن طور إلى آخر .. فمن طفولة إلى فتوة ، إلى كهولة ، إلى هرم ، ثم من حياة إلى موت ، إلى بعث وحساب وجزاء :

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ ..

وقد كان المشركون ـ كما هو حال الملحدين اليوم ـ ينكرون البعث ، وبالتالى لا ينتظرون حساباً ولا جزاء .

ومن المعروف ـ فى أصول تفسير القرآن ـ أن القرآن يفسر بعضُه بعضاً ، وفى سورة نوح آية تُفسِّر آية الانشقاق ، وهى قوله عز وجل : ﴿**وقد خلقكم طوارا**﴾[1] وسياق هذه الآية وموضوعها يتشابهان مع تلك تماماً ، فقد سبقتها هذه الآية : ﴿**مالكم لا ترجون لله وقارا**﴾ ؟[2] وآية الانشقاق لحقتها هذه الآية : ﴿**فما لهم لا يؤمنون**﴾ ؟ .

□ قلت للطالب : هذا يا أخى هو معنى آية ﴿**لتركبن طبقاً عن طبق**﴾ وهذا موضوعها ، وذلك سياقها ، ولو صدَّقنا زعم القائل بتطبيقها على المراكب الفضائية الحديثة لكان القرآن ـ وحاشاه ـ يطالب المشركين أو الناس جميعاً حين نزلت الآية أن يقتنعوا بدليل لم يروه أو برهان لم يعقلوه ، ليؤمنوا بالله العزيز الحميد وهو ما لم يتعوده القرآن ، لأنه كتاب الحجة والبرهان ، والاعجاز والإفحام .

لقد كانوا يكفرون بالله ، بالبعث بعد الموت .. وجاء ذلك واضحاً صريحاً فى الآية السابقة على آيات القسم والمقسم عليه من السورة نفسها : ﴿**إنه ظن أن لن يحور .. بلى إن ربه كان به بصيرا**﴾ أى ظن الكافر أنه لن يرجع إلى ربه ، فجاء القسم بالآيات الظاهرة الباهرة التى يراها الكفار رأى العين ، ويلمسونها لمس اليد : على أنهم كما تطَّوروا فى خلْقهم من طفولة إلى رجولة إلى شيخوخة ، فهم كذلك متطورون من حياةٍ إلى موتٍ ثم إلى نشور فحساب وجزاء ..

---

(١) سورة نوح الآية ١٤ .
(٢) سورة نوح الآية ١٣ .

وفى تفسير «الظلال» لشهيد الاسلام سيد قطب رحمه الله :
أن معنى ﴿**لتركبن طبقاً عن طبق**﴾ أى لتعانون حالاً بعد حال ، وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال ، ويعبر عن المعاناة بالركوب ، وهو تعبير عربى مألوف كقولهم : إن المضطر يركب الصعب .. وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدةً بعد واحدة .. حتى تنتهى بهن عند غاية مقدرة مرسومة ، كتقدير أحوال الشفق ، والليل وماوسق ، والقمر إذا اتسق – حتى تنتهى بهم إلى لقاء ربهم ..» .

حول مفهوم الآية :

﴿إن استطعتم أن تنفـذوا من أقطار السمٰـوات والأرض ...﴾

تتردد على الألسنة فى الإذاعات المرئية والمسموعة ، وفى الصحف والمجلات ـ قضية الوصول إلى القمر ، مرتبطة بآية من سورة الرحمن يُحَمِّلها المتحدثون ما لا تحمل من معنى ، ويُقَوِّلونها ما لم تقل من رأى . ويزعم بعضهم أن كلمة «السلطان» فى الآية تعنى سلطان العلم !

وهذه القضية شبيهة بالقضية الأولى ، وكلتاهما فى موضوع واحد : موضوع المراكب الفضائية والوصول إلى القمر .

يقولون إن الآية القرآنية :

﴿يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السمٰـوات والأرض ، فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان﴾

تبدو فيها إشارةٌ صريحة إلى إمكانية نفاذ الانسان من أقطار الأرض ، وليس إلى القمر القريب منا والذى هو كويكب تابع لكوكب الأرض فحسب ، بل النفاذ إلى كواكب أخرى .

ولنقرأ الآية موضوع البحث ، موصولة بما قبلها من آيات وبما بعدها كذلك حتى نتبين أن القائلين بعلاقتها بالوصول إلى القمر قد أبعدوا وأغربوا .

□ يقول عز وجل ـ فى سورة الرحمن :

﴿كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، فبأى آلاء ربكما تكذِّبان ، يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شان ، فبأى آلاء ربكما تكذِّبان ، سنفرغ لكم أيها الثقلان ، فبأى آلاء ربكما تكذِّبان ، يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذِّبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ [1]

إن القرآن هنا فى هذا المقطع من سورة الرحمن يتحدث إلى الجن والإنس :

أولاً : عن إنفراد الله تبارك وتعالى بالبقاء والخلود ، وأن الفناء مصير كل من على الأرض .. من إنسان وجان وحيوان وجماد .

ثانيًا : إن الله عز وجل باعتباره الخالق الرازق والمحيي والمميت ، والمعطى المناع ، والمعز المذل .. يسأله جميع خلقه فى السموات والأرض قضاء حاجاتهم ، واستجابة مسائلهم .. الفقراء منهم يرجون غنىً ، والمرضى يأملون شفاءً ، والعقماء يطلبون ولداً ، والفارغون ينتظرون عملاً ، والمظلومون يلتمسون انصافاً فهو تبارك وتعالى من أجل دينونة خلقه لسلطانه ، وقيامه على تدبير شئونهم كل يوم هو فى شأن جديد : من رفع قوم ، ووضع آخرين ، وشفاء

(١) سورة الرحمن الآيات ٢٦ ـ ٣٦ .

مرضى ، وقبض موتى ، وإعزاز أذلاء ، ونصر أولياء ، وهزيمة أعداء .

وكما قلنا من قبل : إن القرآن يفسِّر بعضه بعضاً ، فهذه الآية : ﴿**كل يوم هو فى شأن**﴾ تفسِّرها وتؤكدها آية أخرى من سورة آل عمران هى قوله عز وجل : ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس ..**﴾ [1]

ثالثاً : بعد تقرير القرآن فى الآيتين السابقتين : انفراد الخالق بالبقاء ، وانفراده أيضاً بتصريف شئون الخلق ـ يقرِّر حقيقةً ثالثةً ، وهى أنه عز وجل سيتفرَّغ يوم القيامة لحسابهم على ماقدَّموا من خيرٍ أو شر : ﴿**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء**﴾ [2]

رابعاً : بعد هذه الحقائق الكونية الكبرى الثلاث يربط القرآن بها حقيقة رابعة .. تقتضيها تلك الحقائق وتستلزمها ولا يجوز أن تنفصل عنها ، هذه الحقيقة الرابعة هى أن الله عز وجل الذى انفرد بالبقاء ، وكل خلقه إلى الفناء ، وانفرد بتصريف أمورهم ، وكلهم يسأله ويرجوه ، والذى سيفرغ يوم القيامة لمحاسبتهم ومجازاتهم ـ هو أيضاً المهيمن عليهم المحيط بهم ، حيث لا يستطيعون إفلاتاً من سلطانه ، ولا هرباً من قهره ولا نفاذاً من أقطار السمٰوات والأرض .

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٠ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٣٠ .

ولنلاحظ هنا قوله : ﴿**من أقطار ..**﴾ فهى الأطراف ـ أى لا يستطيع الخلق الهروب من أطرافها إلى خارجها[١] . والقمر ليس خارجاً عن محيط السمٰوات والأرض ، بل هو كوكب صغير تابع للأرض . فالوصول إليه ليس نفاذاً من أقطار السمٰوات والأرض[٢] .

وقد تكشَّف سر قوله تبارك وتعالى : ﴿**يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران**﴾ فى عصرنا الحاضر أوضح وأبين من ذى قبل ، فقد أثبت علم الفلك الحديث أن النفاذمن أقطار الأرض معناه اختراق الكرة الأرضية عبر لُبِّها المستعر ، والخروج من الجهة المقابلة ، وما من شك أن مجرد اختراق القشرة اليابسة للأرض معناه انطلاق مواد الباطن على هيئة بركان مدمِّر ، ومثله اختراق أقطار السماوات .. معناه عبور الشموس والنجوم وسائر ألوان الغبار الكونى ، وأحزمة الأشعة الكونية ومجاريها ، وهى أشد احتراقاً من براكين الأرض[٣] .

مطلق المشيئة الإلٓهية :

أما قوله عز وجل بعد ذلك : ﴿**لا تنفذون الا بسلطان**﴾ فهو تقرير لمطلق المشيئة الإلٓهية ، وقد تكرر مثل ذلك فى آيات كثيرة كقوله تبارك لنبيه محمد ﷺ فى سورة الاسراء : ﴿**ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذى أوحينا إليك**﴾ وكقوله عز وجل : ﴿**قل فمن يملك**

---

(١) فى الحديث النبوى الذى يرويه مسلم : «**وألا أسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ـ فيستبيح بيضتهم . ولو اجتمع عليهم من بأقطارها** ..» أى باطرافها يعنى «**الأرض**» .

(٢) لأبى العلاء فى هذا المعنى قوله : .

(وهل يأبق الانسان من ملك ربه ـ فيخرج من أرض له وسماء) ؟ .

(٣) الدكتور محمد جمال الفندى فى كتابه (القرآن وعلم الفلك) .

من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح إبن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً﴾ [1] .

وتقرير القرآن لمطلق المشيئة الإلٓهية مُهمٌّ جداً لإفهام الناس أن الله تبارك وتعالى ، وإن كان هو الذى وضع للكون قوانينه وسننه ، وخلق فى الإنسان طبائعه وغرائزه .. الا أنه سبحانه ليس محكوماً ولا مقيداً بهذه القوانين والسنن ، فإنه قادرٌ على خرقها متى شاء وكيف أراد .

وفى القرآن نفسه : أمثلة على أن الله عز وجل لا يتقيَّد بما وضع من سنن وقوانين وطبائع للأشياء ، بل هو تبارك وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

□ فقد أبطل سبحانه قانون ـ النار ـ وهو الإحراق ، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام حين ألقاه النمرود فيها .

□ وابطل قانون النسل عن طريق الزوجين فخلق آدم عليه السلام من غير أبوين ، وخلق حواء من أب بلا أمٍّ ، وجاء المسيح عليه السلام من أم بلا أب .

□ وكذلك أبطل سبحانه قانون الماء ـ وهو الإغراق ـ فضرب البحر ليكون طريقاً يبساً لموسى ينجو به هو وقومه ، وينخدع فرعون وملؤه به فيتبعوا موسى فيغرقهم حيث يعود إليه قانونه .

□ ومن ذلك قوله عز وجل ـ فى سورة (عبس) : **﴿ثم أماته فأقبره ـ ثم إذا شاء أنشره﴾** مع أن البعث بعد الموت أمرٌ مقرَّرٌ وقضية أطال القرآن فى مجادلة الكافرين حولها مؤكداً لها ، ولكنه قال هنا : (إذا شاء) لتقرير المشيئة الإلٓهية المطلقة .

---

(١)سورة المائدة الآية ١٧ .

والحديث النبوى (**لن يدخل أحد الجنة بعمله**) قالوا ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا الا أن يتغمَّنى الله برحمته[1] يؤكد ما اسلفناه من أن الإرادة الإلٓهية مطلقة لا يقيدها شيء فمحمد عليه الصلاة والسلام مع كونه خاتم الأنبياء وأفضل الرسل لم يحكم لنفسه بالجنة ، ولو أن سنة الله قد جرت بأن الأنبياء هم المصطفون الأخيار ، وأنهم فى أعلى عليين .

وإذن يكون معنى قوله عز وجل : ﴿**لا تنفذون الا بسلطان**﴾ أنه لو أراد تبارك وتعالى أن يجعل للجن والإنس مهرباً من أقطار السماوات والأرض لفعل ، ولكنه قضى ألَّا يجعل لهم ذلك السلطان ، فقال فى الآية التالية مباشرة : ﴿**يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران**﴾ .

ولقد كان الدكتور محمد جمال الفندى من القائلين بتطبيق هذه الآية على مسألة الوصول إلى القمر ـ فى كتابه (لماذا أنا مؤمن) ولكنه رجع عن القول بذلك فى مقال له نشرته مجلة الوعى الاسلامى[2] ـ حيث قال : «يظن كثير من الناس خطأ وقد كنت منهم أن قول الله تعالى : ﴿**يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ـ لا تنفذون الا بسلطان ..**﴾ من دلائل انطلاق الإنسان إلى الفضاء ولكن الحقيقة عندما نفهم معنى (أقطار) تماماً نجد أن المعنى إشارة واضحة إلى التعجيز ـ ثم ذكر الدكتور الفندى من الموانع ما أشرنا إليه آنفاً ، ثم

---

(١) أخرجه البخارى .

(٢) عدد ذى الحجة سنة ١٣٩٢هـ .

أضاف قوله : أما الوصول إلى القمر أو المريخ أو الزهرة فليس معناه النفاذ من أقطار السماوات والأرض بحالٍ من الأحوال .. وقد عرفنا امتداد الكون ، واتساع السماوات ، وأن أقطارها تربو وتزيد على عدة آلاف من الملايين والسنين الضوئية» آهـ .

وإذا رجعنا إلى أقوال بعض علماء السلف حول مفهوم هذه الآية نجد الإمام الطبرى ينقل فى تفسيره أقوالاً متعددة منها : أنكم إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا ذلك ، فإنكم لا تجوزونها إلا بسلطان من ربكم .. وإن ذلك يقال لهم يوم القيامة ! وقال بعضهم معنى ذلك إن استطعتم أن تنفذوا فانفذوا هاربين من الموت فهو مدرككم ، ولا ينفعكم هربكم منه ، وقال آخرون : أى لا تخرجون من سلطانى ـ والسلطان فى قول بعضهم البينة وفى قول آخرين الحجة .

وهكذا ينجلى واضحاً صريحاً أن الآية موضوعة البحث : بعيدة كل البعد عن مسألة الوصول إلى القمر وغير القمر أيضاً .

حول مفهوم الآية :

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾

كتب الشيخ حامد محيسن ـ عضو جماعة كبار العلماء بمصر ـ فى مجلة الأزهر عام ١٣٦٨ بحثاً تحت عنوان «المجاز والكناية فى القرآن» تصدَّى فيه لهذه الآية من سورة الملك ﴿ **ولقد زيَّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين** ﴾[1] منتقداً آراء سلف المفسرين القائلين بأن معنى ﴿**رجوماً للشياطين**﴾ هو كون النجوم ـ بجانب إزديان السماء بها واهتداء السابلة بعلاماتها ـ قذائف للشياطين .. مسترِق السمع إلى أنباء السماء .

انتقد الشيخ محيسن ذلك ، وقرَّر جازماً أن معنى الرجوم فى الآية هو أن النجوم حجج واضحة قوية على وجود الله ، وما يجب له من صفات الكمال ، فهى كتابة بارعة بالغة عن قوة الحجة ، وسطوع البرهان المُسكت للمجادل والمعاند . إنها حجج يرجم بها الكافرون الذين استحقوا لكفرهم أن يسموا شياطين ! ! »

واعتل الشيخ محيسن لنقد رأى المفسرين ، وتأييد رأيه بالعلل الآتية :

---

(١) سورة الملك الآية ٥ .

أولاً : أن فى تصور محاولة الشياطين لاستراق السمع إلى أنباء السماء تهويناً لحرم الله واستهانة بمكان تصرُّفه وتدبيره .

ثانياً : إنه لا يُعْقَل أن يتساوى الله وخَلْقُه فى إجراء المشاورات والمحاورات قبل إصدار أمره بما يشاء ، حتى يكونَ هناك مجالٌ لاستراق الشياطين لما يجرى ثمة من كلام !

ثالثاً : إن سورة الملك جميعها تهدف إلى غاية واحدة .. هى لفت الأنظار إلى بديع آيات الله وجميل صنعه ، ثم إن الآية السابقة للآية موضوعة البحث تقرر خلوّ السماء من الفطور والشقوق التى تتيح للشياطين إستراق الأنباء ! !

رابعاً : إنه لا يتصور أن يفهم فاهم أن النجوم التى جعلت زينة السماء وهداية فى الأرض يمكن أن تكون قذائف للشياطين .. مستمعى أخبار الملأ الأعلى ! !

خامساً : إن القرآن أنزل هدايةً للانس ، فكيف نتصوّر أن يكون فيه نذير على معصية يقترفها غيرنا من الجن أو الشياطين الذين لا نفهم كنههم !

سادساً : إنه لو صح أن نفهم أن معنى ﴿**رجوما للشياطين**﴾ قذائف لمسترق السمع منهم لزم أن يكون ذلك منذ بداية خلق السماوات ، ليرافق العطف بالواو على تزيين السماء بالمصابيح . «إذ لا يعقل أن يكون التزيين منذ البداية والرجم عند بعثة النبى عليه الصلاة والسلام ويعطفان بالواو» .

هذه علل الشيخ محيسن فيما أدلى به من رأى نفسه ، وما نقضه من آراء غيره . وها هو القرآن الكريم نفسه يأتى بنيان الشيخ من القواعد :

أولاً : ينقض القرآن غزل الشيخ فى إنكاره لتسمّع الشياطين أنباء السماء بهذه الآيات :

□ **﴿ولقد جعلنا فى السماء بروجاً ، وزيَّناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين﴾** (1)

□ **﴿انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعّون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحوراً ولهم عذاب واصب ، الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب﴾** (2)

□ **﴿هل انبئكم على من تنزَّل الشياطين ؟ تنزل على كل أفَّاكٍ أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾** (3)

□ **﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا﴾** (4)

ويَتَأيَّد حديث القرآن عن الجن والشياطين واستماعهم إلى أنباء السماء ، بحديث النبى عليه الصلاة والسلام فيما روته عائشة رضى الله عنها ـ قالت : سأل أناس النبى عليه الصلاة والسلام عن الكهان ، فقال إنهم ليسوا بشيء ، فقالوا إنهم يحدثون أحياناً

---

(1) سورة الحجر الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

(2) سورة الصافات الآيات ٦ ـ ١٠ .

(3) سورة الشعراء الآيات ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

(4) سورة الجن الآيات ٨ ، ٩ .

بالشيء يكون حقاً؟ فقال : (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى ، فيقذفها فى أذن وليّه فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة)[1]

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما[2] أنه لمَّا حِيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب المحرقة شكوا ذلك إلى إبليس ، فقال ما هذا الا من أمرٍ قد حدث ، وبث جنوده ، فاذا بالنبى عليه الصلاة والسلام يصلى بين جبلى نخلة فى طريق الطائف ويأتيه وفد الجن كما قصَّ قصتهم القرآن :

﴿**وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن** ..﴾ إلى آخر القصة الواردة فى آيات الأحقاف (**٢٩ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤**) .

وأنا استغرب بل استنكر أن يكون عالم ـ كالشيخ محيسن ـ عضو فى جماعة كبار العلماء بالأزهر فى مصر .. لم يقرأ هذه الآيات القرآنية ويعرف هذه الأحاديث النبوية التى تثبت كون الكواكب أو النجوم رجوماً للشياطين ! !

ثانياً : لم يزعم أحد من العلماء ، أو حتى الجهلاء والسفهاء من الناس أن الله تعالى كخلقه يشاور ويداور فى السماء .. حين يدبّر أو يقدّر ، فيكون بذلك سبيل إلى تسمع الشياطين إلى أخبار الملأ الأعلى ، كما يخاف الشيخ محيسن أن يتصور ذلك . وإنما يذكر القرآن فى سورة سبأ ، والحديث النبوى فيما رواه البخارى والترمذى وابن ماجة وأبوداود «**إن الله سبحانه إذا قضى الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خِضعاناً لقوله تعالى كأنه سلسلة على**

---

(١) رواه البخارى ومسلم وابن مردوية .

(٢) رواه أحمد والبيهقى .

صفوان : **﴿حتى إذا فُزِّع على قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ، قالوا الحق ، وهو العلى الكبير﴾**[1] .

ثالثاً : إن ما لوحظ فى سورة المُلك من اتيان آياتها كلها ـ كما تراءى للشيخ للتدبُّر والتفكّر فى خلق السماوات والأرض ، لا يمنع أن تكون النجوم رجوماً للشياطين ، فهى بهذا الوصف أبلغ فى الدلالة على القدرة الإلّهية العجيبة التى لا يعجزها أن تجعل من مادة واحدة ـ النجوم ـ مصابيح للطارقين ، وزينات للناظرين ، وشُهُباً تقذف بها وجوه الشياطين .. كما جعل الله سبحانه من الشجر الأخضر ناراً .. ومن الشمس سراجاً يضىء ولهباً يحرق ودفئاً ينضج النبات . ولكن الشيخ يستهول غير هائل ، ويتصور غير متصوَّر ، ويستنبط غير مفهوم .

رابعاً : نعم : إن القرآن أنزل لهداية البشر ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون فيه هداية للجن أيضاً ، بل هذا هو واقع آياته وسوره وقصصه التى تتحدث عن الملائكة وعن الجن وعن الشياطين أحاديث عَجَباً .. وكيف غرب عن بال الشيخ محيسن ما قصته سورة الجن وسورة الأحقاف عن وفود نفر من الجن على نبينا عليه الصلاة والسلام وإيمانهم بالقرآن ، وما قررته سورة الجن من أن منهم مسلمين وقاسطين ، وما قصته سورة سبأ وسورة النمل عن تسلط النبى سليمان عليه السلام على الجن والشياطين واستخدامه إياهم .. وكيف نسى الشيخ ما قصه القرآن عن آدم عليه السلام وإبليس والملائكة ، وعن قبيل إبليس وجنوده الذين أرسلوا فتنة للغواة ، وامتحاناً للطائع والعاصى من الناس .

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٣ .

وكيف غاب عن ذهن الشيخ أن القرآن تحدث إلينا عن خلق الجن والشياطين وأضافت السنة النبوية إلى ذلك أحاديث وأحاديث .. لعل الشيخ محيسن لم ينس منها الحديث الذى يروى أن نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام كان يتلو على أصحابه سورة الرحمن ، فعجب منهم أن يصمتوا عند ترتيله الآية المكررة منها ﴿**بأى آلاء ربكما تكذبان**﴾ وقال : أن الجن أحسن رداً منكم ، ما تلوتها عليهم الا قالوا : «ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد» !

وأخيراً كيف يجهل آية الرحمن الموجهة إلى الثقلين ﴿**يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فلتنفذوا .. لا تنفذون الا بسلطان**﴾

وآية الانعام : ﴿**وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، ولئن اطعمتموهم انكم لمشركون**﴾

وهل يصح فى الأذهان أن نقول على مذهب الشيخ ـ مالنا وللشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم ؟! فنحن ناس والقرآن للناس ولا للجن ولا للشياطين !

خامساً : إن واو العطف لا تقتضى ـ كما توهم الشيخ ـ اتحاد زمن المعطوفات كما لا تقتضى ترتيبها الزمانى ولا المكانى ـ وأقرب الأدلة وأظهر الأمثلة على ذلك يسعفنا بها القرآن نفسه : فهذه آية النمل : ﴿**قالت رب إنى ظلمت نفسى ، واسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾ هل يستطيع الشيخ محيسن أن يقول باتحاد زمن ظلم بلقيس لنفسها واسلامها مع سليمان ؟ أن معنى ذلك أنها ظلمت نفسها باسلامها مع سليمان لله رب العالمين ، وهو باطل مقالاً

وحالاً .. فهى تعنى ظلمها لنفسها عندما كانت ضالة كافرة ، ثم اسلامها مع سليمان أخيراً عندما تبينت صدق نبوته وحقيقة رسالته .
وهذه آية ياسين ﴿**إنا نحن نحيي الموتى ، ونكتب ماقدموا وآثارهم**﴾
هل يستطيع الشيخ أن يقول أن عطف كتابة ما قدم الناس فى حياتهم وما خلفوا من آثار بعد موتهم ، على بعثهم يوم القيامة يفيد الترتيب الزمنى أو الاتحاد الزمنى ؟ ان ذلك مستحيل بلا جدال .. فكتابة آثار الموتى إنما كان فى حياتهم ، وإحياؤهم إنما يأتى يوم القيامة !

ونعجب كثيراً كيف يقول الشيخ محيسن إنه لا يعرف كنه الجن ، مع أن القرآن والحديث النبوى تحدثا عن هذا الكنه خلقاً وطبيعة وسلوكاً !

وإذن فقد علم الشيخ ـ منذ الآن على الأقل ـ أن واو العطف فى آية الملك : ﴿**انا زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾
لا تفيد اتحاد الزمن كما زعم ، وإن شاء تأكيداً فليرجع إلى القرآن مرة أخرى ليجد أنه قدم مرة ذكر خلق السماء على الأرض ، وبالعكس ، وكذلك الجن والإنس ، والحياة والموت ، والأولى والآخرة . لقد وردت كل هذه الأشياء فى القرآن معطوفة بالواو دون أن تفيد ترتيباً فى الزمان أو المكان .

ونزيد الشيخ علماً .. أن المقصود يكون النجوم رجوماً للشياطين ، ان تنفصل منها شُهُبٌ ، أى قطع من الشواظ تُلْهَبُ بها وجوههم وظهورهم ، فيموت منهم فريق ويحيا ممسوخاً فريق .

حول مفهوم الآية :

﴿فقال لها وللأرض إءتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين﴾

فى جريدة (الهدى) التى تصدر فى بغداد فصول متتالية باسم : (القرآن ونموذج من تفسيرى) لفضيلة الأستاذ رشيد الخطيب . ومن واجبى ـ وقد انتفعت بأكثر ما جاء فى هذه الفصول من صحة إدراك الكاتب الفاضل لبلاغة أساليب القرآن واعجاز معانيه ـ أن أقدم لفضيلته إعجابى وإجلالى وأسأله المزيد . . .

وقد عرضت لى وأنا أطالع تلك الفصول مَلَاحِظُ أحببت أن أبسطها هنا جدالاً بالتى هى أحسن للكاتب الفاضل أولاً ، وثانياً لاستنباط آراء القراء العلماء فى تأييده أو تأييدى .

قال فضيلته : (من أساليب حكاية التكوين ، وهو عبارة عن بيان الواقع فى صفة الشيء كقوله تعالى : **﴿فقال لها وللأرض إءتيا طوعاً أو كرهاً . . قالتا أتينا طائعين﴾** فقد قالوا ليس هناك أمر بالقول على الحقيقة ولا جواب ، ولكن الكلام على التمثيل يبين سهولة ذلك عليه تعالى﴾ .

ونحن نعلم أن تفسير قصص القرآن بالتمثيل . . مذهب اعتزالى قديم !

ونعلم كذلك أن بعض المدرسين فى جامعة القاهرة يذهبون هذا المذهب إما تقليداً للاعتزالية الحائدة ، أو تأثراً بالخيالية الفنية فى الأدب الأوروبى الحديث ، فهم يقولون : (إن القصص القرآنى لم يراع الحقيقة التأريخية ، وإن المقصود منه غرض فنى ، فلسنا ملزمين بتصديق حقائق هذه القصص)[1]

ومع ذلك نستطيع أن نقول بجواز أن يكون الأمر والائتمار فى الآية السابقة تمثيليَّينْ ، ولكنا لا نجزم به ، لأن الجزم به ضرب من الرجم بالغيب ، وهو كذلك ضرب من الريب فى قدرة الله القادرة على الأمر قولاً ، وانطاق الأرض والسماوات بالإئتمار قولاً كذلك ، ومعاذ الجلال فى مقام الكبير المتعال أن نرجم بالغيب أو نقول بالريب[2] .

ولكن ليس بالجائز ولا شبيهاً بالجائز أن نقول بالتمثيل فى حكاية مكالمة الله تعالى للملائكة فى شأن آدم وخلقه واسجادهم له ، وامتناع إبليس عن السجود معهم ، ومكافأة الله تعالى له بطرده ، وطلبه الإنظار إلى يوم القيامة الخ . وهذا ما ذهب إليه الأستاذ الخطيب فى بعض فصوله ، ونريد أن نجادله فيه :

أولاً : بان البلاغة وهى الإمتاع والإقناع بتعريف إجمالى شامل

---

(١) راجع نقدنا لأمين الخلولى وتلميذه محمد أحمد خلف الله فى هذا الكتاب .

(٢) يرى الأستاذ سيد قطب ـ فى تفسير (الظلال) أن افعال الله تبارك وتعالى كاسمائه : «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» فكل ما يحكيه القرآن عن خلق السماوات والارض ومخاطبتها وردها . وكذلك ما حكاه عن أخذ الميثاق من ذرية آدم واشهادهم على أنفسهم : جائز وممكن وداخل فى قدرة الله . وينبغى التسليم به دون تاويلٍ أو إدعاء تمثيل ـ وهذا هو مذهب سلف الامة من أهل السنة .

لها حدود ومقامات ، والتمثيل وهو أحد أساليبها ، أخلق بالتزام الحد والمقام ، فليست كل قصة تمثيلاً ، وليس التمثيل خليقاً بكل قصة .

ولو ذهبنا مذهب التمثيل فى تفسير قصص الكتاب والسنة لكان الاسلام ــ طبيعةً وشريعةً ــ دين الخيال ، لا دين الحقيقة ، ودين التمثيل لا دين التسجيل ، ومعاذ الحق والصدق والإيمان بالغيب ، والفطرة الطاهرة فى هذا الدين الأهدى : أن نقول بالخيال فيه ..

ثم إن تأويل قصص القرآن على أنه من قبيل التمثيل معناه أن يكون حمل هذا القصص على معناه الظاهر غير ميسور .

وقصة آدم وإبليس والملائكة لا نجد دليلاً شرعياً أو برهاناً عقلياً يصرف ألفاظها عن حقائقها إلى مجازات التمثيل ..

ثانياً : إن قصة الأرض والسماوات ليست كقصة مكالمة آدم والملائكة وإبليس من حيث جواز التمثيل عليها ، فتلك قصة ليس فيها أكثر من أمر وائتمار وهما من مقامات التمثيل وحدوده ، ولا كذلك قصة آدم والملائكة وابليس لاشتمالها مواقف كثيرة لا يجوز عليها التمثيل :

□ **الموقف الأول** : إيذان الله تعالى للملائكة بإقامة خليفة فى الأرض ، وعجب الملائكة من جعل هذا الخليفة الذى ستفسد ــ بزعمهم ــ ذريته فى الأرض وتسفك الدماء كما أفسدت الجن من قبل ، وسفكت الدماء . ورد الله تعالى عليهم بأن له فى ذلك حكمة لا يعلمونها ، وسيعلمونها .

□ **الموقف الثانى : تعليمه تعالى أسماء المخلوقات لآدم : وعرض المخلوقات على الملائكة واستنباؤهم عن اسمائها . واعتراف الملائكة بالعجز عن الإنباء ، وجعل الأستاذية لآدم عليهم فى تعليمهم أسماء**

المخلوقات .. اثباتاً لفضله عليهم .. وهم الذين عارضوا فى استخلافه على الأرض .

□ **الموقف الثالث** : أمره تعالى لهم بالسجود له ، وائتمارهم بذلك عدا إبليس ، وسؤاله تعالى لإبليس : ﴿**مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين**﴾ ؟ وليلاحظ ما فيه من تقريع لإبليس على امتناعه عن السجود لما خلق الله بنفسه وجعله خليفته بحكمته ، مما يمتنع معه أن يكون السؤال تمثيلاً وخيالاً ، ورد إبليس بأنه أكبر ـ بزعمه ـ من أن يسجد لبشرٍ خلق من صلصالٍ من حمأٍ مسنون .

□ **الموقف الرابع** : قوله تعالى له : ﴿**فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبَّر فيها فأخرج إنك من الصاغرين**﴾ وطلب إبليس إنظاره إلى يوم القيامة ، وإنظار الله تعالى له إتماماً لتنفيذ حكمته فى خلقه ..

□ **الموقف الخامس** : رد إبليس على الله تعالى بأنه سيحتنك ذرية آدم ، ويُغْوِيهم الا عباد الله المخلصين ، ورد الله تعالى على إبليس بأن عباده ليس له عليهم سلطان ، وأنه هو وكيلهم سيكفيهم إياه .. وتأكيد الله تعالى لحكمة إنظاره بقوله : ﴿**واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم .. وما يعدهم الشيطان الا غروراً**﴾ .

فكيف نفهم هذه المواقف العملية فى قصة آدم والملائكة وإبليس ؟ إذا ذهبنا فى تفسيرها مذهب الخيال والتمثيل ؟ .

□ □ □

على أننا لا ندرى للأستاذ الخطيب ـ ولا لابن كثير الذى يروى عنه بعض ما قال به ـ حجة ولو ضعيفة على ادعاء إن هذا الجدال

الإبليسى تمثيل أريد به بيان الواقع فى طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان .

وهو إدعاء كان يجب أن يعتمد أول ما يعتمد على دليل قطعى لأن موضوعه من أفراد العقيدة الاسلامية التى لا يدركها العقل والاجتهاد .

ومن أين لابن كثير ومن ذهب مذهبه من القدامى والمحدثين الدليل القطعى على أن الله لم يجادل إبليس بالقول ، ولم يجادله إبليس بالقول كذلك ؟

وكيف يدعون الخيال والتمثيل على مواقف إلهية عقائدية لا تغنى فيها الظنون ؟ ألا عفا الله عن علمائنا الأولين لأنهم خاضوا فى غير مخاض .

وعفا عنهم المرة الثانية لأنهم صدقوا بالإسرائيليات وهى أمراض وأغراض ، وعفا عنهم للمرة الثالثة ، كثيراً قالوا ما لا يقال ، وقلما قالوا ما يجب أن يقال .

وعفا عنهم للمرة الرابعة لأنهم أوسعوا المجال للمستشرقين ـ وللمستغربين منا أيضاً ـ لأن يسيئوا الظن بكتابنا وألبابنا .

حول مفهوم الآية :

﴿إن الله عنده علم الساعة وينزِّل الغيث ..﴾

يرى الزميل الفاضل الأستاذ محمد عبدالغنى القاسمى : أن العلم الحديث بما عرَّفنا عن كيفية تكوين المَطر ونزوله قد جعلنا نستطيع أن نحكم بحصوله بمجرد ما نرى الرياح فى جو السماء ، وأن الله عز وجل عندما قال : ﴿**وينزِّل الغيث**﴾[1] لا يعنى إنفراده بعلم نزول الغيث فنحن نعلمه أيضاً[2]

قلت : أن ننتظر نزول المطر بعد بدوّ علائمه من احتجاب الشمس ، وانتشار السحب ، وهبوب الرياح فهذا ممكن وصحيح ، أما أن نحكم جازمين بنزول المطر فعلاً بعد ظهور تلك العلائم ، وحدوث هذه المقدمات ، فغير صحيح وغير لائق بالمؤمنين الذين يعتقدون أن الله سبحانه وحده هو الفعَّال لما يريد ، وأنه تبارك وتَعَالى غير محكوم لما وضع هو من سنن كونية أو قوانين طبيعية .

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٤ .
(٢) الاستاذ القاسمى مدرس فى كلية الشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وقد نشر مقاله هذا بمجلة (الحج) المكية . التى تحوَّل اسمها إلى «التضامن الاسلامى» .

والقرآن نفسه ، وإن كان يقول فى آية من سورة الروم : ﴿**الله الذى يرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون**﴾ ويكرِّر هذا المعنى فى آيات أخرى .. إلا أنه يقيِّد نزوله بمشيئة الله على من يشاء من عباده ، ويكرر هذا «القيد» فى آيةٍ أخرى من سورة النور وهى قوله عز وجل : ﴿**فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء**﴾ .

بل يؤكِّد القرآن : أن هذه العلائم والمقدمات وإن كان الله تبارك وتعالى قد جعلها أساساً لبشريات نزول المطَر إلا أنها ليست حاسمةً أو جازمة فى نزوله ، وذلك فى مثل قوله – فى سورة الروم أيضاً – ﴿**ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً** ..﴾ أى تخويفاً من عذابه ، وتطميعاً فى رحمته .

ثم يقصُّ القرآن علينا ما حدث لعاد ، حين نظروا فى السماء فرأوا فيها علائم المطر : ﴿**فلما رأوه عارضاً مستقبلَ أوديتهم قالوا هذا عارضٌ مُمْطِرنا**﴾ [1] فردَّ الله عليهم استبشارهم ، واذهب ابتهاجهم (بل هو ما استعجلتم به : ريحٌ فيها عذاب أليم) .

وفى مسند الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها : أن النبى ﷺ كان إذا رأى غيماً أو ريحاً رؤيت الكراهية فى وجهه ، وقد سألته فى ذلك فأجابها : ما يُؤمِّنُنى أن تكون عذاباً وقد عُذِّب قومٌ بالريح .. «يعنى قوم عاد كما ذكرنا آنفاً .

وفى حديث : «مفاتيح الغيب خمس ..» الذى يرويه الإمام

---

(١) سورة الاحقاف/٢٤ .

البخارى ، وسنذكره كاملاً فيما بعد ـ قوله ﷺ : «وما يدرى أحد متى يجىء المطر» .

ولذلك أدَّبنا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : بأن نستقبل علائم المطر ومقدماته بهذا الدعاء المأثور : اللهم سُقْيَا رحمةٍ ، لا سُقْيَا عذابٍ ولا هدْمٍ ولا غَرَق» أدبنا الرسول ﷺ بهذا الأدب الربانى لتعويدنا على اليقين الثابت بأن الله وحده هو الفعّال لما يريد ، وأننا مهما أوتينا من علم اكتشافى أو اختراعى ، فما تزال البشرية كلها وما يزال الكون كله خاضعين لإرادته المطلقة من كل قيد ، ومن كل شرط ، ومن كل قانون ـ وصدق الله العظيم إذ يقول :

□ **﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفسه ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير﴾**(1) .

العلم بنوع الجنين :

ويرى الزميل الفاضل أيضاً : أن العلم الحديث استطاع أن يكشف ما فى رحم الأنثى الحامل ـ أهو ذكر أم أنثى ـ قلت : إن زعم هذا الاكتشاف غير مسلَّم به ، والأشعة السينية وإن استطاعت اختراق جدار البطن لتكشف ما وراءه ، فهى لم تستطع بعد أن تخترق جدار الرحم ثم سياج المشيمة التى تلف الجنين فى طياتها ، حتى تتبيَّن نوع الجنين أذكر هو أم أنثى .

وصدق الله العظيم إذ يقول : **﴿يخلقكم فى بطون أمهاتكم**

---

(1) سورة لقمان/٣٤ .

خلقاً من بعد خلْق فى ظلمات ثلاث﴾ وفى تفسير القرطبى : أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : «كل شىء أوتى نبيكم غير خمس»[1] وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال : هذه الخمس لا يعلمها الا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل فمن ادعى أنه يعلم شيئاً منها فقد كفر بالقرآن» .

الحديث عن المستقبل :

ويرى الأستاذ القاسمى أيضاً أن قوله تعالى : **﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً﴾** خاص بما كان من كسب النفس ، وليست كل أحداث المستقبل مما خصَّ الله به نفسه ، بدليل أن الرسول ﷺ قد حدثنا عن بعضها كما جاء فى حديث الفتن ، كما أن الفلكى الآن يستطيع أن يحدد زمن الخسوف والكسوف قبل وقوعها ، وبدليل الحوادث الكيمائية التى يخبرنا المهندس الكيمائى عن وقوعها قبل إجراء التجربة ..

قلت : إن الآية لا علاقة لها بما يحدث فى التركيبات الهندسية والكيمائية ، فهذه تخضع لقوانين خاصة وليست من «الغيوب» التى استأثر الله بعلمها ، ولا صلة لها ـ كذلك ـ بالفتن التى حدَّثنا عن وقوعها مستقبلاً رسول الله ﷺ فالله عز وجل : **﴿عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحداً ، الا من ارتضى من رسول ..﴾**[2] فإخبار الرسول ﷺ بأحداث تقع مستقبلاً هو من معجزات

(١) الخمس : هى الغيوب المذكورة فى آية لقمان السابقة .
(٢) سورة الجن/٢٧،٢٦ .

النبوة ، ومن الأمور التى اذن الله لرسوله أن يحدث بها أمته للعبرة والعظة ، مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ..﴾

والآية لا تتصدَّى لذلك ، ولا تتحدث عنه ، إنما تؤكدِّ الآية ما جاء فى سورة النمل : ﴿**قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله**﴾ وما جاء فى سورة الأنعام : وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو..﴾ ويؤكِّد هذا المعنى الحديث الذى يرويه البخارى : أن النبى ﷺ قال : (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها الا الله : لا يعلم أحد ما يكون فى غد ، ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، وما يدرى أحد متى يجىء المطر) .

ويكون معنى الآية : وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً﴾ أى لا تعلم نفس ماذا يحدث لها غداً من صحةٍ أو مرض ، ومن حياةٍ أو موت ، ومن ربح أو خسارة ، ومن خيرٍ أو شر .

حول مفهوم الآية :

﴿وما من دابة فى الأرض إلَّا على الله رزقها﴾

هذه الآية الكريمة الرحيمة ، من القرآن العظيم : **﴿وما من دابة فى الأرض إلَّا على الله رزقها .. ويعلم مستقرها ويستودعها ، كل فى كتاب مبين﴾**[1] تلوتها منذ أيام ، ووقفت عندها ما لم أقف من قبل ..

وقفت متأملاً ما تحمله من معانٍ ، وما تبعثه فى القلب السليم من إيمان ، وتذكرت ساعتئذ ما أثاره بعض من يحسبون أنفسهم «من العلماء» حولها من جدل عقيم ينم عن فهم ذميم ..

وأقول : فهم ذميم .. لأنه لم يدل على جهل بأسرار اللغة العربية وبلاغتها فحسب ، بل دل على إلحاد فى أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، وعلى شك فى عزته وقدرته سبحانه ، وعلى جحود لدينونة الخلق بسلطانه وحنانه ، دينونتهم له سبحانه بالرزق الذى يأكلون منه ويشربون ، كدينونتهم له بالخلق الذى يولدون به ويقبرون على سواء !

يقول هذا الذى يحسب نفسه (من العلماء) : إن نصوص القرآن تنقسم إلى قواعد وشعارات ، فالقاعدة يتساوى فيها منطوق

---

(١) سورة هود/٦ .

النص ومفهومه كقوله تعالى : ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق**﴾ [1] أما الشعار فكثيراً ما يكون بين منطوقه ومفهومه تفاوت بعيد ، وهو يعتمد على المبالغة كقوله تعالى : ﴿**وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها** ..﴾ فالقرآن قطعاً لا يعنى المعنى الحرفى للآية .. والا عجزنا عن التوفيق بين هذا المعنى الحرفى وبين مئات الملايين من البشر ماتت جوعاً !

إنه كلام عجيب ينم عن فهم أعجب ! وبمقدار ما فى كلامه وفهمه من عجب ، يتغلغل فى أعماقه الخطأ الأثيم ، والسهو الفكرى الذميم ! فهو ـ أولاً ـ يجعل قاعدة أساسية من قواعد الوجود الانسانى شعاراً يعتمد ـ بزعمه ـ على المبالغة ، ويقوم بين منطوقه ومفهومه تفاوت بعيد ! وهو بذلك يطعن طعناً صريحاً فى صحة آية من القرآن فى لفظها ومعناها . وهو ـ ثانياً ـ يكاد ينفى بلسان خفى صفة من أبرز صفات الوجود الإلهى .. وتلك هى «الرزق» التى تقترن دائماً بالصفة الأولى وهى «الخلْق» : ﴿**الله الذى خلقكم ثم رزقكم**﴾ [2] كما يقول القرآن ـ وكما نقول فى أمثالنا العامة : «اللى خلق عبده ما ينساه» . أى لا ينساه من رزقه .

ولدينا ، على مائدة القرآن السخية الشهية ، آيات أخرى فى موضوع «الرزق» كقوله تبارك وتعالى :

---

(1) سورة الاسراء/٣١ .

(2) سورة الروم/٤٠ .

□ ﴿هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا﴾ [1] .

□ ﴿لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ [2] .

□ ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ [3] .

إنها تزيدنا عرفاناً وإيماناً بمدى ما يتمتع به الوجود الانسانى من دينونة لهذه الصفة الرازقة ، من صفات الوجود الإلٓهى ، التى تنفحنا بالخيرات والثروات وتمدنا بالبركات والرحمات ، طبيعيةً وصناعيةً ، وتمنحنا الفتوح والغزوات علميةً وفنية .

والآية موضوع الحديث تقرِّر هذا المعنى .. معنى دينونة الانسانية جمعاء لله سبحانه «بالرزق» منحاً ومنعاً على سواء .. فمن رزقه الله لا يحرمه أحد ، ومن حرمه الله لا يرزقه أحد :

□ ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾ [4] .

□ ﴿أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ [5] .

□ ﴿وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم﴾ [6]

---

(١) سورة غافر/١٣ .
(٢) سورة طه/١٣٢ .
(٣) سورة الذاريات/٥٧ .
(٤) سورة فاطر/٢ .
(٥) سورة الملك/٢١ .
(٦) سورة الحجر/٢٠،٢١ .

□ **﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون﴾**[1] .

إنها إذن الدينونة التى لا مفر منها : دينونة الخلق لخالقهم بالرزق عامة ، منحاً ومنعاً ، يوسرون إذا أراد سبحانه ، ويعسرون إن لم يرد .. حتى أولئك الذين وسع لهم فى رزقهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً من سعتهم إلى من قدر عليه رزقه : **﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضّلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء﴾**[2]

أو هى الملكية : ملكية المخلوقين لخالقهم ، أى عبوديتهم وخنوعهم تحت قدره وقضائه ، يفعل بهم ما يشاء ويحكم ما يريد ، واسعة رحمته ، شاملة عدالته فى كل ما يحكم وكل ما يريد ، وقد جاء فى الحديث القدسى : (**يا عبادى إن منكم من أغنيته ، ولو أفقرته لفسد حاله ، وإن منكم من أفقرته ، ولو أغنيته لفسد حاله**) .

فالآية : **﴿وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها﴾** من الوضوح والبيان والبلاغة اللفظية والمعنوية بمنزلة رفيعة لا تنالها الفهوم السقيمة بطعن ، ولا تقترب منها القلوب الملحدة بلعن ، مهما حاول ذلك المبطلون ! !

وهى لا تعنى التزام الخالق سبحانه بإنزال الرزق فى أفواه الكسالى ، الذين لا يأخذون بالأسباب ، ولا يمشون فى مناكب الأرض ، ابتغاء فضل الله بكد اليمين وعرق الجبين ـ ولا للذين

---

(١) سورة الذاريات/٢٢ .

(٢) سورة النحل/٧١ .

يبتلون بظلم بعضهم لبعض فيموتون جوعاً أو ظلماً ــ ولا لأولئك الذين تمسك السماء عنهم بِرَّها ، فلا زرع ينبت ولا ضرع يدر .. فكل ذلك له أسباب من سخط الله على خلقه ، لظهور الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ! .

□ □ □

إن الله تبارك وتعالى قال لعباده : «تراحموا» ، فلم يتراحموا ، وأوقدوا نار الحروب فيما بينهم ، فجاع قوم وشبع آخرون ! وقال لهم أيضاً : «لا تظالموا» فتظالموا ، واكل الغنى مال الفقير ، وطمع القوى فى مال الضعيف ! وقال لهم : **﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾**[1] وآتوا اخوانكم الفقراء والضعاف والمحتاجين . من مال الله الذى آتاكم[2] فلم يستجيبوا ، وكان أن أبطرتهم الثروة والميسرة ففسدوا ، وضاع إخوانهم الفقراء وجاعوا ! !

وصدق الله العظيم فيما قال : **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾**[3] .. وفيما قال عز وجل أيضاً عن اليهود والنصارى : **﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم ــ أى القرآن ــ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون﴾**[4] . وصدق رسوله الكريم فيما قال أيضاً : **(لو أنكم توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما**

(١) سورة الحديد/٧ .
٢) سورة النور/٣٣ .
(٣) سورة الاعراف/٩٦ .
(٤) سورة المائد/٦٦ .

يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً) .

وهنا يجب أن نفرق بين ما هو من عمل الخالق سبحانه وما هو من عمل المخلوقين : فله الملك والإرادة والمشيئة والقضاء : **﴿يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان﴾**[1] . ومع هذه الدينونة القاهرة للخالق سبحانه فالمخلوقين المدينون مسئولون عن اخطائهم وأوزارهم التي يصدفون بها عن آيات الله ، ويتعدون حدوده ، ويتحدون أوامره وزواجره !

وهكذا قامت الحجة في موضوع هذه الآية ظاهرة باهرة ، واستقامت السبيل إلى فهمها بائنة آمنة .. فالملك ملك الله ، والعباد عباده ، والرزق رزقه .. لا حرمان لمرزوق ، ولا رزق لمحروم الا بمشيئة الله وعطيته ، ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوا أحداً لم ينفعوه الا بشيء كتبه الله له ، أو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه الا بشيء كتبه الله عليه ، وعلى الله وحده رزق كل مخلوق ، بلا جدال .

ليس على الوالد رزق ولده .. ولا على الزوج رزق زوجته .. ولا على العائل رزق عائلته .. ولا على صاحب العمل رزق عماله .. ولا على الرئيس رزق مرؤوسيه : **﴿وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين﴾**[2] .

---

(١) سورة الرحمن/٣٣ .

(٢) سورة هود/٦ .

حول مفهوم الآية :
﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق﴾

فى مجلة (الوعى الاسلامى عدد شعبان عام ١٣٩٣هـ) مقالة قيمة للدكتور «محمد البهى» بعنوان «العلمانية والاسلام» تناول فيما تناول فيه تفسير هذه الآية : **﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت إيمانهم ، فهم فيه سواء .. أفبنعمة الله يجحدون﴾**[1] فقال الدكتور البهى : «أى أن صاحب المال ومن لا يملك المال من الأتباع سواء فى ارتباط منفعة أى منهما بالمال الموجود فعلاً بيد مالكه والمفضل فيه عن غيره» .

قلت : إن هذا التفسير للآية لا يلائم معناها ، ولا يساعد مبناها على صحته .. فالآية واردة بمبناها ومعناها معاً لتأكيد حقيقة أن الأرزاق بيد الله ، وانه هو سبحانه قاسمها بين عباده ، وهو المفضل بعضهم على بعض فى زيادة الرزق ونقصه .. حتى أن الذين فضلوا فى الرزق أى زادت أرزاقهم على أرزاق غيرهم لا يستطيعون رد شىء منها على المحرومين مما ملكت إيمانهم ـ الآية واردة لتأكيد

---

(١) سورة النحل/٧١ .

هذا المعنى وزادته تأكيداً وتأييداً حين أضافت : ﴿.. **فما الذين فُضّلوا برادّى رزقهم على ما ملكت إيمانهم**﴾ إذ لوكان المقصود أن الناس المرزوقين والمحرومين سواء فى هذا الرزق لكان إيراد هذه الجملة عبثاً أو مناقضاً للمراد منها .

ثم جاءت الجملة التعقيبية الثانية : ﴿**فهم فيه سواء**﴾ تأكيداً للحقيقة نفسها .. أى أن المرزوقين والمحرومين سواء فى تلقىِّ الرزق والحرمان منه ، أو تلقِّى بسطة الرزق وضيقه ، فلا حيلة لأى من الفريقين فى الكسب والحرمان ، وإنما هى مشيئة الله وحكمته كما يوضحها الحديث القدسى : (**يا عبادى إن منكم من أغنيته ولو أفقرته لفسد حاله ، وإن منكم من أفقرته ولو أغنيته لفسد حاله**) ..

وهناك آية أخرى شبيهة بهذه معنىً ومبنىً ، وهى قوله تبارك وتعالى : ﴿**ضرب لكم مثلاً من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم ؟ فأنتم فيه سواء**﴾[1] وقد جاء التعبير القرآنى ـ هنا ـ أكثر وضوحاً وصراحة ، لأنه جاء بأسلوب الاستفهام الانكارى .. فهو بعد أن ذكرهم بوحدانية الله وقدرته على بدْء الخلْق وإعادته يسألهم : هل لهم شركاء فيما رزقهم مما ملكت أيمانهم ؟ وكيف إذن يجعلون له شركاء ممن خلق ؟ وكيف يرضون لله ما لا يرضون لأنفسهم ؟ .

وفى آية أخرى يمنُّ الله على الناس بما جعل لهم فى الأرض من

---

(١) سورة الروم/٣٨ .

رزق لا يملكون منحه أو منعه عن الآخرين حيث يقول عز وجل : **﴿وجعلنا لكم فيها معايش .. ومن لستم له برازقين﴾** [٢] .

والقرآن يكرر هذا المعنى ، ويؤكد هذه الحقيقة الإلٓهية فى آيات كثيرات منها قول الله تبارك وتعالى :

□ **﴿والله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾** [٣]

□ **﴿قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾** [٤]

□ **﴿أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾** [٥]

□ **﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا﴾** [٦]

□ **﴿له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾** [٧]

وفى الحديث النبوى : (إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت) أى يقسم ﷺ الغنائم والانفال وما يستحقه المسلمون فى بيت المال ، كما أمره الله عز وجل .

إذن فتفاوت الأرزاق بين الناس ، وتفاضلهم قوةً وذكاءً وخلقاً : حقيقة إلٓهية كونية ، يقررها القرآن ويؤكدها فى أكثر من آية ، كما أن واقع الحياة البشرية يشهد بها ، ونحن نلمسها ونراها ،

---

(٢) سورة الحجر/٢٠ .
(٣) سورة العنكبوت/٦٢ .
(٤) سورة سبأ/٣٩ .
(٥) سورة الروم/٢٧ .
(٦) سورة الزخرف/٣٢ .
(٧) سورة الشورى/١٢ .

وحكمة الله فى قيامها هى كما قال سبحانه : ﴿**ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً**﴾ أى لتقوم الحياة ، ويعمر الكون .. باختلاف الطبقات ، وتباين القدرات والمواهب ، وتعدد الحرف والوظائف والاختصاصات .

ونستطيع أن نفهم (الرزق) الذى هو من اختصاص الله مثل (الخلْق) بأوسع مدلولاته الحقيقية لا المجازية فهو لا يعنى الطعام والشراب وحدهما ، بل يعنى الأسباب والوسائل والسبل المؤدية إلى تحصيله ونواله من مواهب وملكات ومهارات ذهنية وعقلية ..

ولا تناقض بين هذه الحقيقة الكونية الإلٓهية وبين (المسئولية) الانسانية التى فرضها القرآن وأوجبها فى أكثر من آية أيضاً ، وهى : أن للمحرومين حقوقاً فى أموال المرزوقين ، سواءً أكانت زكاةً واجبة ، أم صدقةً مستحبة ، وفى ذلك يقول الله عز وجل :

□ ﴿**إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم**﴾[1] .

□ ﴿**والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**﴾[2]

□ ﴿**وآتوهم من مال الله الذى اتاكم**﴾[3]

وما أكثر ما يكرر القرآن دعوته : ﴿**وانفقوا مما رزقناكم - وانفقوا من طيبات ماكسبتم**﴾ وفى الحديث النبوى توجيهات إلى

---

(١) سورة براءة/٧ .

(٢) سورة المعارج/٢٤ .

(٣) سورة النور/٣٣ .

إعطاء الفقير وإطعام المسكين ، وإغاثة الملهوف كقوله ﷺ :

- **(ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم)** .
- **(اطعموا الطعام ، وأفشوا السلام)** .
- **(إن فى المال حقا سوى الزكاة)**[١]
- **(إن للسائل حقاً ولو جاء على فرس)**[٢]

وبعد : فهناك فرق كبير وعميق بين قول الدكتور البهى : إن صاحب المال ، ومن لا يملك المال من الأتباع سواء فى إرتباط منفعة أى منهما بالمال الموجود فعلاً بيد مالكه ، والمفضل فيه عن غيره تفسيراً لقوله عز وجل : ﴿**فهم فيه سواء**﴾ .

.. وبين ما يفهم من الآية مع الآيات الأخرى ـ من أن الله عز وجل قسم الرزق بين العباد حسب إرادته ومشيئته ، فهم سواء فى تلقِّى الرزق الواسع أو الرزق القليل ، أو هم سواء فى العطاء والحرمان بحيث لا يستطيع الغنى أن يرد شيئاً من رزقه على الفقير ، ويرفعه إلى مستواه ، وإن كان يجب عليه أن يعطيه ما يضمن له طعامه وكسوته .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

□ □ □

---

(١) رواه الترمزى والدارمى .
(٢) رواه أبو داود .

حول مفهوم الآية :

﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾

على الرغم مما يبدو من أن العرب بخاصة والمسلمين بعامة قد تخلصوا من «الاستعمار» الغربي الكافر الذى لا دين له ، الفاجر الذى لا شرف عنده ، الغادر الذى لا موثق به ـ فإنه مما يجب أن نتنبَّه له تنبهاً لا غفلة فيه ، ولا نسيان بعده : أننا وإن تحررنا من سلطانه العسكرى ، وسيطرته السياسية ، فمازلنا نخضع لسلطانه الفكرى ، وسيطرته الثقافية .. وذلك ما لا يقل خطراً ولا يهون ضرراً عن كوارثه العسكرية وخبائثه السياسية .. بل يفوقها ويربو عليها .

فلقد تأثر الفكر العربى والاسلامى بكثير من أفكار الاستعمار الغربى ومبادئه الثقافية .. التى قصد قصداً إلى نشرها بيننا ، فى صفحات كتبه ومجلاته وإذاعاته .. وعلى ألسنة تلامذته منا ، وربائبه فينا ، لنشكَّ فيما نعتز به من دين . ونتفسَّخ مما نتشرف به من خُلُق ، ونغترَّ بما جلب هو إلينا من زخرف حضارته الخادعة ، ونأخذ بمتاع تقاليده المائعة ، فنعبده وننسى الله ، ونخلص له ونهمل حقوق أوطاننا وشعوبنا ، ونتلو إنجيله ونهجر القرآن ! وحينئذ تزداد هواناً عليه ، ويزداد هو سلطاناً علينا ! ! .

□ □ □

ولدينا اليوم مثل واحد مما يفعله أولئك التلامذة والربائب لخدمة أغراض الاستعمار الغربي ، ونشر سلطانه الفكري بين العرب ، بعد طي تعاليمهم الدينية وأخلاقهم القومية ونبذها وراء الظهور .

يقول أحد هؤلاء الربائب والتلامذة الاستعماريون : إن غرائزنا تعرف الطريق ، فدعوها تمضي في طريقها ، ولا تمسُّوها بتهذيب إذا شذَّت ، ولا تكبحوها إذا جمحت ! ويحتج لمذهبه : بأن الله سبحانه قد أنشأنا من الأرض ، وهو اعلم بطبيعتنا الأرضية ، ومن أجل ذلك جاء القرآن ينهانا في حزم : ﴿**فلا تزكُّوا أنفسكم**﴾[1] ثم يذكر في جرأة آثمة قصة بنات النبي لوط عليه السلام ، حين قال لقومه : ﴿**هؤلاء بناتي هن أطهر لكم**﴾[2] ويرى فيها تجربة من تجارب التاريخ القديم ، حيث كان الأقدمون يعرضون بناتهم لضيوفهم ، ويعدون ذلك فضيلة لا تذم .

ولا يكتفي الكاتب بهذا القدر من الافتراء على الغرائز ، وعلى القرآن ، وعلى النبي لوط عليه السلام وبناته ، بل يضيف إلى احتجاجه الواهي على دعوته الغرائزية : تأويلاً سقيماً أثيماً لقصة إمرأتي نوح ولوط عليهما السلام ، اللتين قال القرآن عنهما : ﴿**كانا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين**﴾[3] فانه يرى أن خيانة زوجتي النبيَّين إنما كانت خيانة زوجية ، ليؤيد فكرته الداعية إلى ترك

(١) سورة النجم/٣٢ .
(٢) سورة هود/٧٨ .
(٣) سورة التحريم/١٠ .

الغرائز تمضي فى طريقها ، والقائلة بأن الأديان وتشديدها على الغرائز لا تغنى شيئاً فى التربية والتقويم ، بدليل أن زوجات بعض الأنبياء قد زلت أقدامهن ، وهن فى كنف الصلاح والتقوى ، وتحت ظل النبوة الفاضلة العفيفة الطهور !

هكذا يريدنا الكاتب : أن نعتنق مذهبه الغرائزى ، فنؤمن بأن غرائزنا تعرف الطريق ، ونتركها كما يفعل هو ، تتخبط فى الظلم والظلام ، نحيا لا يهمنا الا أن نأكل ونتمتع كما تعيش الأنعام ! وكذلك يريدنا الاستعمار الغربى أنعاماً يأكل من لحمنا ويبيع !!

تلك غاية الاستعمار الغربى منا ، وذلك فعل ربائبه وصنائعه فينا . أما افتراؤهم على القرآن ، والأنبياء ، وعلى الغرائز الانسانية أيضاً : فهو افتراء واهنٌ مفضوح لا حجة له من عقل ولا نقل ولا تأريخ .

فنحن نتلو فى القرآن الكريم أمثال هذه التوجيهات الحاسمة :

- ☐ **﴿قد أفلح من زكَّاها﴾** (1)
- ☐ **﴿قد أفلح من تزكَّى﴾** (2)
- ☐ **﴿فقل هل لك إلى أن تزكَّى﴾** (3)
- ☐ **﴿ومن تزكَّى فإنما يتزكَّى لنفسه﴾** (4)
- ☐ **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهِّرهم وتزكِّيهم بها﴾** (5)

---

(1) سورة الشمس/الآية ٩ .
(2) سورة الاعلى/الآية ١٤ .
(3) سورة النازعات/١٨ .
(4) سورة فاطر/الآية ١٨ .
(5) سورة التوبة/الآية ١٠٣ .

فلا يداخلنا شكٌ فى أن الدعوة إلى التزكية النفسية فى مقدمة ما أُنزل القرآن من أجله ، وطليعة ما أُرسل نبى الاسلام لتحقيقه من إصلاح فردى وإصلاح جماعى ، فى دنيا الناس التى تصطرع فيها العقول والعواطف ، وتختصم الأرواح والغرائز . ولا يحل أزماتها ، ويفصل خصوماتها ، ويكسر شراتها الا الدين ، ينزله الديان رحمةً منه ، وهدىً وبشرى للمسلمين .

فهل بعد هذه الآيات القرآنية المكررة المعادة فى عدة مواضع من القرآن ، والتى تدعو إلى تزكية النفس ، يعقل عاقلٌ ، أو يُسَلِّم عالم ، بأن القرآن يناقض نفسه ، ويخالف رسالته ، فينهى قارئيه عن الطهر والزكاء ـ بعد أمره المكرر بالتزكية ـ قائلاً : ﴿**لا تزكُّوا أنفسكم**﴾ ؟ .

نعم إن القرآن قال : ﴿**لا تزكّوا أنفسكم**﴾ ، ولكن فى مجال معين ، وبمعنى آخر ، ولغرض خاصٍ .. قالها فى مجال مقاومة الغرور الانسانى عند فريق فاضل أو متفاضل من الناس ، ليذكِّره بأصل نشأته من الأرض ، ولئلا يهزأ بفريق المذنبين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش الا اللَّمم ـ وهو صغائر الذنوب ـ فإن الله واسع المغفرة . وهو يزكى من يشاء برحمته وفضله ، لا باجتهاد الإنسان وادعائه وحدهما .. كما قال سبحانه فى آية سورة النور : ﴿**ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكَىَ منكم من أحدٍ أبداً ، ولكن الله يزكىِّ من يشاء**﴾[1] ، وكما يقول فى الآية موضوع الحديث : ﴿**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمم ، إن ربك واسع**

(١) سورة النور/الآية ٢١ .

المغفرة ، هو أعلم بكم إذْ أنشأكم من الأرض ، وإذْ أنتم أجنَّةٌ فى بطون أمهاتكم فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ .

إن من يقرأ ﴿**فلا تزكوا أنفسكم**﴾ دون أن يبدأ الآية من أولها متصلة بالآية السابقة لها يكون كمن يقرأ ﴿**فويل للمصلين**﴾ من غير أن يصلها بالآية التالية : ﴿**الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ كلاهما مخطىء أو مغرض أثيم ..

إذن فمعنى هذا التوجيه القرآنى : ﴿**فلا تزكُّوا أنفسكم**﴾ أن يجتنب الفضلاء والمتفاضلون الدعوى والتظاهر والغرور بما هم عليه من زكاة أنفس ، وطهارة أخلاق .. وهو من قبيل نهْى القرآن نفسه عن المنِّ فى الزكاة المالية لأن المنَّ يُبطل فضل الصدقة ، ويحبط ثوابها ، فكذلك التزكِّى النفسى ، والرياء بالتقوى والصلاح ، يبطلان فضل صاحبهما ، ويمحوان استحقاقه فى الأجر أو الشكر .

□ □ □

وبهذا يتضح الفرق الفارق بين تزكية النفس بمعنى تطهيرها وتحريرها من المآخذ والمعاصى ، وهو أمر نزل به القرآن فى عدد من آياته البينات ـ كما اسلفنا ـ وهو لا يحتمل جدلاً ولا يقبل ارتياباً ، وبين تزكية النفس بمعنى إدعاء طُهْرِها وعفافها والتظاهر بتقواها وفضيلتها .. وهو المقصود بقوله تبارك وتعالى ﴿**فلا تُزكُّوا أَنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ .

أما قصة بنات لوط عليه السلام ، التى يوردها ربائب الاستعمار وتلامذته كوثيقة تأريخية قديمة لجعل عرض البنات على الضيوف

فضيلة من فضائل القدماء ، فقد أجمع الباحثون فى سير الأنبياء والمفسرون للقرآن أن لوطاً إنما عرض بناته على بعض قومه ليتزوجوهن نِكاحاً لا سِفاحاً ، لأنه بسبيل تطهيرهم من رجسهم فى إتيان الذكران ، إلى الفطرة الإنسانية السليمة ، فلا يعقل أن يحاول لوط ، وهو النبى المصطفى ، أن يغسل الدم بالبول ، فيبدلهم رجس الزنا برجس اللواط ، كما يريد هؤلاء الربائب الاستعماريون لهذه القصة الكريمة من تأويل لئيم ! ! وقد قيل إن لوطاً عليه السلام قصد بلفظة (بناتى) بنات قومه ، وعنى بذلك أن ينصرف المنحرفون عن منكرهم الذميم إلى الزواج الشرعى بالنساء ، ولا غرابة فى هذا الإطلاق المجازى ، ففى القرآن نفسه إطلاقٌ مثله ، وهو تسمية زوجات النبى محمد عليه الصلاة والسلام بأمهات المؤمنين : ﴿**النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم**﴾(١) .

أما تناولهم خيانة زوجتى نوح ولوط بذلك الفهم الماكر الفاجر ، فهو إتهام بذىء لمقام النبوة الطاهر ، وإهدارٌ لكرامة العقل الذى مُنِحتْهُ الإنسانية لتتدبَّر وتتفكَّر قبل أن تحكم ، ذلك أن الظروف والملابسات والقرائن المصاحبة لقصة امرأتى نوح ولوط .. هى ظروف رسالة ونبوة ، ودعوة إلى الحق والتوحيد ، وليست ظروفاً وملابسات وقرائن تتعلق بحياة زوجية ، أو علاقة غرامية خاصة ، أو فكرة اجتماعية عامة ، فما يقال فى هذا المقام عن حدوث خيانة ، يفهم على أنها خيانة للدعوة والرسالة ، وخيانة للزوج الذى ينتظر من زوجته وأهله أن يكونوا فى مقدمةُ مصدِّقيه

---

(١) سورة الاحزاب/٦ .

ومؤيِّدِيه والمدافعين عنه ، وهى شبيهة بالخيانة الوطنية التى يوصم بها اليوم الخارجون على أممهم ، الكائدون لأوطانهم ، الحاطبون فى حبل المستعمرين الغزاة .

□ □ □

وبعد فان من الواضح المؤكد ، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن تقوى الله ، وتزكية النفس هما غاية الرسالات السماوية ، وهى واجب الرسل والأنبياء ووظيفتهم وعملهم كما قال تبارك وتعالى :
﴿يتلو عليهم آياته . ويزكِّيهم ، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة﴾ .

والا ففيم بعث الله عز وجل الرسل ، وأنزل الكتب ؟ وفيم كانت الدعوة إلى عبادة الله ؟ وهل يعبد الله تبارك وتعالى قبل أن تكون للناس قلوب تَتَّقِى ، ونفوسٌ تَتَزَكَّى ؟ .

كما أن تقوى الله وتزكية الأنفس أقوى عُدّةً فى محاربة العدو .. ولقد كان الخلفاء والأمراء المسلمون فيما ذهب من القرون المثلى ، يوصون جيوشهم المحاربة بتزكية الضمائر والمشاعر ، لأنها سبيل الفتح المبين ، فلنحذر ربائب الاستعمار وتلامذته ، وحفظة أفكاره ومبادئه ، ودعاة الاقتباس منها بديلاً عما للعروبة والاسلام من سُبُل ومُثُل .

(١) كان هذا الفصل تعقيبًا على الأستاذ خالد محمد خالد فيما تحدث به فى كتابيه (هذا الطوفان) و (من هنا نبدأ) اللذين صدرا فى العقد السادس من القرن الرابع عشر .

حول مفهوم الآية :
﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾

كتب الأستاذ محمد الحسناوى ، فى مجلة حضارة الاسلام عدد ذى القعدة ١٣٨٦هـ ... مقالاً بعنوان «القصة الاسلامية والمرأة والجنس» قال فيه :

(إن الحديث العاطفى للحب قد يكون سامى الدلالة رفاف السنا .. شأن أشعار العذريين ، ومجازات الشريف الرضى ، ومواجد المتصوفة النظيفة .. كما قد تكون هذه النجوى لبقة التعبير ، بريئة اللهجة .. مثل قصة موسى عليه السلام حين ورد ماء مدين خائفاً يترقب فاتفق له من فتاة شعيب سبيل سكينة وأمن : **﴿فجآءته إحداهما تمشى على استحياء قالت : ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾**[1] فهنا عرض لعواطف الأنثى تجاه رجل .. عواطف الاعجاب بقوته ونبله ، وشهامته ، على طريقة الأنثى الحيية الخجول ، فتتجلى مودة ورحمة بين قلبى رجل

(١) سورة القصص/٢٦،٢٥ .

وامرأة ، على خير ما تتجلى فى أقاصيص الحب الرفيع) .

وأشار الكاتب فى ذيل الصفحة إلى كتاب «القصص فى الأدب العربى» للشاعر القصاص محمود تيمور ـ ص ٤٤ ـ كأن ذلك هو رأى محمود تيمور ، والأستاذ الحسناوى معه فيما يراه ! !

ونحن حين نعقب على رأى الكاتب فى القصة الاسلامية والمرأة والجنس لا ننكر وجود هذا النوع من القصص ـ بريئاً كان أم غير برىء كقصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ـ فى القصص الاسلامى أو فى قصص القرآن على وجه التحديد .

فالحب والجنس هما سر العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة ، فى الطبيعة البشرية ، وهما حقيقة قائمة وموجودة ، ولها رسالتها ، وهدفها وغايتها .. التى من أجلها فطر الله الناس عليها ، وشرع عز وجل سبيلها القويمة وحذر من انحرافها وشذوذها ، وأنذر المنحرفين والشواذ ، من الذكور والاناث ، عاقبة السوء .

ولكننا ننكر أن تعم نظرة الكتّاب القصّاصين فى كل قصة قرآنية أو اسلامية عن رجل وامرأة ، بالحكم على أنها قصة «حب وجنس» كما زعم كاتب آخر مثل ذلك فى قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام لمجرد ورود عبارة : «وكشفت عن ساقيها»[1] فى الآيات القرآنية التى تضمنت القصة .

أجل ننكر هذه النظرة العامة الشاملة لكل قصة بين ذكر وانثى بأنها قصة غرام وعلاقة جنس ، حتى لقد افترى (آخرون) من قبل على لوط عليه السلام بأنه أراد تقديم بناته لقومه عندما اقتحموا

---

(١) سورة النمل/٤٤ .

عليه مجلسه وهو مع ضيفه من الملائكة الأبرار ، فقال لهم أى لقومه : ﴿**هؤلاء بناتى هن أطهر لكم**﴾[1] .

مع انه عليه السلام إنما عنى بنات قومه أن يتزوجوهن بالحلال ، ويكفوا عن شذوذهم ، وانحرافهم الأخلاقى عن الطريق المستقيم ، إذ لا يعقل أن يقدم نبى فاضل ، حتى ولا رجلٌ عاقل بناته لنفر من قومه يفعلون بهن ماشاءوا فى عرض رخيص ، وبذل مهين .. ثم هل تكفى بنات لوط زوجات شرعيات لهذا الجمع من قومه ، الذى اقتحم عليه مجلسه ، مع الملائكة الأطهار ؟[2]

□ □ □

إن قصة موسى عليه السلام مع إبنة شعيب ليس فيها شىء من عواطف الأنثى تجاه الرجل ، ولا عواطف الرجل تجاه الأنثى ، وإنما كانت مرحلة من مراحل كفاح موسى وإعداده للرسالة الثقيلة التى سيفاجىء بها طغيان فرعون ، ويحاول اصلاح بنى اسرائيل ... ولنتأمل القصة معاً ، ونتتبع أحداث أبطالها ، وأحاديثهم بدقة ويقظة .. وتجرد من الوساوس والظنون والأوهام :

بعد أن علم موسى أن ملأ فرعون يأتمرون به ليقتلوه ، توجّه تلقاء «مدين» وهو يدعو ربه أن يهديه سواء السبيل ، وان ينجيه من القوم الظالمين ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون مواشيهم وأنعامهم ــ ووجد من دونهم امرأتين تبتعدان بأغنامهما عن

---

(١) سورة هود/٧٨ .

(٢) عقبنا على ذلك تعقيباً مفصلاً فى نقدنا لكتاب (هذا .. او الطوفان) للاستاذ خالد محمد خالد .

الماء ، انتظاراً لفراغ الرعاة من سقى قطعانهم ، ليخلو لهما المورد .. فهما أنثيان ضعيفتان لا تقويان على مزاحمة الرجال الأشداء ، وأبوهما شعيب عليه السلام شيخ كبير ، لا يستطيع سَقْياً ولا رَعْياً .

وبدافع من شهامة الرجولة ومرؤتها سقى للبنتين ، ثم تولى إلى ظلٍ يدعو ربه رزقاً حلالاً غريب فى مدين وفقير ! !

واستجاب الله لموسى دعاءه ، فجاءه فضله ورزقه ممثلاً فى عودة احدى البنتين إليه ، ودعوتها إياه للذهاب إلى أبيها ليعطيه أجر ما سقى لهما : ﴿**إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾[1] فذهب موسى إلى شعيب وقص عليه قصته مع فرعون فبشره بالنجاة ، وطمأنه من الخوف .. فهو نبى مثله ، وأحوال الأنبياء ومواقفهم مع أقوامهم تتشابه بدايةً ونهايةً ، بداية العنت والعناء ونهاية الفوز والانتصار .

ولما كان شعيب النبى الكريم شيخاً كبيراً ، وليس له من الذرية الا هاتان البنتان ، وهو فى حاجة إلى من يعينه على رعى الأغنام وسقيها ، عرض على موسى الفتى القوى الأمين أن يستأجره ، ليبقى عنده ثمانى سنوات أو عشراً .. وكان هذا العرض برأى من احدى بنتيه فى قولها : ﴿**يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوى الأمين**﴾[2]

فقد شهدت قوته فى السقى ، وشهدت أمانته عندما طلب منها أن تمشى وراءه فى عودتها إلى أبيها شعيب بعد استدعائها موسى

---

(١) سورة القصص/٢٥ .

(٢) سورة القصص/٢٦ .

إليه ، لئلا يرى منها ما لا يحب أن يرى حين تلعب الرياح بثيابها .

إن وصف إبنة شعيب لموسى بأنه قوى أمين ، لا يعنى الا ذكر حقيقة مجردة لمستها بنفسها فيه .. وهى وأبوها الشيخ ، وأختها الأنثى الضعيفة مثلها .. فى حاجة إلى رجلٍ مسعف معين .. فكيف بموسى القوى الأمين ؟!

ثم إن شعيباً النبى الصالح أراد أن لا يبقى موسى مع أمانته وصلاحه ، فى إجارته وهو غير محصن ، فخطبه إلى احدى إبنتيه ، وجعل الصداق هو الأجرة على الخدمة خلال الأعوام الثمانية أو العشرة ..

ولا شك أن المصاهرة من شأنها ان تجعل العلاقة بين المتصاهرين المتعاقدين على عمل ما أقوى وأثبت ، وأبعد عن التكلُّف والتعسُّف ، والحساب العسير بين الطالب منهما والمطلوب ، بل هى أدعى إلى تسامح المستأجر ، وإخلاص الأجير .

ونحن فى دنيا الناس عامةً فضلا عن دنيا الأنبياء الأطهار نعرف آباء يخطبون لبناتهم رجالاً يحسنون الظن بهم دون أن يكون بين المخطوبين والمخطوب لهن تعارف سابق ، أو تعاطف قديم .

وبعد : فما أحوج كتّاب القصة من العرب والمسلمين الناظرين فى قصص القرآن الكريم ان يُطهِّروا نظرتهم ، ويجردوا فكرتهم من وساوس الجنس وظنون الهوى ، وأن يتأملوا هذا القصص البليغ المعجز بأساليبه وتراكيبه ، ومعانيه وعبره ، بعقل ثابت ، وقلب سليم .

حول مفهوم الآيتين :
﴿على سرر موضونة .. متكئين عليها متقابلين﴾

تناول الأستاذ عباس محمود العقاد ـ رحمه الله ـ فى كتابه (الفلسفة القرآنية) الحياة الأخرى بالبحث وقد ذهب فى هذا الفصل مذهب الفلاسفة فى القول بروحية الجزاء الأخروى نعيماً وجحيماً .. وأن العذاب إنما هو تطهير وتكفير ومآله الغفران .. وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ، ولا يفيدان البقاء بلا انتهاء .

واستعان العقاد على تأييد رأيه بأحد قولَيْن للإمام الرازى فى تفسير «التقابل» الوارد فى هذه الآية : **﴿على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين﴾** وذلك قوله : «معناه أن كل أحد يقابل كل أحد فى زمان واحد ، ولا يفهم هذا الا فيما يكون فيه اختلاف جهات وعلى هذا يكون معنى الكلام أنهم أرواح ليس لهم أدبار وظهور . أى أن أجسامهم نورانية كالنور الذى يقابل كل شيء» وقد أغفل العقاد الرأى الثانى للرازى ، وهو أن التقابل يعنى أنهم متساوون فى المكان والرتبة لا يرى أحدهم نفسه دون الآخر .. مع أنه الرأى الراجح المختار عند صاحبه ، لأن الرأى الأول يناقض المكانية التى قررها القرآن لهم فى الاتكاء على السرر .

ونحن نرى فى «التقابل» رأياً آخر .. فهذه الكلمة من الكلام

العربى الفصيح ، وهى لا تعنى أن يكون التقابل عاماً كاملاً بحيث يكون أهل الجنات جميعاً على اختلاف درجاتهم متقابلين وجهاً لوجه ، حتى نقول بنورانية أجسامهم حيث لا أدبار لهم ولا ظهور ، أو نقول : إن التقابل معناه التساوى فى المنزلة والمقام ..

وهذه اجتماعاتنا الدنيوية يجلس فيها الحضور على مائدة الطعام أو مائدة الحديث ، متقابلين .. أى يقابل صف منهم صفاً آخر ، ولا يلزم من هذا التعبير أن اجسام الحضور نورانية لا أدبار لهم ولا ظهور ..

وقد استطاع التطور الحضارى الآن أن يهىء صفوفاً من القاعدة المتصاعدة ، صفاً فوق صف لتسهيل الرؤية .. فى قاعات المحاضرات والمسارح والملاعب . وبذلك يمكن (التقابل) بين مجموعة من هذه الصفوف المتصاعدة تجاه مجموعة مماثلة .

كذلك يكفى لصحة التعبير فى الآية وفصاحته أن يؤدى معنى أن كل جماعة أو كل أهل درجة فى الجنة متقابلين فى مقامهم يتحدثون ويتلذذون . أو أن كل صفين منهم ـ على أقرب افتراضٍ صحيح ـ متقابلان يتحدثان ويتلذذان ! !

إن القرآن الكريم إنما جاء بأسلوب نفهمه نطقاً وسمعاً وعرفاً ، فلماذا نذهب بعيداً فى فهم تعابيره ومعانيه ؟!

□ □ □

وفى الرأى القائل بروحية الجزاء الأخروى استعان العقاد بقول رابعة العدوية حين سمعت قارئاً يتلو قول الله تبارك وتعالى : ﴿**وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون**﴾ : «نحن إذن صغار

حتى نفرح بالفاكهة والطير» ، كما استعان بقول الشبلى حين سمع قارئاً يتلو قوله تبارك وتعالى : ﴿**منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة**﴾ : أين الذين يريدون الله ؟ .

ونحن نرى أن الصوفية حينَ يقولون كلاماً كهذا ، ويلهجون بالنعيم الروحى ، وهو الوصول إلى الحق تعالى لا ينكرون أنه بجانب ذلك نعيماً مادياً ، وهم عندما يتحدثون عن ذلك لا يتحدثون عما هو واقع ، إنما يتحدثون عن أمانيهم فى الوصول إلى الحق تبارك وتعالى فحسب .. كما هو شأن الفلاسفة فى ذلك ، وكما حكاه إبن سينا فى كتاب النجاة (ص ، ٤٧٧) وخلاصته أن الحكماء الالّهيِّين رغبتهم فى إصابة السعادة الروحية أعظم من رغبتهم فى إصابة السعادة البَدنية ، بل كأنهم لا يلتفتون إليها وإن أعطوها الخ ..

بقيت مسألة أن العذاب الأخروى إنما هو تطهير وتكفير يعقبهما اجتماع النفوس جميعاً فى حظيرة الرضوان ! ! ونحن نذكر الأستاذ العقاد بآية فى القرآن هى كلمة الفصل فى المسألة ، وهى قوله تبارك وتعالى : ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ .

أما تفصيل ذلك فقد قسم العلماء الاثم إلى كفر ومعصية ، وأجمعوا على خلود الكافر فى العذاب المهين ، وفى الحديث النبوى الصحيح : انه ينادى يوم القيامة بعد تصفية الحساب : (يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت) .[١]

---

(١) اخرجه الترمزى .

واما ما زعم الجاحظ والعنبرى من أن الكافر الذى بالغ فى الاجتهاد ولم يصل إلى المطلوب معذور للآية القرآنية : ﴿**وما جعل عليكم فى الدين من حرج**﴾ فهو مردود لان مثل هذا المبالغ فى الاجتهاد دون أن يصل إلى منشوده مثل الكافر المعاند .. ذلك أنه يستحيل أن يؤدى اجتهاده ان صدق فيه إلى الكفر ، وهو إما أن يصل إلى الحق أو يظل ناظراً ، فيكون فى كلتا الحالتين ناجياً .

وهو زعم مردود أيضاً ، لأن الآية المعتمد عليها فيه خطاب لمن دخل فى الدين ، وهى تعنى نفى العنت والمشقة والتكلّف فى تعاليم الإسلام السمح .

ويبدو أنه قد التبس الأمر على الأستاذ العقاد فى مسألة «الخلود» كما التبس عليه الأمر فى عقوبة الزنا ، فجعل الجلد والتغريب للمحصنين خطأ كما أوضحناه فى موضع آخر .

فهو هنا يعتبر «الخلود» بالنسبة للكافر الزمان الطويل الذى ينتهى بالغفران ، فى حين أن الخلود بهذا المعنى جعله المفسرون جميعاً للعصاة والفساق من المؤمنين ، كما جاءت هذه الآية القرآنية مقررة لذلك : ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها**﴾ فالمسلم الذى ارتكب جريمة القتل العمد يطول عذابه فى جهنم بحيث يظنه خلوداً فيها ، ثم تشمله رحمة الله وعفوه .. كما جاء فى الحديث القدسى : (**اخرجوا من النار من قال لا إله الا الله ، وعمل من الخير ما يزن كذا**) .. والحديث الآخر : (**من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فاخرجوه ..**) [٢]

---

(٢) اخرجه الشيخان .

حول مفهوم الآية :
﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾

تحدث أديبنا الكبير الأستاذ محمد حسن عواد فى اجتماع اسلامى عن «النقد الذاتى» وقال ان المسلمين اليوم مطالبون بنقد أنفسهم ، والتفتيش عن عيوبهم الذاتية ، حتى يصححوا أخطاءهم ويقوِّموا إعوجاجهم .. بعد الهزيمة النكراء التى نزلت بهم فى حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، وانتهت باحتلال اليهود لمدينة القدس ، وبعض الأراضى العربية المهمة فى مصر وسوريا والأردن ، ولا تزال تحتلها حتى الآن[١] .

إلى هنا أصاب صاحبنا فيما قال كبد الحقيقة وأحسن النصيحة ، ولكنه برهن على ما طالب به العرب من «النقد الذاتى» بآية من القرآن الكريم لا تصلح للاستدلال بها على نظرية النقد الذاتى التى تحدث عنها وظن أن الآية قد تضمنتها .

لقد قال الأستاذ العواد : إن القرآن يدعونا إلى النقد الذاتى ، والتفتيش عن عيوننا الذاتية فى قوله تبارك وتعالى : **﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾** أى أنظروا فى دخائل أنفسكم ، وفتشوا عما فيها من

---

(١) كان الاجتماع احتفاء بالدكتور محمد ناصر الزعيم الاندونيسى المعروف . وقد استردت مصر سيناء من اسرائيل سنة ١٩٨٢م بموجب معاهدة كامب ديفيد .

ضعف أو عيب أو إنحراف ، وأضاف إلى تفسير تلك الآية بغير معناها ، وبعيداً عن موضوعها ، ودون اعتبار لسياق الآيات قبلها وبعدها ــ أضاف قوله : إنه يفهم اللغة العربية ، كما كان يفهمها الطبرى وابن كثير والزمخشرى وغيرهم من مفسرى القرآن الكريم ومن حقه إذن أن يقول برأيه فى معانى الآيات كما يفهمها !

لقد ظن أن آيات القرآن كالنصوص الأدبية من شعر ونثر ، قابلة للنقد واختلاف الفهم ، والقول فيها بمجرد القدرة على معرفة اللغة العربية وحدها ، ونسى أن لتفسير القرآن قواعد وأصولاً وأدوات لا بد من امتلاكها وامساكها عند الإقدام على محاولة التفسير .

ونسى أنه مع فهم اللغة العربية ، لا بدَّ من معرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيَّد ، وما تحدث به الرسول ﷺ عند نزول هذه الآية أو تلك كتفسير أو توضيح ، وما قاله الصحابة من آراء فى تفسير بعض الآيات التى يجمعها موضوع واحد ، أو معنى مشترك ، وملاحظة أن هناك آيات يفسِّر بعضُها بعضاً ــ كما أسلفنا ــ[1] .

□ □ □

ونعود للآية القرآنية التى حَمَّلها صاحبنا نظرية النقد الذاتى فنجدها فى المقطع الثانى من سورة الذاريات ، ونجد المقطع الأول من السورة يبدأ بالقسم بالرياح الذارية ، والسحاب الممطر ،

(١) فى كلام طويل للامام النووى فى كتابه «التبيان» ــ مؤهلات المفسِّر للقرآن ــ يقول رحمه الله : ولا يكفى فى تفسير القرآن معرفة اللغة العربية وحدها ..» الخ .

والفلك الجارية بنعمة الله وتيسيره ، ثم بالملائكة الموكلة بأمر الله بتقسيم شئون الخلق من رزق ، وحياة وموت ، وصحة ومرض .. ويذكر القرآن ــ فى هذا المقطع الأول ـ الخرَّاصين المنكرين للبعث والحساب والجزاء ، وبعدهم يذكر المحسنين وما ينتظرهم فى الآخرة من جنات وعيون ، جزاء إيمانهم وإحسانهم .

ثم يبدأ المقطع الثانى بقوله تبارك وتعالى : ﴿**وفى الأرض آيات للموقنين ..**﴾ وتتلو هذه الآية موضوع البحث : ﴿.. **وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ فهما مرتبطتان متصلتان لفظاً ومعنىً وموضوعاً :

وموضوع الآيتين وما بعدهما هو دعوة القرآن للناس جميعاً وبخاصة المشركين المكذبين المنكرين للبعث والجزاء .. إلى تأمل آيات الله فى الأرض .. من جبال وشجر وحدائق ، وأنهار وبحار ، وشمس وقمر ، وليل ونهار ، وآيات أخرى فى أنفسهم من أسماع وأبصار وأفئدة ، وأيد وأقدام ، وأجهزة هضمية وعصبية داخل أجسامهم ، يأكلون بها ويشربون ويتحركون .

لقد تحدث القرآن كثيراً إلى الناس ، عما أنعم الله به عليهم فى أنفسهم حتى سألهم أخيراً سؤال تحدٍّ واستنكار لكفرانهم بألوهيته ، وجحودهم لنعمه التى لا تحصى : ﴿**قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم ؟ من إلَهٌ غير الله يأتيكم به ؟ أنظر كيف نصرِّف الآيات ثم هم يصدِفون**﴾[1] .

فكما قال لهم عز وجل : ــ فى سورة الذاريات ــ : ﴿**وفى**

---

(١) سورة الانعام/٤٦ .

الأرض آيات للموقنين﴾ قال لهم : **﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾** ثم استمرت السورة إلى آخرها تعطف على هاتين الآيتين ، فقالت بعد قصة ضيف إبراهيم عليه السلام :

- **﴿وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾**
- **﴿وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾**
- **﴿وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾**
- **﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ..﴾**
- **﴿والسماء بنيناها بأيْدٍ وإنا لموسعون ..﴾**
- **﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون ..﴾**
- **﴿ومن كل شيءٍ خلقنا زوجيْن لعلكم تذكَّرون ..﴾**

وفى كل هذه الآيات من سورة الذاريات عبر وعظات عن الأقوام الغابرة ، وعن بناء السماء وفرش الأرض ، وخَلْق زوجيْن من كل شيء .

فأين نظرية «النقد الذاتى» فى هذه الآية : **﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾** وفى سياق الآيات قبلها وبعدها ؟ .

إن اللغة العربية وحدها لا تكفى لفهم القرآن وتفسيره ، بل لا بدَّ معها ــ كما اسلفنا ــ من مؤهلات كثيرة لمن يحاول فهم القرآن ، وتفسير آياته البليغات المعجزات ، ويحضرنا هنا قول الخليفة الراشد الأول أبى بكر رضى الله عنه : «أى سماء تُظلنى ، وأى أرضٍ تُقلنى إذا قلت فى كتاب الله برأيى» مع أنه الصحابى الأول ، والذى رافق رسول القرآن ﷺ ، طوال حياته .. يسمع منه القرآن ، ويتلقَّى عنه تفسيره ، كما يتلقَّى عنه سنته وأدبه وحكمته .

حول مفهوم الآية :
﴿إن كيدكن عظيم﴾

وكتب الأستاذ العواد نفسه فى جريدة محلية حول الآية القرآنية ﴿**إن كيدكن عظيم**﴾ مقالاً يمجد فيه النساء .. ثم ذهب يعلّل إعطاء المرأة نصف ميراث الرجل فى الشريعة الإسلامية بأن الرجل أضعف منها وأنها أقوى منه بدليل القرآن فى قوله : ﴿**إن كيدكن عظيم**﴾ من سورة يوسف حيث دلت الآية فى رأيه على ضعف الرجل وقلة احتياله ، فهو لأنه أضعف من المرأة كيداً وأقل احتيالاً قد استحق ضعف الميراث ..

وقال الأستاذ العواد : إن هناك اكتشافاً علمياً حديثاً يؤكد أن المرأة أكثر احتمالاً من الرجل للشدائد ، وأطول صبراً عليها .. فهى تحمل وتضع ، وللحمل والوضع والرضاع ورعاية الأطفال فى البيت متاعب ومصاعب ثقال لا يقوى على حملها الرجال !

والرد على صاحبنا فيما فهم مخطئاً من آيات القرآن وتفسيرها ومقارنتها بالاكتشافات والنظريات الحديثة يسير وقريب .. نوجزه فى الفقرات التالية :

□ أولاً : نسى صاحبنا أن هناك آية صريحة محكمة من قول الله عز وجل مباشرة ــ وليست كتلك حكاية عن عزيز مصر ــ وهى قوله

تبارك وتعالى : ﴿**الرجال قوَّامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من أموالهم**﴾[1] فالله هو الذى حكم بهذه القوامة للرجل على المرأة وعلَّلها بمؤهلاتٍ طبيعية تكوينية فى نفس الرجل وعقله وجسمه ، وبمؤهلات كسبية ، يمتاز بها الرجال على النساء .

وفى الحديث النبوى تأييد وتأكيد لهذا الامتياز الطبيعى : « **ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أغلب لذى لبّ منكن ـ قالت إمرأة منهن : يا رسول الله وما نقصان العقل والدّين ؟ قال أما نقصان العقل فشهادة إمرأتين تعدل شهادة رجل ، فهذا من نقصان العقل ، وتمكث الليالى ما تُصلى ، وتُفطر فى رمضان ، فهذا من نقصان الدين** »[2]

قلت : والقرآن يوضِّح نقصان العقل بقوله : ﴿**أن تضلَّ إحداهما فتذكِّر إحداهما الأخرى**﴾[3] ومن أصدق من الله قيلا ؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟

□ ثانياً : إن الرجل هو الذى يؤدى الصداق إلى المرأة حين يخطبها ، وينفق عليها بعد أن يتزوجها وعلى أولادها منه ، وهى ليست مطالبة بالنفقة على نفسها ولا على زوجها ولو كانت ذات مال ومتاع ، كما أنها ليست مسئولة عن نفقة أقاربها الذين ترثهم ، فى حين أن الرجل مسئول كما جاء فى الآية نفسها : ﴿.. **وبما انفقوا من أموالهم**﴾ .

---

(١) سورة النساء/٣٤ .
(٢) رواه البخارى وابن ماجة .
(٣) سورة البقرة/٢٨٢ .

□ ثالثاً : لقد فرض الجهاد على الرجال دون النساء ، لأنه يحتاج إلى قوة نفس ، وقوة جسد ، وكذلك جعل الطلاق فى يد الرجل لأنه أضبط لأعصابه وأكثر تحكّما فى سلوكه من المرأة ... التى لو جعل إليها الطلاق لطلقت زوجها فى اليوم ألف مرة ، وورد فى الحديث النبوى : (**إنهن يكفرن العشير ، لو أحسنت إليهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت ما رأيت منك خيراً قط**) . وقوله ﷺ : (**إنهن خلقن من ضلع أعوج ، وأعوج ما فى الضلع أعلاه ، فلو ذهبت تقيمه كسرته**) وقوله أيضاً : (**استوصوا بالنساء خيراً فانهن عوان لديكم**) أى أسيرات ضعيفات .

□ رابعاً : إن العلم الحديث ما يتعلق منه بالنفس أو تكوين الأعضاء أو وظائفها أثبت ـ عكس ما ادعاه الأستاذ العواد ـ أن الرجل أقوى من المرأة نفساً وجسداً ، وأسلم عقلاً وتفكيراً ، وأقوم خُلُقاً وسلوكاً ، والواقع المشهود الذى يمتدّ عبر الأجيال الماضية والحاضرة يؤيد ذلك ويؤكده .

وقد لاحظ التشريع الاسلامى هذا الاختلاف التكوينى بين الجنسين ، فهو وإن فرض عليها الصلاة والصوم والحج ـ كما فرضها على الرجل ـ الا أنه خفَّف عنها فلم يوجب عليها قضاء الصلوات التى تفوتها فى أيام الحيض والنفاس ولا ألزمها الجمعة والجماعة ، ونبَّه إلى أن صلاة المرأة فى بيتها أفضل ، ليقيها مساوىء الازدحام والافتتان ، واشتراط المحرم لوجوب الحج عليها ، ولم يساو بينها وبين الرجل فى كيفية الإحرام .. كما لم يوجب عليها الجهاد فى سبيل الله .

□ خامساً : أما القول بأن الرجل أضعف كيداً وأقل مكراً من

المرأة بدليل قول العزيز : ﴿إن كيدكن عظيم﴾ ـ فالاحتجاج بذلك ليس فى صالح الدعوى بل هو ضدها ، فالمرأة كما ثبت عِلمياً وخُلُقياً وواقعياً تلجأ إلى الكيد والمكر لأنها «ضعيفة» لا تقدر على المواجهة والمجابهة كما يفعل الرجل .. ولا يكيد من الرجال الا «الضعيف» الجبان العاجز عن مواجهة الخصوم ..

ولو تأمل صاحبنا قصة إمرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ، ومثلها قصة بلقيس ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام كما جاءتا فى القرآن الكريم ، لأدرك أنهما أى القصتين ، تنتهيان بالتدليل والتأكيد على حقيقة ضعف المرأة وقوة الرجل تفكيراً وتدبيراً وسلوكاً .

فيوسف اعترف ـ ابتداءً من أول مرة وبدون مراوغة ومحاولة منه لتغطية الموقف ـ بقوله : «هى رواد تنى عن نفسى»[1] .

أما هى فعلى عادة النساء فى إلقاء الاتهامات على الغير رمت بالتهمة يوسف عليه السلام ، وعلى الرغم من شهادة شاهد من أهلها بكذبها وصدْقِهِ أصرت على الإنكار الا بينها وبين زائراتها من بنات جنسها ، على عادتهن أيضاً فى كشف الأسرار ، وفضح العورات فيما بينهن ، حيث قالت لهن : (فذلكن الذى لمتننى فيه .. ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) .

وقد أصر يوسف عليه السلام على ألا يخرج من السجن الذى دخله مظلوماً حتى تعلن براءته ، وحتى تجيء شهادة صديقات

---

(١) سورة يوسف/٢٦ .

زليخا : ﴿**حاشا لله ما علمنا عليه من سوء ...**﴾[1] وحتى تعترف هى بعد هزيمتها أمام قوة يوسف الرجل وطهارته وإيثاره السجن على الفاحشة : ﴿**الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه .. وانه لمن الصادقين**﴾[2] وكذلك تفعل النساء أبداً . بل كذلك يفعل الرجال الضعفاء المتشبهون بالنساء .

أما بلقيس فتتجلى طبيعة الأنوثة الضعيفة المتأثرة المهادنة فيها — عندما تلقت دعوة سليمان عليه السلام لها إلى الاسلام ، فأرسلت إليه هَدِيَّةً تحاول بها مجاملته ومهادنته ومعرفة سره ، ثم عندما يبهرها الصرح الذى حسبته لجة فكشفت عن ساقيها فقال لها إنه صرح مُمرَّد من قوارير .. وكذلك النساء تعجبهن المظاهر والزينات والزخارف ، وتأخذهن قوة الرجل وقدرته وجلال مكانته : ﴿**قالت رب إنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾ .

وهناك — فى القرآن أيضاً — اعتراف امرأة عمران التى نذرت حملها ليكون إذا جاء ذكراً سادناً للكنيسة : ﴿**فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ..**﴾[3] أى لا تستطيع القيام بعمل الرجل الذى يمتاز عليها بالقوة والقدرة والخبرة .

وهكذا يَصْدُق القرآن ، لأنه كتاب الحقائق ، فى تقرير ضعف الأنوثة ، وقوة الرجولة لحكمة التناسب والتناسق فى نظام الزوجية

(١) سورة يوسف/٣٢ .
(٢) سورة يوسف/٥١ .
(٣) سورة آل عمران/٢٦ .

الذى شرعه الإآله العليم الحكيم .. وكل ميسر لما خلق له ، كما قال الرسول الكريم ؟

حول مفهوم الآية :

﴿وانى لهم التناوش من مكان بعيد﴾

كتب الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة ـ رحمه الله ـ تعقيباً على مناقشتنا للأستاذ سيد قطب ينتقد فهمى لهذه الآية : ﴿**وقالوا آمنا به ، وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد**﴾ بأن المؤمن به هو العذاب ، وأن التناوش إنما هو تناوش الملائكة لهم وسحبهم إياهم على وجوههم إلى النار الخ قائلاً . إن هذا تفسير بالرأى ، وهو حرام وفيه تهديد ووعيد .. وأن تفسير إبن جرير الطبرى هو العمدة ، وذكر أنه قال : أى أنّى لهم تناول الإيمان من مكان بعيد وهو الآخرة ، وإنما مكان الإيمان والتوبة الدنيا الخ[1] .

وقد بدأ الشيخ الفاضل كلامه بأسلوب التجهيل والتغفيل ، ومن حقى أن أعتب عليه فى ذلك ، واكتفى أن أذكره بهذه الحقائق الموجزة :

□ **الأولى** : أن الأدلة على جواز تقليب وجوه الفهم فى القرآن كثيرة منها قوله تبارك وتعالى ﴿**ولو ردوه إلى الرسول وإلى أول الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾ وقوله أيضاً : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ وقوله : ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك**

---

(١) جريدة البلاد السعودية ١٣٩٧هـ . ومناقشتها للأستاذ سيد قطب سبقت فى الجزء ٢/من هذا الكتاب .

ليدبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب﴾ وفى حديث ابن عباس ـ بإخراج أبى نعيم ـ : (**القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه**) وعن على بن أبى طالب : انه سئل هل عندكم شىء من الوحى الا ما فى كتاب الله ؟ قال : (لا والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه الا فهماً يعطيه الله رجلاً فى القرآن)[٢] .

وعلى هذا ذهب الأصوليون إلى أن لازم المنع من التفسير بالفهم باطل ، إذ معنى ذلك إلغاء كثير من الأحكام ، ووجه الملازمة أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يفسر كل آية من القرآن .

□ **الحقيقة الثانية** : إن الخلاف بين المفسرين القدماء فى فهم كلمة أو آية أو آيات مشهور .. والخلاف كذلك بين رواتهم فى ذلك أشهر ، وليرجع الشيخ الفاضل إلى تفاسير الطبرى وابن كثير والبغوى ، ليرى إختلاف فهوم ابن عباس ، ومجاهد وعطيّة العوفى ، وقتادة ، والضحاك والطبرى ، والبغوى ، وإبن كثير انفسهم ، فى تفسير **﴿وأُخذوا من مكان قريب﴾** من الآية السابقة للآية موضوعة البحث من سورة سبأ وفى صدد القصة نفسها .

□ **الحقيقة الثالثة** : أن تقليب وجوه الفهم فى القرآن إنما يذم إذا أدَّى إلى تفسير المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله ، أو إلى جعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً ولو كان ضعيفاً ، أو إلى الجزم بأن مراد الله كذا من غير دليل ، أو إلى التفسير بالاستحسان والهوى ، أو كان فهماً بغير حصول علوم القرآن ، وليس فى فهمى للآية المذكورة ـ بحمد الله ـ إتجاه من هذه الاتجاهات الحائدة .

---

(٢) اخرجه البخارى فى كتاب العلم .

□ **الحقيقة الرابعة** : إن القرآن يفسِّر بعضه بعضا ، (وخير ما فسرته بالوارد) كما يقول الأصوليون ، وقد كنت فى تعقيباتى على كتاب المشاهد[1] أنظر إلى القرآن وحدة متكاملة متكافلة فى التعبير والتفسير ، وكذلك فعلت فى فهمى لهذه الآية : ﴿**وقالوا آمنا به وأنَّى لهم التناوش من مكان بعيد**﴾ فقد نظرت إلى آيتين أخريينْ من القرآن إحداهما : ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾[2] وهناك آيات أخرى مثيلات تصرِّح بأن الكفار كانوا يكذبون بعذاب الله ويستعجلونه سخريةً وتعجيزاً ، وثانية الآيتين قوله تبارك وتعالى : ﴿**يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًّا**﴾[3] واخواتها كثيرات وجميعها تدل على أن الكفار يسحبون يوم القيامة إلى جهنم على وجوههم مغللين مكبلين .. ونظرت مع ذلك إلى اللفظ القرآنى «التناوش» ففهمته على حقيقته اللغوية ، وهذا ما توجبه أصول التفسير فى هذا المقام ، فانتهيت إلى ما اسلفت من فهم للآية لا يخالف نصًّا ، ولا يجانف عقيدة ، ولا يفضى إلى تحريم حلال ، ولا تحليل حرام .

□ **الحقيقة الخامسة** : من الوجوه التى يقبل فيها تقليب الفهم فى القرآن الا يتعارض مع النقل كلياً ، وليرجع الشيخ الفاضل إلى اختلاف القدماء فى فهم : ﴿**الصراط المستقيم**﴾ على أربعة وجوه تتغاير ولا تتنافى ، وفهم قوله عز وجل : ﴿**فمنهم ظالم لنفسه** ،

---

(١) كتاب «مشاهد القيامة فى القرآن» للاستاذ سيد قطب رحمه الله .

(٢) سورة الانفال/٣٢ .

(٣) سورة الطور/١٣ .

ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ على سبعة وجوه تتغاير ولا تتنافى أيضاً . وفهمى للآية المذكورة على أن ﴿**آمنا به**﴾ معناه العذاب وإن كان يغاير فهم غيرى بأنه الإيمان أو القرآن أو النبى الخ .. الا انه لا ينافى الحقيقة المقصودة بذلك وهى الايمان والتصديق حيث لا ينفع الايمان والتصديق .

إيمان الكفار بالعذاب فى الآخرة :

بقى أن نأتى على نقدات الشيخ الفاضل الأخرى :

□ **أولاً** : قال الشيخ «كيف يؤمن الكفار بالعذاب يوم القيامة وقد رأوه وإنما يكون الايمان بالغيب» . وقد عجل الشيخ بانكار الايمان بالمشهود ، ولو رجع إلى بعض صفحات المصحف لوجد فيه هذه الآية : ﴿**قالوا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون**﴾ وهى تقرر إيمان الكفار بوعد الرحمن وصدق المرسلين بعد أن شهدوهما ممثلين فى البعث من القبور ، وقد كانوا مكذبين به من قبل ، وهذه الآية : ﴿**ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم ..**﴾ فإن فى قولهم «نعم» وقد كانوا من قبل يقولون «لا» تصريحاً بإيمانهم بما رأوه رأى العين من العذاب الموعود الذى كانوا يكذبون به ويسخرون منه ، وهذه الآية : ﴿**ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون**﴾ فإنها تقرر إيقان الكفار ــ بعد شكهم فى الدنيا ــ بما رأوه فى الآخرة من موعود الجزاء ــ وهذه الآية : ﴿**هل ينظرون الا**

تأويله ؟ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ..﴾ فإنها تؤكد أن الكفار فى الآخرة يتذكرون مانسوه فى الدنيا ، ويؤمنون بما كفروا به ، ويستيقنون ما جحدوه .. وغير هذه الآيات كثيرة فى القرآن وهل تدل دلالة صارخة على أن الايمان بالمشهود يوم القيامة الموعود به فى الدنيا : حقيقة من حقائق أخلاق الكافرين .

عودة الضمير على غير مذكور :

□ **ثانيا** : قال الشيخ : «ولا ذكر للملائكة فى الآية ولا فى ما قبلها فكيف يستند التناوش إليهم» وحسبنا أن نورد خمس آيات قرآنية اسندت أو أضيفت فيها أفعال إلى غير مذكور ، كما هو صحيح فى اللغة وبلاغتها ؛ أولاهن : **﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾** والثالثة : **﴿فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب﴾** والرابعة : **﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً﴾** والخامسة : **﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾** فان الأرض والشمس والزرع والقرآن لم يسبق لها ذكر فى الآيات ... ولا فيما بعدها أيضاً ..

العبرة بعموم اللفظ فى تفسير القرآن :

□ **ثالثاً** : قال الشيخ : إن آية **﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾** لم تنزل فى تدبُّر القرآن ، وإنما نزلت فى أرجاف المنافقين بأخبار غزوات المسلمين . وهذه

حقيقة لا يعلمنا الشيخ إياها ، فنحن وهو نعلم أيضاً أن العبرة عند المفسرين بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، على أن آيات أخرى من القرآن قد أيَّدت احتمال هذه الآيات مطالبة المسلمين بالتدبُّر والتفكُّر والاستنباط فى القرآن ، وقد استدل سلف الأصوليين بها على تقليب وجوه الفهم فى القرآن فنحن فى الاستدلال بها إنما اتبعنا وما ابتدعنا ..

القرآن يفسر بعضه بعضا :

□ **رابعاً** : أنكر الشيخ قولى : إن القرآن «وحدة متكاملة متكافلة فى التعبير والتفسير» مدعياً أن هذا كلام عصرى لا يجيزه السلف ، وأن نصيبى الضئيل من قواعد اللغة قد خاننى فى إطلاقه ، ونحن نسأل الشيخ ما الفرق بين تعبيرى هذا ، وتعبير سلف الأصوليين «القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وخير ما فسرته بالوارد» فإنما أردت بقولى قولهم ، وعنيت معناهم ، بل أتبعت تعبيرى هذا بتعبيرهم توضيحاً وتوكيداً .

نقول هذا للشيخ إن كان الشيخ يعنى بمعارضته لرأينا فى تكامل القرآن وتكافله معارضة لفظية ، أما إن كان إنكاره للمعنوية فيه ، فليستمع معنا إلى هذه الآية من القرآن : ﴿**قالوا ربنا أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين**﴾[1] ثم إلى هذه الآية : ﴿**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم** ..﴾[2] ليتبين كيف كفلت آية البقرة تفسيرة الحياتين والموتتين فى آية غافر ، وكيف فصلت ورتبت

(١) سورة غافر/١١ .
(٢) سورة البقرة/٢٨ .

الآية الثانية ما أجمل فى الآية الأولى ، وهذا ما عنيناه بالتكامل

وليقرأ معنا أيضاً آية البقرة : ﴿**فتلق آدم من ربه كلمات فتاب عليه ..**﴾[1] ثم إلى آية الأعراف : ﴿**قالا ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾[2] ليعرف حقيقة تكامل القرآن تعبيراً وتكافله تفسيراً .

□ **خامساً : رجعنا أخيراً إلى تفسير الامام البروسوى ، أحد علماء القرن الثانى عشر الهجرى ، فوجدناه يقول بعد قوله تبارك وتعالى :** ﴿**وقد كفروا به من قبل**﴾ : أى محمداً أو العذاب . وإذا كان المكفور به فى الدنيا فى منطوق هذه الآية محمداً أو العذاب ، فالقول بأن المؤمن به يوم القيامة فى الآية السابقة لها موضوع الجدال : ﴿**وقالوا آمنا به**﴾ محمد أو العذاب الزم لتحقيق المقابلة اللفظية والمعنوية بين الآيتين المتتابعتين .

وبعد فنحب أن نختم جدالنا للشيخ الفاضل بقولنا : إن الإسلام ليس النصرانية ولا اليهودية ، وإن علماء المسلمين ليسوا الكهان والرهبان والأحبار والقساوسة الذين يزعمون أنهم وسطاء الناس إلى ربهم فى فهم أسرار كتبه وحل رموزها ، وتفسير إشاراتها . بل الاسلام دين التدبّر والتفكّر والتعقّل والاتصال المباشر بين الخالق والمخلوقين ، وكتابه ميسَّر للذكر والفهم والاعتبار عن طريق الدليل والاقتناع ، وصدق الله منزل القرآن إذ قال عز وجل :

□ ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر .. فهل من مدّكر؟**﴾

□ ﴿**افلا يتدبرون القرآن؟ أم على قلوب أقفالها**﴾ ؟

(١) سورة البقرة/٢٧ .

(٢) سورة الأعراف/٢٣ .

حول مفهوم الآية :

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾

عاد الأستاذ «أحمد حسن الباقورى» ـ فى مجلة «العربى» العدد (١٦٩) فى شوال ١٣٩٢هـ إلى القول بإباحة الحكم بغير ما أنزل الله[1] ، محاولاً نفى الحرج عن حكام المسلمين الذين يحكمون دولهم وشعوبهم بالقوانين الوضعية .. مستنداً إلى اختيار «الفخر الرازى» فى كتابه «مفاتيح الغيب» لرأى عكرمة صاحب ابن عباس رضى الله عنهما ، فى تفسير قول الله عز وجل : **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون﴾** بأن الآية لا تتناول الا من أنكر بقلبه وجحد بلسانه .

«فأما من عرف بقلبه أن هذا الحكم حكم الله ، وأقر بلسانه أنه حكم الله ، ثم أتى بما يضادُّه ، فإنه على ذلك حاكمٌ بما أنزل الله ، وإن كان تاركاً له ، فلا يلزمه دخوله تحت هذه الآية ، واعتباره كافراً .

ثم قال الأستاذ «الباقورى» : إن هذا الرأى الذى قال به

---

(١) توفى الاستاذ الباقورى فى شهر ذى الحجة ١٤٠٥ ـ رحمه الله وغفر له ـ وقد كتب هذا الفصل فور نشر المرحوم لوجهة نظره التى نرد عليها . . . .
وقدكرر الاستاذ الباقورى حديثه هذا فى اذاعة لندن بعد نشره فى مجلة «العربى» التى تصدر بالكويت .

عكرمة . وزكّاه صاحب المفاتيح ينفى حرجاً عن الأمة لا قبل لها به ، ولا خيرة لها فيه ، إذ يستطيع القائلون به أن يتعلقوا بقضية العموم فى الآية ، فيرموا بالكفر حكام امتنا الذين يستمدون القوانين واللوائح والاشتراعات من قوانين عالمية لا صلة لها بالإسلام» .

وأورد الشيخ «الباقورى» ثلاث آيات من القرآن الكريم ، زعم أن الناس تركوا الحكم بها ، دون أن يتعرضوا بهذا الترك للحكم عليهم بأنهم كفرة أو فجرة !

□ الآية الأولى : **﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾** .

□ الآية الثانية : **﴿يآ أيُّها الذين آمنوا ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحُلُم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ..﴾** .

□ الآية الثالثة : **﴿يآ أَيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾** .

يقول الشيخ «الباقورى» إن الناس قد تركوا أحكام هذه الآيات الثلاث ، فلم يؤدُّوا حق ذوى القربى واليتامى والمساكين من القسمة لهم إذا حضروها ، كما أنهم تهاونوا فى الاستئذان عليهم من مماليكهم وخدمهم وأولادهم فى الأوقات المذكورة ـ وان النبى ﷺ قد أمر بتزواج السادة والموالى ، ومع ذلك لم ينزل المسلمون على حكمه فهم يأنفون من تزويج بناتهم لمواليهم الخ ..

□ □ □

ولعل القارىء قد لاحظ أنى قلت فى فاتحة حوارى هذا مع الشيخ «الباقورى» إنه «عاد ..» إلى القول بإباحة الحكم بغير ما أنزل الله ، وقد قصدت ذلك قصداً ، لأن الأستاذ «الباقورى» سبق أن أعلن الرأى نفسه عام ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م عندما كان وزيراً للأوقاف فى حكومة الرئيس عبدالناصر ، فقد سئل : لماذا لا تطبق الدولة القائمة فى بلدها أحكام الشريعة الاسلامية ، ورجالها الحاكمون يقرأون قول الله تبارك وتعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ - وفى آية ثانية : ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾ وفى آية ثالثة : ﴿**فأولئك هم الفاسقون**﴾ ؟!

فأجاب : «إن هذه الآيات لا يقصد بها جماعة المسلمين ، لأن المسلم مادام يشهد أن الله خالق هذا الكون ، وأن القرآن كلام الله وان محمداً رسول الله ، فلا يخرجه بعد ذلك من الإسلام شىء الا إذا أنكر من الدين معلوماً بالضرورة ، فاذا لم يعمل المسلم ببعض تشريعات الاسلام ، فغاية ما يحكم به عليه هو أنه مذنب ، ولا يجوز عليه الحكم بالكفر والخروج من الدين» !

ثم قال : «إن حكام البلاد الاسلامية اليوم هم فى حالة الضرورة التى تبيح بعض المحظور ، على أن يرتقبوا الوقت المناسب حين تكون للأمة قوة تحمى بها تقاليدها وشرائعها ومدنيتها ، والاسلام نفسه سلك هذا المسلك فعمل أولاً على تكوين العقيدة فى الأمة ، ثم على تكوين شريعتها ، والقرآن مكيّه ومدنيّه يؤيد ذلك» !

وقد علَّقت على كلام الشيخ «الباقورى» يومذاك مجلة «الدعوة»

التى كان يديرها الأستاذ صالح عشماوى ـ رحمه الله ـ بقولها : «كان الشيخ الباقورى فى إجابته سياسياً ودبلوماسياً .. أكثر منه عالما وفقيهاً» ! !

أقوال المفسرين ونقولهم :

ونبدأ الآن حوارنا مع الشيخ «الباقورى» بإيراد موجز من أقوال فريق من المفسرين والمحدِّثين ونقولهم عن بعض الصحابة والتابعين :

□ **أولاً** : الامام الطبرى ينقل فى تفسيره «جامع البيان» روايةً عن ابن عباس : «ان الحكم بغير ما أنزل الله كفر به .. وليس كفراً بالله وملائكته وكتبه ورسله ؛ وروايةً عن الشعبى : أن المقصود «بالكافرون» المسلمون «وبالظالمون» اليهود «وبالفاسقون» النصارى ـ وروايةً عن جماعة الفقهاء : أن المراد بالآيات جميع الناس مسلموهم وكفارهم ؛ ورواية أخرى عن ابن عباس والسدّى : «أن من لم يحكم بما أنزل الله وتركه عمداً وهو يعلم ، فهو من الكافرين» .

ومع ما هو واضح من معانى الآيات ، ومقاصد نزولها ، وحقيقة شمولها ، ومع ما أورده الطبرى من مذاهب الأئمة والفقهاء والعلماء ؛ جاء رأيه أخيراً بأن الآيات : «إنما نزلت فى كفار أهل الكتاب ، فكونها خبراً عنهم أولى» ! .

ونحن نجلُّ الامام الطبرى ونعرف له مكانته فى تفسير القرآن الكريم ، ولكنا مع ذلك نرى أنه برأيه فى تفسير هذه الآيات ، إنما أراد أن يتهرّب من مسئولية تقرير حكم حاسم فى مفهومها الصريح ،

والا فلماذا بدأ هو نفسه الكلام فى تفسيرها ، وروى من آراء الصحابة والتابعين ما يدل دلالة واضحة على أن وصم القرآن لأهل الكتاب بالكفر والظلم والفسوق كان حكماً عليهم لاقترافهم إبدال عقوبة وضعية بعقوبة سماوية قررتها التوراة وصدّقها الانجيل .. إزاء القتلة والزناة مع علمهم بحكم الله ، واتفاقهم على التحريف والتبديل ، كما يفعل اليوم فقهاء القانون الحديث ، فى بعض الدول الاسلامية ـ بل معظمها ـ من إلغاء الحدود الشرعية ، كحد السرقة والزنا والقتل العمد ، بدعوى قسوتها ووحشيتها وعدم ملاءمتها لحضارة القرن العشرين بزعمهم !

وعلى ذلك نرى أنه لا يلزم للحكم بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله : أن يكون جاحداً للشرائع الإلّهية .. فاليهود فيما مضى وقد نزلت فيهم الآية وفقهاء القانون الحديث من المسلمين ـ لم يجحدوها ولكنهم استفظعوها .

ولو فرضنا ـ جدلاً ـ أن الآيات خَبَرٌ عن أهل الكتاب كما يرى الطبرى : فهل جاءت أخبار القرآن عبثاً ومسلاةً أم جاءت للعظة والاعتبار ؟ وكيف نقف إزاء الآيات القرآنية المحكمة ، والأحاديث النبوية الصحيحة التى تنذرنا عاقبة الاقتداء بأهل الكتاب فيما فعلوه من اغفال الشرائع الإلّهية ، وإبدالها بدساتير وضعية ؟ وما هى قيمة رسالة الاسلام إذا كان ظهورها لم يُطهِّر العالم من جهالات أهل الكتاب وأرجاسهم ؟ بل ما قيمتها إذا لم تفضح من مخازيهم مستوراً ، وتنشر من فضائل دينهم مقبوراً ؟ ثم ما هو «امتياز» الاسلام على اليهودية والنصرانية ؟ وما هو «فضل» المسلمين على

اليهود والنصارى .. إذا تساووا معهم فى الحكم بغير ما أنزل الله ؟ أليسوا إذن سواء .

□ **ثانياً** : الامام الألوسى يرى فى تفسيره (روح المعانى) : «أن الآية عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله تعالى ، فيدخل الفاسق المصدِّق أيضاً لأنه غير حاكم وعامل بما أنزل الله تعالى ، فان الحكم : هو التصديق ، ولا نزاع فى كفر من لم يصدِّق بما أنزل الله تعالى ، ولا شك أن من لم يحكم بما أنزل الله تعالى يكون غير مصدِّق ، ولا نزاع فى كفره» ! ونقل الألوسى عن إبن عباس قوله : «إن الآية خطاب عام لليهود وغيرهم ، وإنه ليس كفراً ينقل من الملّة ، ولكنه كفر دون كفر» !

□ **ثالثاً** : الامام القرطبى نقل فى تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» عن ابن مسعود والحسن قولهما : «إن الآية عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ـ معتقداً ذلك مستحلاً له ، أما من فعل ذلك وهو معتقد حرمته فهو من فساق المسلمين» .

□ **رابعاً** : الامام الزمخشرى نقل فى تفسيره «الكشاف» عن ابن مسعود أن الآية عامة فى اليهود وغيرهم ـ وعن حذيفة ابن اليمان قوله : أنتم أشبه الأمم سمتًا ببنى اسرائيل لتركبن طريقهم حذو النعل بالنعل !

□ **خامساً** : السيد رشيد رضا يروى فى تفسير «المنار» مقالة حذيفة ابن اليمان بنصها وهى : إن هذه الآية **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكلفرون﴾** ذكرت عند حذيفة ، فقال رجل : إن هذه الآية فى بنى اسرائيل ؛ فقال حذيفة : نعم الإخوة

لكم بنو اسرائيل .. إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة .. كلا والله لتسلكن طريقهم قدر الشّراك» أى سير النعل .

قلت : فى مقالة حذيفة ردٌّ على الإمام الطبرى الذى يرى أن الآيات خَبَرٌ عن أهل الكتاب .. أى أن لنا كل حلوة ولهم كل مرة كما قال حذيفة مستنكراً وساخراً ممن يفهم هذا الفهم العجيب ! !

ونقل السيد رشيد رضا مثل مقالة حذيفة عن ابن عباس كأنه يرى ذلك حاصلاً فى المسلمين ، ثم قال السيد رضا : «فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو الزنا أو القذف لاستقباحه إياه وتفضيل غيره من أوضاع البشر عليه ، فهو كافرٌ قطعاً ، ومن لم يحكم به لعلةٍ أخرى فهو ظالم إن كان فى ذلك إضاعة الحق ، وترك العدل ، والمساواة فيه . والا فهو فاسق فقط ، إذ لفظ الفسق أعم هذه الألفاظ ، فكل كافر وكل ظالم فاسق ، ولا عكس» .

□ **سادساً** : نجد العالم الشهيد «سيد قطب» رحمه الله فى تفسير «الظلال» يبحث المسألة بعمق وشمول ، ناظراً فيها كقضية كلية وفى كل ما ورد فى القرآن عنها . إنه يرى أن القرآن يقرر «حتمية» الحكم بما أنزل الله .. وأن السياق القرآنى لهذه الآيات يقرر أولاً : توافق الديانات التى جاءت من عند الله كلها على تحتيم الحكم بما أنزل الله وإقامة الحياة كلها على شريعة الله ، وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإيمان والكفر .. فالتوراة أنزلها الله فيها هدى ونور .. والأنجيل آتاه الله عيسى ابن مريم مصدقاً للتوراة ، وهدىً وموعظةً للمتقين ، والقرآن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً عليه وقال له : ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله** ،

ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ .

ثم يرى الأستاذ سيد قطب : أن المسألة خطيرة ، والتشدد فيها على هذا النحو «أى بِرَمْىِ من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسوق» يستند إلى أسباب خطيرة كذلك ، ويفصل هذه الأسباب ، فيذكر أن الاعتبار الأول فى هذه القضية : هو أنها قضية الإقرار بألوهية الله وربوبيته وقوامته على البشر بلا شريك ـ أو رفض هذا الإقرار ومن هنا كانت قضية كفر أو إيمان ، وجاهلية أو اسلام !

ويتحدث الأستاذ قطب عن الاعتبارات الأخرى ـ بما لا يتسع المجال هنا لايراده ـ كأفضلية الحكم بما أنزل الله لأنه منهج قائم على علم الله بحقيقة الكائن الحى وحاجاته ـ وهو قائم أيضاً على العدل الآلهى المطلق ـ ومتناسق مع نواميس الكون كله ـ وهو منهج يحرِّر الانسان من العبودية لغير الله . «ولذلك فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج فى النهاية عن نطاق الايمان بنص القرآن» !

هذه أقوال بعض المفسرين القدامى والمتحدثين ، ونقولهم عن الصحابة والتابعين ، ويتضح منها :

١ ـ رأى ابن عباس وابن مسعود والحسن والسدى رضى الله عنهم : أن الآيات خطاب عام لليهود وغيرهم ، وأنها عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله ...

٢ ـ قول الألوسى : إن الآية شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله .. وان من لم يحكم بما أنزل الله يكون غير مصدِّق ، ولا

نزاع فى كفره .

٣ ـ قول رشيد رضا : إن من أعرض عن الحكم بما أنزل الله مستقبحاً إياه ومفضِّلاً لغيره عليه من قوانين البشر فهو كافر قطعاً ، والا فهو ظالم أو فاسق ، والفسق يشمل الكفر والظلم !

٤ ـ رأى سيد قطب : أن القرآن كله ، وليست هذه الآية وحدها .. يحكم بكفر من يحكم بغير ما أنزل الله !

٥ ـ سخرية الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان ممن فهم أن الآية تعنى اليهود وحدهم وقوله : لتسلكن طريقهم حذو النعل بالنعل ! !

آيات أخرى ملزمة بالحكم بما أنزل الله :

وهناك آيات قرآنية صريحة ... لا تحتمل التأويل ، ولا اختلاف الآراء حولها وحول حكمها الصارم بوجوب الحكم بما أنزل الله ، ونَفْى الإيمان عمن لا يقبل بشريعة الله حكماً ؛ من ذلك قوله عز وجل :

□ **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ...﴾**

□ **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليما ..﴾**

□ **﴿فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول .. إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ...﴾**

□ ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ..**﴾ ؟

□ ﴿**وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ...**﴾

□ ﴿**إن الحكم إلا لله يقص الحق ، وهو خير الفاصلين ..**﴾

□ ﴿**إن الحكم الا لله أمر الا تعبدوا إلّا إياه . ذلك الدين القيم ..**﴾

□ ﴿**ولا تدع مع الله إلّهاً آخر ، لا إلّه إلا هو كل شيء هالِكٌ الا وجهه ، له الحكم .. وإليه ترجعون ..**﴾

□ ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ..**﴾

□ ﴿**إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم : أن يقولوا سمعنا واطعنا . واولئك هم المفلحون**﴾ .

ونلاحظ فى الآيتين (٧ و ٨) وغيرهما مما لم نذكره ـ أن الله عز وجل حين يفرض عبادته وحده دون الآلهة الأخرى الباطلة .. يفرض أيضاً فى الآية نفسها الاحتكام إلى شريعته ، فكما لا تجوز عبادة غيره لا يجوز كذلك الحكم بغير ما أنزل من شريعة عادلة فاضلة .

ويؤيد اعتبار الحكم بغير ما أنزل الله من شريعة عبادةً لغيره ـ سبحانه ـ حديث عدى بن حاتم الذى قال فيه : «أتيت النبى ﷺ ، وفى عنقى صليب من ذهب . فقال : ما هذا يا عدى ؟ أطرح عنك هذا الوثن .. وسمعته يقرأ : ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ فقلت : يا رسول الله ماكنا نعبدهم فقال : ألم يكونوا يحرمون عليكم ما أحل الله فتحرِّمونه ، ويحلُّون لكم ما حرَّم

الله فتحلُّونه ؟ قلت : بلى قال : فتلك عبادتهم»[1]

وفى قوله عز وجل : ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**﴾ نذير بأن من أطاع غير الله فيما يشرع مخالفاً لشرع الله يكون مشركاً مع الله غيره ..

وللعلماء ـ من مفسرين وفقهاء ـ تعليقات على الآيات القرآنية التى اثبتناها آنفاً ..

يقول الامام ابن القيم : أقسم سبحانه بنفسه على نفى الإيمان عن العباد حتى يحكِّموا رسوله فى كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل ، ولم يكتف فى إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفى عن صدورهم الحرج والضيق بقضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم بذلك أيضاً حتى يسلِّموا تسليماً وينقادوا انقياداً»[2]

ويقول الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب : من نواقض الاسلام الاعتقاد بأن غير هدى الاسلام أكمل من هديه ، وأن حكم غيره أحسن من حكمه ، وكذلك اعتقاد بعض الناس أنه يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ .[3]

وافتى الإمام ابن تيمية فى مسألة عن قتال التتار ـ مع تمسكهم بالشهادتين وزعمهم أنهم متبعين لأصل الأسلام : فقال : «كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الاسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم وغيرهم .. فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، وإن كانوا ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبوبكر والصحابة

---

(١) اخرجه الترمذى .

(٢) أعلام الموقعين جـ/١ص/٥١ .

(٣) كتاب التوحيد/٢٧٨ .

رضوان الله عليهم مانعى الزكاة ، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم» .

ويقول ابن حزم ، فى الملل والنحل ، تعليقاً على الآية : ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم**﴾ هذا نص لا يحتمل تأويلاً ، ولا جاء نص يخرجه عن ظاهره أصلاً ، ولا جاء برهان بتخصيصه فى بعض وجوه الإيمان» .

ويرى إبن كثير ، فى تفسيره أن الآية : ﴿**فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير واحسن تأويلاً**﴾ .. تدل على من أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليهما فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر» .

ويقول الزركشى ، فى البرهان ، فى قوله : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ؛ **وفى الثانية** : **فأولئك هم الظالمون** ؛ **وفى الثالثة فأولئك هم الفاسقون**﴾ الكافر والظالم والفاسق كلها بمعنى واحد ، وهو (الكفر) عبَّر عنه بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة واجتناب صور التكرار .

ويقول الأستاذ سيد قطب : إن النص القرآنى يسوّى فى الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله .. بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم واطاعوهم واتبعوهم وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقاداً ، وقدموا إليه الشعائر فى العبادة ، فهذه كتلك فى اعتبار فاعلها مشركاً بالله الشرك الذى

يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله فى عداد الكافرين.[1]

كما يقول الأستاذ سيد أيضاً: جاءت كلمتا (الظالمون والفاسقون) فى القرآن وصفاً للكافرين.. فى قوله عز وجل: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾ وقوله أيضاً: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ كما وصف القرآن الكريم بالفسق إبليس: ﴿**انه كان من الجن ففسق عن أمر ربه**﴾ ووصف بالفسق أيضاً أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ: ﴿**ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون**﴾ وفى قوله عز وجل: ﴿**وكذلك حقت حكمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون**﴾.

ويقول الأستاذ سيد: أن صفة الألوهية لا تتحقق لله كاملةً إلا أن يكون حاكماً أيضاً، فافراده بالحاكمية جزء من إفراده بالعبادة وذلك بمقتضى التوحيد الخالص... وكما قال عز وجل: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ يقصد الحاكمين قال سبحانه ـ يقصد المحكومين: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليما**﴾[2]

قلت: وفى قوله تبارك وتعالى: ﴿**ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا.. ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين**﴾ تأكيد لنفى الإيمان عمن لا يحتكم إلى الشريعة الاسلامية كما جاء فى

---

(١) فى ظلال القرآن جـ/١٠ ص/٢٠٣.

(٢) فى ظلال القرآن ص ٣٢/جـ ١٣.

الآيتين : ﴿**فلا وربك لا يؤمنون**﴾ و ﴿**فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ..**﴾ وذلك فى قوله تبارك وتعالى : ﴿**وما أولئك بالمؤمنين**﴾ إذ أنهم قالوا بأفواههم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا .. ثم تولوا عمليا وسلوكياً عن تطبيق شريعته .

تبريرات الشيخ الباقورى :

يرى الأستاذ «الباقورى» أن حكام البلاد الاسلامية الذين لا يحكمون بما أنزل الله هم اليوم فى حالة الضرورة التى تبيح المحظور ، وأنهم يرتقبون الوقت المناسب حتى تكون الأمة قوية بعد خروج العدو من أرضها ، فتستطيع أن تحمى تقاليدها وشريعتها .

ولا ندرى كيف نسى الأستاذ «الباقورى» النذير النبوى : (ما حكم قوم قوم يغير ما أنزل الله الا سلط عليهم عدوهم فاستنفد ما عندهم) ؟

وفى روايةٍ أخرى : (ما حكم قوم بغير كتاب الله وتخيروا فيما أنزل الله عليهم الا جعل الله بأسهم بينهم) . وكيف نسى أيضاً موعظة الإمام الشهيد «حسن البنا» رحمه الله : (أخرجوا المستعمر من نفوسكم يخرج من أرضكم) .

وصدق الإمام الشهيد .. فعلى الرغم من خروج المستعمر من البلاد الاسلامية ـ خلال ربع القرن الماضى ـ فإن قوانينهم وثقافتهم ومناهج تعليمهم وتربيتهم ، واقتصادهم وإعلامهم من صحافةٍ وإذاعةٍ وتلفاز .. كل أولئك مازالت محكومة بأفكار المستعمر ونظرياته وتقاليده وتشريعاته .

وإن ضعف الأمم العربية ، والاسلامية عامة ، مع هذا «الاستعمار الفكرى ، والأخلاقى ، والتشريعى ، والاقتصادى ، والتربوى الذى تخضع له راضيةً طائعة ـ سببه الوحيد الفريد : هو أن المستعمر لم يخرج ـ بعد من قلوبها وعقولها .. وهى نفسها لا تريده أن يخرج .. متعمدةً قاصدةً مصرةً على هجرها لأحكام الاسلام وآداب المسلمين .

ومادام خروج المستعمر مادياً وعسكرياً قد تم ، ولم يعد الحكام المسلمون إلى شريعة الله يحكِّمونها فيما بين شعوبهم وأممهم لأن استعماراً فكرياً وخُلُقياً قد خلفه عليهم .. فإنه لا بدَّ من احلال (الإسلام) محل هذا الاستعمار الفكرى والأخلاقى ليغادرهم إلى غير رجعة .. والا فسوف ننتظر مع الشيخ الباقورى حتى يلج الجمل فى سم الخياط .

إن واقع الدول الاسلامية الآن يؤكِّد بوضوح : أنها ليست مرغمة على البقاء فى تشريعات مستعمريها السابقين ، وقد قامت بوضع دساتير جديدة للحكم فيها .. تهربت فيها من القول بأن المصدر الرئيسى للتشريع هو الاسلام ، وجعلته أحد مصادر التشريع فقط !!

ومع ذلك يرى الشيخ (الباقورى) أنهم فى حالة ضرورة تبيح المحظور ، وانه لا يجوز أن نفهم الآية على عمومها لئلا نضعهم فى موقف حرج ، لا قبل لهم به !!

□ □ □

أما قول (الباقورى) أن الاسلام بدأت دعوته بتكوين العقيدة

أولاً ، ثم انتهت بالتشريع ثانياً ، وعلينا أن نمهل الحكام المسلمين حتى ينتهوا من تربية رعاياهم على العقيدة الاسلامية وعندئذ نطالبهم بالحكم بين الرعايا بشريعة الاسلام ، فهذا قياس مع الفارق البعيد .. فالشعوب الاسلامية اليوم لا تعيش جاهلية كجاهلية العرب الأولى قبل ظهور الاسلام ، وإن كانت تعيش جاهلية عصرية نقلتها عن الحضارة الغربية !

والشعوب الإسلامية هى التى تطالب اليوم حكامها بتطبيق شريعة الله فى أحكامها المدنية والجنائية وليست هى (المانع) من التطبيق ، وإنما هو الاستعمار الفكرى والأخلاقى والسياسى ـ كما أسلفنا ـ الذى يمنعهم عن الحكم بما أنزل الله من كتاب .

والشعوب الاسلامية يعرف معظم أفرادها أركان الاسلام وأركان الإيمان ، ويؤدون الفرائض ويقيمون الحدود ، ومن يهمل منهم شيئاً من ذلك فبسبب جهله أو إهمال حكومته لواجب الإرشاد والتوجيه ، والأخذ على أيدى المقصرين بالعقاب والزجر .

وهذه الجوامع والجامعات والمدارس والمعاهد والهيئات والجمعيات الاسلامية ، وهذه الكتب والموسوعات والبحوث والصحف ، والمجلات والإذاعات .. أليست منابر ومعارض ومجاهر للإسلام عقيدةً وشريعةً وخُلقاً ! وهل نحن حديثو عهد بالاسلام حتى نبتدىء الآن بتكوين عقيدتنا ، ونهمل شريعتنا ؟ .

□ □ □

أما الآيات الثلاث التى أوردها الشيخ (الباقورى) والتى تتضمن بعض الآداب الاسلامية : (وهى الاستئذان فى الأوقات الثلاثة

والقِسْمة لأولى القربى والمساكين والايتام وتزويج الموالى من بنات السادة) وقوله : إن المسلمين لا يطبقونها ومع ذلك لم يتعرض لهم أحدٌ بأنهم كفرة أو فجرة ! !

.. فان ما تضمنته الآيات من آداب ووصايا هى كالآداب والوصايا التى يوجهها القرآن والسنة النبوية عن قول الصدق ، والصبر ، والوفاء بالعهد ، وبر الوالدين ، والاحسان إلى الجيرة ، وترك الظن السيء الخ .. وإذا كان هناك بعض الأفراد فى المجتمعات الاسلامية لا يلتزم بها .. فهى أخطاءٌ وذنوب فردية يكاد لا يسلم منها إلا القليل .

وبين مخالفة هذه الآداب والوصايا ، وعدم الحكم بما أنزل الله فرق فارق ـ لأن الحكم بغير كتاب الله يعنى الدولة والمجتمع كلها ، ويعنى إهمال شريعة الله كلية بما فيها من حدود وعقود ، نص القرآن والأمة والحديث النبوى على وجوب التزامها ومن اجلها أرسل الرسول ، وأنزل القرآن . ومن أجلها كذلك أرسل موسى وعيسى وأنزلت التوراة والانجيل ، ولذلك حكم القرآن على من لم يحكم بما أنزل الله أنه كافر ، أو وظالم ، أو فاسق .

ويقول الامام الغزالى فى «المستصفى ـ ١/٤٢ : «إن خطاب الشرع إما أن يرد باقتضاء الفعل أو اقتضاء الترك ، فان اقترن بالأول إشعار بالعقاب كان واجباً وإذا لم يقترن كان ندباً .. وإذا اقترن بالثانى إشعار بالعقاب فهو حظر والا فهو كراهية ..» .

وقد خلت آيات الاستئذان والقسمة والمساواة بين السادة والموالى من إشعار بعقاب ، وهى تتضمن خطاباً يقتضى الفعل ،

فتكون إذن للندب والترغيب .

وإذا رجعنا إلى تفسير الآيات الثلاث وما روى عن السلف فيها تبين لنا أنها كما قلنا من قبيل الندب والترغيب ، وليست أحكاماً كأحكام الزواج والطلاق وحدود الزنا والسرقة وأمثالها .

□ فمثلاً .. آية القسمة : يقول الإمام القرطبى فى كتابه «الجامع لأحكام القرآن» : يبين الله أن من لم يستحق شيئاً إرثاً وحضر القسمة ، وكان من الأقارب واليتامى والفقراء الذين لا يرثون : أن يكرموا ولا يحرموا إن كان المال كثيراً ، والاعتذار إليهم إن كان عقاراً أو قليلاً لا يقبل العطاء ـ قاله ابن عباس ، وروى عنه أيضاً أنها منسوخة بآية الميراث والوصية . وممن قال بنسخها أبو مالك وعكرمة والضحاك ـ قال النحاسى : أحسن ما قيل فى الآية أن يكون على الندب والترغيب فى فعل الخير الخ ..

□ أما آية الاستئذان فقد فصل القول فيها الإمام ابن القيم فى كتابه «زاد المعاد فى هدى خير العباد» وأورد أقوال عدد من العلماء : منها أنها منسوخة ـ أو أنها أمر ندب ـ أو أنها خاصة بالنساء ، وقالت طائفة إنها محكمة ـ ثم قال ابن القيم : والصحيح أن الحكم فيها معلل بعلة قد أشارت إليها الآية فان كان هناك ما يقوم مقام الاستئذان من فتح باب فتحه دليل على الدخول ، أو رفع ستر ، أو تردد الداخل والخارج ونحوه ... أغنى ذلك عن الاستئذان ، وإن لم يكن ما يقوم مقامه فلابد منه ، فإذا وجدت العلة وجد الحكم ، وإذا انتفت انتفى» .

ومما نقله ابن القيم ـ فى موضوع الآية ـ قول لابن عباس : إن

الناس لم يكن لبيوتهم ستور ، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل ، والرجل على أهله .. فأمرهم بالاستئذان فى تلك العورات الثلاث ، ثم جاءهم الله بالستور والخير فلم أر أحداً يعمل بذلك بعد» .

قلت : وإذا كان الله جاء بالستور فى عهد ابن عباس فقد جاء الله عز وجل الآن بالقصور ، وغرف النوم الخاصة والحمامات المقفلة ! !

□ أما تزويج السادة بناتهم لمواليهم أو عدمه ، فهناك من فعله ومن لم يفعله أو استنكره قديماً وحديثاً .. بل فى عهد الرسول ﷺ ، وقصة زينب بنت جحش معروفة لا تحتاج إلى سرد ، فقد انفت وانف أخوها عبدالله من زواجها بِزَيْد بن حارثة مولى الرسول ﷺ ، وهى إبنة عمته .. وعاشت معه على كره حتى طلقها . وهى مسألة اختيارية ، وليست فرضاً ، لأن الاسلام أعطى الحق للمرأة فى قبولها بمن يخطبها ، أو رفضه ، وكما كرهت زينب الزواج من زيد .. كره الرسول ﷺ أن يتزوج على ابن أبى طالب ـ على ابنته فاطمة الزهراء ـ إبنة أبى جهل ، وقال عليه الصلاة والسلام : إن فاطمة بضعة منى ، وإنى أخاف أن تفتن فى دينها ، وإنى لست أحرِّم حلالاً ولا أحلُّ حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد[1] ، ومع أنّ تعدد الزوجات مباح فلا الله ولا رسوله أوجب تزويج بنات السادة للموالى ، ولا أوجب القسمة على الحاضرين من غير الورثة ، ولا أوجب الاستئذان فى

---

(١) اخراج الحديث البخارى ومسلم وأحمد وأبو داود .

البيوت ايجاباً كأحكام الحدود والعقود . وإنما هى آداب ، وأخلاق ووصايا ، يخطىء الناس فيها ويصيبون .

□ □ □

وبعد فالقرآن كله يأمر بالحكم بشريعة الله المنزلة فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وحسبنا هذه الآية منه :

□ ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة**﴾ أى الاسلام ، فلا يجوز بل لا يقبل أن نؤمن ببعض ونكفر ببعض !

وإذا كان القرآن يقول لأهل الكتاب من يهود ونصارى : ﴿**قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم**﴾ أى القرآن عقيدةً وشريعةً .. فنحن أولى بالقرآن منهم ، ولسنا على شىء من الاسلام إذا لم نحكم به .

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ..

حول المفهوم القرآنى
للامداد بالملائكة

هل هو حقيقة مادية .. أم تقوية معنوية ؟

كتب الدكتور وهبه الزحيلى عميد كلية الشريعة بدمشق فى مجلة (حضارة الاسلام) الدمشقية[١] عن الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر .. هل كان حقيقةً مادية أم تقوية معنوية ؟ انتهى فيه الى القول : بأنه كان مجرد تقوية معنوية ، واعتمد على ما ظنه حجةً له .. من الاستدلالات التالية :

□ **أولاً** : قال : إنه ليس فى القرآن الكريم على أن الملائكة قاتلت بالفعل نصٌّ قاطع ــ وإن الظاهر من الآيات مجتمعةً هو أن اشتراك الملائكة فى معركة بدر كان عملاً روحياً ـ وأن بعض العلماء أنكر قتال الملائكة يوم بدر ، فهم لم يقاتلوا فعلاً ، وإنما كانوا يكثِّرون السواد ، ويثبِّتون المؤمنين ، والا فملك واحد كافٍ فى إهلاك أهل الدنيا كلها ..

□ **ثانياً** : قال : وأما الروايات المنقولة عن اشتراك الملائكة فى القتال فعلاً فلم يصح سندها ــ ومن أضعفها رواية الربيع ابن أنس فهى دعوى تناقض الحس ، إذ من الذى يستطيع قتل أحد من

---

(١) العدد الصادر فى ربيع الاول ١٣٨٩ هـ .

الملائكة ، ورواية الربيع هذه هى قوله : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا بضربٍ فوق الأعناق ، وعلى البنان ، مثل سمة النار قد احرق به .

□ **ثالثاً** : ذكر الدكتور الزحيلى الآية القرآنية : **﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبِّتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان﴾** [1]

ثم قال : إن قوله سبحانه : **﴿سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾** . من تتمة خطاب الله للمؤمنين ـ وهو يقتضى أن قوله ، بعد ذلك ـ **﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾** خطاب للمؤمنين وليس للملائكة ! .

□ **رابعاً** : قال : هل إذا خاضت الملائكة المعركة فعلاً يتحقق المقصود الشرعى من تكليف الناس بالجهاد الحق؟ ثم قال : والخلاصة إن الأطناب بذكر إشتراك الملائكة فى القتال يوم بدر لا يتفق مع ما ثبت من مواقف البطولات لصحابة الرسول عليه السلام» !

هذه هى الاستدلالات الرئيسية فى بحث الدكتور وهبه الزحيلى عن (الإمداد بالملائكة ..) وهناك فى ثنايا البحث آراء واستدلالات أخرى قد نشير إليها بعد استكمال التعقيب على ما انتهى إليه الكاتب الفاضل من أن الامداد بالملائكة كان لمجرد تقوية المسلمين روحياً ، وليس هو إمداداً فعلياً اشتركت فيه الملائكة بالقتال مع المسلمين :

---

(١) سورة الانفال/١٢ .

النص القرآنى موجود :

فأما قول الدكتور الزحيلى : إنه ليس فى القرآن نص قاطعٌ على أن الملائكة قاتلت بالفعل إلى جانب المسلمين فى غزوة بدر الخ . فإن الآية (١٢) من سورة الأنفال التى أوردها هو نفسه فى مقاله تعتبر نصًّا قاطعاً على اشتراك الملائكة بالقتال . ففيها : ﴿**فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان**﴾ والخطاب أو الأمر موجَّه هنا إلى الملائكة ، لا إلى المؤمنين كما وهم الدكتور ، لأن جملة الآية خاصة بخطاب الملائكة : ﴿**إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبِّتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾ .

فجملة ﴿**سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب**﴾ معترضة وهى خبر أو وعد من الله للملائكة وللمؤمنين معاً بأن الله سيلقى فى أفئدة الكافرين الخوف من قتال المسلمين ، وجاء قبلها قوله : ﴿**فثبِّتوا الذين آمنوا**﴾ وهو خطاب أو أمر للملائكة بتثبيت المؤمنين ثم جاءت بعد الجملة الاعتراضية ـ الجملة المتفرعة عن الجملة الأولى الموجَّهة إلى الملائكة وهى قوله : ﴿**فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان**﴾ وهى حتماً خطابٌ وأمرٌ للملائكة بضرب الأعناق وضرب البنان الكافرين .. بل هى بيان لنوع (التثبيت) المأمور به فى الجملة الأولى ، والملائكة ـ كما يصفهم القرآن الكريم ـ ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾[1] .

---

(١) سورة التحريم/٦ .

وليس فى الآية ـ كما يلاحظ القارىء المتفهِّم ـ قرينة لفظية أو معنوية تحول سياق الخطاب عن مقتضاه ، وتدل على إنهاء خطاب الله للملائكة وتوجيهه إلى المؤمنين ، فوجب اعتبارها كلها خطاباً للملائكة .

ويؤكِّد هذا المفهوم ـ باشتراك الملائكة فعلاً فى القتال ما جاء فى الآيتين التاليتين (١٣ و ١٤) من نفس السورة من قوله عز وجل تعليلاً وبياناً لإيحائه أو أمره للملائكة بالقتال مع المؤمنين : ﴿**ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب**﴾ وقوله أيضاً : ﴿**ذلكم .. فذوقوه وإن للكافرين عذاب النار**﴾ .

والمعنى الواضح الذى لا يحتاج إلى تأويل ـ هو أن هذا العقاب الشديد الذى أنزله الله بالكافرين إنما كان جزاء لهم على أنهم شاقُّوا الله ورسوله ، وأنه ـ أى العقاب الشديد ـ هو هذا الإمداد بالملائكة ليقاتلوا مع المؤمنين ، فيضربوا فوق الأعناق ـ ويضربوا منهم كل بنان .

ثم يقرعهم ، أى الكافرين ، ويوبِّخهم ويشفى صدور قوم مؤمنين بقوله : ذلكم ـ أى قتال الملائكة مع المؤمنين وهو ما لا طاقة لهم به ـ فذوقوه .. فى الدنيا ولكم فى الآخرة أيضاً : عذاب النار ! .

نصوص قرآنية أخرى :

أما النصوص القرآنية المُثبتة لإمداد الله وأصحابه بالملائكة فى

غير بدر ، فآية الأحزاب واحدة منها ، وهى قوله عز وجل : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم : إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا**﴾[1] .

وفى غزوة حنين يقول الله عز وجل من سورة التوبة : ﴿**لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين**﴾[2]

وفى هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام مع صاحبه أبى بكر رضى الله عنه إلى المدينة يقول تبارك وتعالى : ﴿**إذ أخرجه الذين كفروا ثانى إثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه ، وأيَّده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم**﴾[3] .

فهذه نصوص قرآنية صريحة على الإمداد المادى بالملائكة ، فى غير معركة بدر ، ولو كانت الملائكة نازلة أو منزلة لمجرد التثبيت والتحريض والتقوية المعنوية ـ كما يذهب الدكتور الزحيلى ـ لكفى عنها إنزال السكينة على الرسول وعلى أصحابه ، الوارد فى الآيتين (٣٦ و ٤٠) ولكانت الريح كافية عن جنود الملائكة ، الواردة فى

---

(١) الاحزاب/٩ .
(٢) التوبة/٢٥،٢٦ .
(٣) التوبة/٤٠ .

الآية (٩) .

وهناك آية أخرى عامة فى إمكان نزول الملائكة لتأييد المسلمين الصادقين على مدى الدهر ، وهى قوله عز وجل : ﴿**إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة الا تخافوا ، ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون**﴾ والآية التى تليها تؤكد معناها بقوة : ﴿**نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**﴾[(١)] .

وفى ذلك ردٌّ على الدكتور الزحيلى فى قوله : «فلا ينتظر أحد من المسلمين اليوم حدوث مثيل له فى حروبنا» .

ولله جنود السموات والأرض :

هذا وقد وردت فى القرآن الكريم نصوصٌ على أن لله جنوداً يسلِّطها بتأييد عباده المؤمنين ، وتخذيل الكافرين كقوله عز وجل : ﴿**ولله جنود السماوات والأرض**﴾[(٢)] وقوله : ﴿**وما يعلم جنود ربك الا هو**﴾[(٣)] .

والتعبير بلفظة (جنود) يعنى القوة المادية ، سواء أكانت ممثلة فى ملائكة أم فى جن أم فى ريح أم فى طوفان ، ولو كان ذلك يعنى مجرد التأييد الإلٓهى روحياً أو نفسياً لكفى فيه ـ كما أسلفنا ـ إنزال السكينة على قلوب المؤمنين ، أو إنزال النعاس أمنة عليهم ـ كما جاء فى سورة آل عمران ـ أو إرسال الريح على المشركين لتشريدهم ـ كما جاء فى سورة الأحزاب .

أما قول الدكتور : إن مَلَكاً واحداً يكفى لهلاك أهل الدنيا كلهم ـ فقد أُنسى أصلح الله باله : أن جبريل عليه السلام كان ينزل

---

(١) سورة فصلت/٣١،٣٠ .

(٢) سورة الفتح/٨،٤ .

(٣) سورة المدثر/٣١ .

إلى النبى ﷺ فى صورة بشرية ولم يره على شكله الملائكى الا مرتين[1] . كما تمثل جبريل (لمريم) عليها السلام (بشراً سوياً) عندما أرسل إليها ليهب لها : (غلاما زكيا) فى قصة ولادة المسيح عليه السلام من غير أب .

وقد جاء ملك الجبال مرة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فى فترة تكذيب المشركين له فى مكة ، واستأمره أن يطبق عليهم الأخشبين ، فامتنع الرسول عن الإذن له ، وقال ما معناه : إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً .

إذن فليس ضرورياً أن يشترك الملائكه مع المؤمنين فى قتال الكافرين ، وهم على هيئاتهم وقدراتهم الملائكية . بل لعله من أسباب وعوامل ووسائل تثبيت المؤمنين واطمئنان نفوسهم : أن يكون الملائكة فى أشكال بشرية ، ليأنسوا إليهم ، إذا اتفق لبعضهم أن يروهم ، كما جاء فى بعض الروايات . ولا يمنع رؤية بعض المسلمين لبعض الملائكة فى بدر ، ماجاء فى قوله عز وجل فى القرآن (لم تروها) فى الأحزاب وحنين وهجرة الرسول .

بعض ما جاء فى الحديث والسيرة :

أما قول الربيع بن يونس : (كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا بضرب فوق الأعناق وعلى البنان ..) فقد أساء الدكتور الزحيلى فهمه ، حين رأى انه ادعاء يناقض الحس والمعقول إذ من الذى يستطيع قتل أحد من الملائكة ؟ .

لقد فهم الدكتور من قوله : ـ يعرفون قتلى الملائكة ـ أى من

---

(١) كما جاء فى حديث عائشة الذى رواه الشيخان والترمذى .

قتلهم المشركون من الملائكة ، وهذا غير وارد ، وغير مقصود ، إنما المفهوم الواضح والمقصود حقاً هو من قتلهم الملائكة من المشركين ، وهو من قبيل إضافة المفعول إلى فاعله ـ كما يقال صرعى الغوانى أى من صرعهم حب الغوانى ! !

وفى تفسير الإمام إبن كثير قوله : (جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يوم بدر فى العريش مع الصديق أبى بكر رضى الله عنه وهما يدعوان ـ وكان من دعاء الرسول : اللهم إن تَهْلِكْ هذه العصابة اليوم لا تعبد ؛ فأخذت الرسول سنة من النوم ، ثم استيقظ منتبهًا فقال : أبشرْ يا أبا بكر .. هذا جبريل آخذٌ بعنان فرسه على ثناياه النقع ، ثم خرج من العريش وهو يتلو قوله تبارك وتعالى : ﴿سيهزم الجمع ويولُّون الدُبُر﴾[1] .

وفيه أيضاً قوله : (ثبت فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : (رأيت يوم أحد عن يمين النبى وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده)[2] .

وفى صحيح البخارى : (جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : ما تعدُّون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ؛ قال جبريل : وكذلك من شهد بدراً من الملائكه) .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : (ما رؤى أبليس ادحر ولا أخزى من يوم بدر ـ قالوا : وما رأى يوم بدر ؟ قال ﷺ : رأى جبريل يزع الملائكه) أى يقودهم ويوجههَم فى معركة بدر .

---

(١) ج/٢ ص/٢٩٠ .
(٢) ج/١ص/٤١٥ .

وفى هذه الأحاديث تأييد لقول الربيع بن يونس الذى استبعده واستنكره الدكتور الزحيلى .

ونَدَعُ الروايات الكثير التى تؤيد إشتراك الملائكة فى القتال مع المسلمين فى معركة بدر ، والتى تصف الملائكة بأرديتها وعمائمها البيض أو الصفر الخ ونذكر للدكتور الزحيلى ما يثبت إشتراك الملائكة مع المؤمنين فى القتال فى واقعه الأحزاب ، فقد روى أن جبريل عليه السلام أتى الرسول ﷺ وهو يغتسل فى دار أم سلمة بعد عودته من غزوة الخندق ، وقال له : وضعت سلاحك يا رسول الله ؟ قال : نعم ؛ قال جبريل : ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها ! ثم أبلغه أمر الله عز وجل بالتوجُّه إلى بنى قريظة لتصفية الحساب معهم .

فقوله : (ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها) حجة ظاهرة على أن الملائكة التى أُنزلت لتأييد الرسول والمسلمين فى غزوة الخندق كانوا مزودين بالسلاح ، وأن لم يحدث قتال فى هذه الغزوة ، ومعنى ـ أنها لم تضع أسلحتها ـ أنها مستعدة للقتال مع المسلمين للناقضين لعهودهم من بنى قريظة إذا عزموا على قتال الرسول ومن معه من الصحابة ـ أى أن الملائكة كانت تنزل لمساندة الرسول ﷺ والمسلمين فى كل حروبهم وغزواتهم مساندةً ماديةً مُسلَّحةً .

وفى الحديث ـ بالإضافة إلى آيات قرآنية سنذكرها فيما بعد ـ ردٌّ على الدكتور الزحيلى بما جزم به من أن الإمداد : حَدَثَ فقط فى معركة بدر ـ فقد ثبت حدوثه فى غزوة الخندق وغزوة بنى قريظة وإن كانت الأولى قد انتهت بهزيمة الأحزاب بما سلَّط الله عليهم من

ريح ومن ملائكة ، وانتهت الثانية بما حَكَم فى بنى قريظة سعد بن معاذ ـ وهو حليفهم ، وقد ارتضوا تحكيمه وحكمه ـ بقتل الرجال منهم وسبى النساء والذرية .

بين المد والإمداد :

وفرّق الدكتور وهبه بين كلمة ـ مدّ ـ الثلاثية و ـ أمدّ ـ الرباعية ، فقال : إن الأولى لزيادة العدد ، والثانية للإعانة ـ وأن القرآن استعمل كلمة الإمداد لا المدّ العددى ، وعلى هذا يكون المراد من الإمداد هو ما يزيد فى قوة القوم لا فى عددهم الخ . ونحن نرى أن القرآن الكريم قد استعمل ـ الإمداد للزيادة العددية فى قوله عز وجل : ﴿**واتقوا الذى أمدّكم بما تعلمون ـ أمدكم بأنعام وبنين**﴾[1] وفى قوله أيضاً : ﴿**ويمددكم بأموالى وبنين**﴾[2] فى حين استعمل ـ المدّ ـ للزيادة المعنوية فى قوله سبحانه : ﴿**وَنمدُّ له من العذاب مداً**﴾[3] وفى قوله أيضاً : ﴿**وإخوانهم يَمُدُّونهم فى الغى ثم لا يقصرون**﴾[4] .

فالإمداد بالأنعام والأموال والبنين : زيادة عددية ، ومد العذاب أو مد الغىّ : زيادة فى قوة كل منهما ـ أى إطالته أو توسعته ، وذلك عكس ما ذهب إليه الدكتور الزحيلى !

---

(١) سورة الشعراء/١٣٢,١٣٣ .
(٢) سورة نوح/١٢ .
(٣) سورة مريم/٧٩ .
(٤) سورة الأعراف/٢٠٢ .

الإمداد بالملائكة وبطولات الصحابة :

أما ما توهَّمه الدكتور وهبة من أن القول بإمداد الله للرسول وأصحابه بالملائكة إمداداً فعلياً ليشتركوا معهم فى القتال لا يتفق مع ما ثبت من بطولات الصحابة وتضحياتهم ـ فلا محل له ، ولا اعتداد به ، فكل البطولات والتضحيات البشرية ـ على مدى التأريخ الإنسانى ـ إنما كانت بتوفيق الله ، وإمداده المعنوى والمادى وصدق الله العظيم إذ يقول :

- ﴿**وما النصر الا من عند الله**﴾ .
- ﴿**فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم**﴾ .
- ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾ .
- ﴿**ولو شاء الله لسلَّطهم عليكم فلقاتلوكم**﴾ .
- ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا**﴾ .
- ﴿**ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمَّت طائفة منهم أن يضلوك**﴾ .

والخطاب فى هذه الآية للرسول عليه الصلاة والسلام وهو من هو كمالَ إيمانٍ ، وعصمةً من الخطأ والضلال ، وصدق الشاعر المؤمن الحكيم إذ يقول :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

وحتى الاكتشافات العلمية ـ وهى نوع من البطولات العقلية ـ وكان آخرها الصعود إلى القمر .. إنما هى بتوفيق الله وإذنه .

والرسول عليه الصلاة والسلام ـ والأنبياء الذين سبقوه مثله ، وهو فى الذروة من طاقات الروح والعقل والجسد ـ محتاج إلى تأييد

الله بالملائكة تأييداً مادياً ومعنوياً ـ كما ثبت بالنصوص القرآنية فى حادثة الهجرة ، غزوة الأحزاب وغزوة بنى قريظة ، وفى عودته من الطائف حين جاءه مَلَكُ الجبال ليطبق الأخشبين على أعدائه من المشركين والكافرين إذا أراد .

ومع ذلك لم يقل أحد إن ذلك نَقَص أو قَلَّل من عظمة مواقفه البطولية عليه الصلاة والسلام فى كل من مجال سلمه وحربه ، بل إن كاتباً غربياً غير مسلم ـ مثل توماس كارليل ـ عده نموذجاً رائعاً للبطولة الانسانية بكل معانيها ومجالاتها فى كتابه : «الأبطال» .

وحسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ هل أضعف من قوة شعره وروعته : أن روح القدس ـ وهو جبريل عليه السلام ـ كان يؤيده ويلهمه فى دفاعه عن الاسلام ورسوله ؟ فقد رَوىَ الحاكم وابن مردويه : أن النبى ﷺ قال : من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال له حسان : أنا يا رسول الله ـ فقال النبى : قم فاهجهم وروح القدس معك» !

وإذن فالبطولات البشرية ـ على اختلاف أنواعها ومجالاتها ـ لا ينقص شيئاً منها : أن تَتَأَيَّد بإمداد الله لها معنوياً أو مادياً .

رأى الطبرى لا يتعرض لنوعية الإمداد :

أما ما نقله الدكتور الزحيلى عن تفسير الطبرى ـ جـ ٧ ص ١٨٠ ـ حول الإمداد بالملائكة فى بدر وأحد .. فهو لا يتصدَّى لنوعية الإمداد أكان مادياً أو معنوياً ، وآخر عبارة الطبرى : «فالصواب فيه من القول : أن يقال كما قال تعالى ذكره» أى بدون

تأويل ولا تحريف للكلام عن موضعه .

بل إن الملاحظ فى عبارة الطبرى : «غير أن فى القرآن دلالة على أنهم أُمِدُّوا يوم بدر بألفٍ من الملائكة ، وذلك قوله : ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجابً لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين**﴾[1] نقول ان الملاحظ فى كلام الطبرى هذا انه يثبت ـ الإمداد ـ مطلقاً دون تعيينه مادياً أو أدبياً فى غزوة بدر ، وهو حجة على واقعية الإمداد ، ولا حجة لأصحاب التأويل ـ نفاة الإمداد الفعلى ـ من كتاب ولا سنة ، ولا من عقل يحيل كون الإمداد فعلياً ، لأن الله على كل شىء قدير ، ولأن ظاهر النص القرآن يثبته فى الآية (١٢) من الأنفال : ﴿**إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبِّتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ـ فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان**﴾ .

ولا داعى ـ كما اسلفنا ـ لاعتبار الخطاب فى ـ إضربوا ـ موجَّها للمؤمنين . فالخطاب فى الآية كلها موجَّه إلى الملائكة كما هو واضحٌ مبين .كما يجب أن يلاحظ أن القرآن الكريم فى آية الأنفال السابقة وفى آيتين من سورة آل عمران يحدد عدد الملائكة بألف مرة وبثلاثة آلاف مرة ثانية وبخمسة آلاف مرة ثالثة .

بين رشيد رضا وسيد قطب :

لم ينقل الدكتور الزحيلى أن أيّاً من علماء السلف قال بعدم اشتراك الملائكة فعلاً فى القتال مع المؤمنين ، ويبدو أنه متأثر ـ فى رأيه ـ ببعض الإتجاهات الحديثة فى تفسير القرآن الكريم ، عن طريق التأويل لبعض الخوارق والمعجزات المادية إلى معان روحية ..

---

(١) سورة الانفال/٩ .

ونحن ننقل له تعقيب شهيد الإسلام الأستاذ سيد قطب ـ فى كتابه «فى ظلال القرآن» ـ على السيد رشيد رضا فى قوله : «إنه ثبت أن الملائكة لم تشترك فى المعركة يوم بدر الا بمخالطة أرواح المؤمنين وتثبيتهم» .

قال سيد قطب : «إن الملائكة اشتركت فى المعركة كما قال لهم سبحانه وتعالى : ﴿**فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان**﴾ وان كنا لا ندرى كيف تضرب الملائكة الأعناق وكل بنان ، ولكن جهلنا بالكيف لا يدعونا إلى تأويل هذا النص عن مدلوله الظاهر ، وهو ان هناك أمراً بالضرب من الله عز وجل إلى الملائكة ، وان الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ـ وليس كما قال المرحوم السيد رشيد رضا من أنه ثبت أن الملائكة لم تشترك فى المعركة يوم بدر الا بمخالطة أرواح المؤمنين وتثبيتهم ، فهذا مخالف لظاهر النص ، والنص أولى بالاتباع» .

وقد أطال الأستاذ سيد رحمه الله فى تخطئة مدرسة الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا التى تذهب إلى تأويل أكثر غيبيّات القرآن الكريم ، وربطها بأسباب غير مادية ، وتفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملامسة لأرواح المؤمنين ، وتفسير فعل الشيطان بأنه ملابسة لأرواح المشركين ، ومثاله تأويل ـ الطير الأبابيل ـ بأنها : ميكروبات الجدرى ـ واعتبر الأستاذ سيد هذا كله مبالغة فى تأويل النصوص المتعلقة بأمور غيبية ، حيث لا ضرورة لهذا التأويل ، وليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها الخ ...

وأضيف على تعقيب الأستاذ سيد قطب سؤالاً استنكارياً : من أين للسيد رشيد رضا رحمه الله وعفا عنه الحجة فى قوله : «انه ثبت أن الملائكة لم تشترك فى المعركة» وأين هذا الثبوت ؟ مع ما قدمناه من نصوص قرآنية ومن الحديث النبوى وآثار الصحابة تثبت العكس ؟ !

على أن الامداد بالملائكة وبجنود الله مطلقاً للمجاهدين فى سبيله على مر الأيام والعصور قد يثبت الآن فى وقتنا الحاضر بما سجله المشاهدون للمعارك القائمة بين المجاهدين الأفغان وبين القوات الروسية .. وانتصار المجاهدين الأفغان على قلة عددهم وضعف سلاحهم على قوات روسيا و اسلحتها الحديثة .

□ □ □

وبعد .. فهذا ما يسَّره الله ووفق إليه من التعقيب على موضوع الإمداد بالملائكة ، مع احترامى للدكتور الزحيلى واجلالى لعلمه ورأيه وفضله .

نقد كتاب :
(الفن القصصى فى القرآن)

هذا الكتاب (الفن القصصى فى القرآن) هو رسالة تقدَّم بها الأستاذ محمد أحمد خلف الله إلى الجامعة المصرية سنة ١٣٦٦هـ لنيل شهادة الدكتوراة ، ولكنها رفضت من الجامعة ، وكان استاذه الشيخ أمين الخولى هو المشرف على الرسالة : اختياراً وتوجيهاً ودفاعاً عنها .

ومما قاله الأستاذ الخولى ـ فى تقديم الرسالة ـ إن عرض القرآن لأحداث الماضين ووقائع حياتهم ، والحديث عن تلك الوقائع والأحداث : هو عرض فنّى ، وليس عرضاً تأريخياً ، وعلى هذا الأساس يستطيع المثقف الراقى حين يتدين أن يعتقد فى تسليم مطمئن بحديث القرآن الفنى فى قصصه ، ومع ذلك يحق له أن يحلِّل فى عمق ووضوح تأريخ تلك الأحداث وأشخاص أصحابها ، وينفى من ذلك ويثبت مطمئناً إلى أن ذلك لا يصادم العرض الفنى الآخر ، وإن هذا العرض الفنى مهما يقل التأريخ فى أحداثه لن يمس سلامة القرآن وصدقه !

هذا هو رأى الأستاذ المشرف : «الخولى» .

وجاء الكتاب كله من أوله إلى آخره مؤيداً ومدللاً عليه بقلم

تلميذه الأستاذ خلف .. فخلاصة مذهبه الذى ذهب إليه عن القصص القرآنى : أنه يجب أن يفهم ويدرس على أساس أدبى بلاغى ، لأن الفهم التأريخى أنتج مشكلات وقف عندها المفسرون ، كما أصبح مجال اعتراض هاجمه منه المستشرقون .. بينما يستبعد الفهم الأدبى هذه المشاكل كلها ، وهو يتناسب مع غاية القرآن من الدعوة إلى الاسلام ، ومن التوجيهات الدينية والخلقية ! !

وقد عارض كل من الدكتور أحمد الشايب والأستاذ أحمد أمين هذه الرسالة قبل أن تصدر فى كتاب ، وأصر الشيخ الخولى على صوابها وسلامتها من كل عيب . وعندما اشتدت معارضتها من داخل الجامعة وخارجها[1] كتب الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية : (بأن هذه الرسالة رفضتها لجنة الفحص ، وقد عرَّفت اللجنة المؤلف خطأه ، وقد جاز رأى المؤلف عن القصد ، وحاد به اجتهاده عن الصواب ، وأرى أن الأمر لا يعدو أن يكون غلطة تلميذ اجتهد فُردَّ عليه رأيه ، ولم يؤذن له أن ينشر هذا الرأى أو يتقدم به إلى الامتحان) ومع ذلك صدرت الرسالة فى كتاب ، وهذا يعنى إصرار المؤلف وتأييد استاذه ـ أمين الخولى ـ له على نشرها بين الناس !

وللأستاذ محمد سعيد الكيلانى رأى فى الأستاذ وتلميذه .. ننقله عن تذييل لكتاب «الملل والنحل ـ للشهرستانى» كتبه تحت

---

(١) عارضها علماء الأزهر أيضاً كما يذكر ذلك الشيخ على الطنطاوى فى مذكراته التى نشرها فى جريدة « الشرق الأوسط » سنة ١٤٠٦هـ .

عنوان (بين الكفر والإيمان) يقول فيه :

«وظل أمر الأستاذ الخولى مستوراً أثناء تدريسه فى كلية الآداب بالجامعة المصرية لا يدرى أحد فى خارج الكلية ما يلقنه لتلاميذه من أنواع الضلال .. حتى كانت سنة ١٩٤٧م حيث تقدم أحد تلامذته «محمد أحمد خلف الله» برسالة عن القصص الفنى فى القرآن لنيل الدكتوراة ، وكان أمين الخولى هو المشرف على هذه الرسالة ، والمرجع للطالب فيما كتبه .. وقد رفضت الرسالة ، فرفع الطالب الأمر إلى وزير المعارف الذى أحالها إلى الشيخ محمود شلتوت ـ عضو جماعة كبار العلماء للنظر فيها وابداء الرأى فقدم الشيخ شلتوت تقريراً عنها جاء فيه قوله : «ولا ريب أن الأسس التى بنى عليها الكاتب بحثه أسس فاسدة ، فما كان القرآن يخضع فيما قصه من الأنباء لما زعموه من تأريخ ، ويناقض أو يخالف الحقيقة .. وأن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخَلْط والخَبْط ، فقد اقتحمت قدسيته ، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه ، وزلزلت قضاياه ، فى كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار ، ثم ختم الشيخ شلتوت تقريره بقوله : هذا هو الرأى فيما تجرأ به مؤلف هذه الرسالة على كتاب الله عز وجل ، وانه لشر مستطير من شأنه أن يفتح أبواباً من الفتن إذا مكّن لها اجتاحت الدين والعقيدة والقرآن .. وهى الحالقة» .

□ □ □

هذا تقديم موجز عن الرسالة وواضعها والمشرف عليها .. نكتفى به ، ونبدأ الآن فى عرض وجهات نظر المؤلف والرد عليها .. والله

هو الموفق والمستعان :

من أعجب الدعاوى ... وأكذب الحديث : أن يَجْرأ أمروء ما على ثوب ليس له فيخلعه على نفسه ، أو على صبغة ليست لعمله فيدعيها له ، أو على وصف يناقض خُلُقه فيسبغه عليه ؟ .

ولئن كانت هذه الفعلة ترتكب فيما دون كتاب الله الكريم الحكيم وآياته الجلائل ، فتعد معيبة ذميمة ، فهى بالنسبة إلى «القرآن» الخالد الماجد ، وآياته الرفيعة المنيعة أعيب وأذم ..

لقد استهل مؤلف «الفن القصصى فى القرآن» غلاف الكتاب الأول بهذه الآية (**هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى**) وليس أبعد من كتاب صاحبنا عن البصيرة والرشد .. ولا أبعد منه عن الحق والصدق .. ولا أبعد منه عن الدعوة إلى الله سبحانه .. الذى يقول الحق وهو يهدى السبيل .

أما موضوع الكتاب فهو فنية القصص القرآنى .. وأما مهمة المؤلف .. فهى زعمه الجهيد العنيد أن قصص القرآن ـ وهو كلام الله سبحانه ـ يستوى هو وما كتبه ويكتبه القُصَّاص والرواة فيما يجوز عليه من خيال وشعر وفن ، وأباطيل وأساطير ، ومجاراة المخاطبين ، ومجاملة مشاعرهم ، وموافقة معارفهم .. وقد وضع المؤلف قصص القرآن وقصص بنى الانسان فى ميزان واحد ، واخضعها معاً لأحكام واحدة ! !

وأما أسانيده وأدلته فى دعواه فنِّية القصص القرآنى .. ففهمٌ خاطىء ، ونقل غير أمين ، وعذر أقبح من جريرة ! .. لقد فهم الأستاذ محمد أحمد خلف الله بعض قصص القرآن فهماً لا بينة له

فيه . ونقل عن بعض المفسرين القدامى والمحدثين آراء وشُبَهاً حملّها ما لم تحمل من مقاصد ، واعتذر عن ارتكابه إثم دعواه فنية القصص القرآنى بأنه إنما يفعل ذلك إنقاذاً للقرآن من اتهام كتاب الفرنجة ومؤرِّخى التوراة لأخبار القرآن بتناقضها مع أخبار كتبهم المقدسة ـ بزعمهم ـ !

□ □ □

يقول المؤلف فى مقدمة الكتاب رداً على من احتج عليه بقول الله تبارك وتعالى : ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾ وقوله أيضاً : ﴿**نحن نقص عليك نبأهم بالحق**﴾ : إن هذه المسألة التفت إليها المفسرون لأنها جاءت مع الأمثال فى قوله تبارك وتعالى : ﴿**إن الله لا يستحى ان يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ..**﴾ والأمثال لا يلزم أن تكون من الحقائق الثابتة فقد تكون من المتخيلّات ومن الأساطير والأوهام» .

واستند المؤلف على تفسير المنار (ج/١ ص/٢٣٦ ـ ٢٣٧) فروى عنه كلاماً فى «المثل» وأنه الشبَهُ والشبيه .. وانه حق لأنه مبين للحق ومقرر له ، وسائق للأخذ به لما له من التأثير فى النفس الخ . ثم قال : وهذا الذى يقال فى المثل يقال فى القصة ، وقد صرح القرآن فى كثير من المواطن بأن أخبار الأنبياء والمرسلين لم ترد فيه الا على أساس أنها من الأمثال فالقرآن جرى فى أقاصيصه على أساس أن القصة إنما توصف بالحق لأنها تشرح الحق وتقرره لا لأنها فى ذاتها حقيقة ثابتة ، وليس أدل على هذا من قصة أصحاب الكهف التى قصها القرآن وقال عنها : ﴿**نحن نقص عليك نبأهم بالحق**﴾ إذ

الذى نطمئن إليه وقال به بعض المفسرين : أن القرآن الكريم لم يذكر فى هذه القصة الحقيقة التأريخية ، وإنما ذكر ما كان يعرفه أهل الكتاب عن عدد الفتية وعدد السنين»

ثم حاول المؤلف أن يبحث عن حجة له ، أو أن يفتعل حجةً .. فقال إن قصة أصحاب الكهف جاءت ردّاً على سؤال بعض المشركين للنبى عليه الصلاة والسلام بايعاز من اليهود ، واختباراً لصحة نبوته : وكان طبيعياً أن تجىء إجابة القرآن موافقةً لما يعرفه اليهود ، وذكروه للمشركين ، غير قاصدة الحقيقة القصصيّة» !

واخيراً اعتمد على تفسير الراغب الأصفهانى والقاضى عبدالجبار لمعنى كلمة (الحق) وأنه يراد بها الفعل أو العمل الذى يجىء على مقتضى الحكمة ، أو ما يجىء للإنذار والتخويف كقصة المباهلة .. فيوصف بالحق الخ ...

الأمثال فى القرآن :

وهنا نقف بعض الوقت لنردَّ على المؤلف فى فهمه عن «المثل» فى القرآن ..

لقد فاته أن يدرك أن المثل فى القرآن قسمان : الأول ضربه القرآن على سبيل التأثير فى فهم القارىء ، وإيضاح المقاصد له ، وهذا القسم لا يلزم منه بطبيعة الحال أن يكون قد وقع فعلاً أو سيقع مستقبلاً ، على أن عدم وقوعه لا يعنى أنه غير حق أو غير صدق من حيث معناه ومغزاه .. ومن ذلك هذه الآيات :

□ **﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا**

رزقا حسنا ، فهو ينفق منه سرا وجهراً .. هل يستوون !﴾[1] ، وقد ضُرِب مثلاً للحرية والعبودية المعنويتين .. فهنا قيود الجهل والوثنية والشهوات ، وهناك انطلاقات التوحيد والمعرفة والأخلاق الفاضلة ، تنفع وتنتفع .

□ **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ، ورجلاً سَلَماً لرجل هل يستويان مثلاً ؟﴾**[2] ، وقد ضربه الله للفرق بين من يعبد آلهة عدة ، ومن يعبد الله وحده ..

□ **﴿يآ أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾**[3] ، وقد ضُرِب لتأكيد عجز الآلهة التى يتخذها المشركون من الحجر أو الشجر أو المدر ، عن حماية نفسها من إيذاء الذباب لها ، أو سلبه شيئاً مما كانوا يعلِّقونه عليها من هدايا ، ويقرِّبونه بين يديها من قرابين اللحم والحلوى ، فهى إذن أعجز من أن تخلق هذا الذباب !

أما القسم الثانى من أمثال القرآن فهو قصص وقعت ، وأخبار حدثت ، وهى صدق وحق ـ كقوله تبارك وتعالى : **﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾** .. إلى آخر القصة المروية فى سورة الكهف . وقوله عز وجل : **﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾** .. إلى آخر القصة المروية فى سورة يس . وقوله : **﴿وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم**

---

(١) سورة النحل/٧٥ .
(٢) سورة الزمر/٢٩ .
(٣) سورة الحج/٧٣ .

كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ فى سورة إبراهيم .

وهكذا يتضح أن المؤلف خلط بين معانى الأمثال القرآنية ومقاصدها ، وزعم أن الأمثال كالقصص فى القرآن ، وأن كلتيْهما لا تعنى أنها حوادث وقعت فعلاً ، وانها تحتمل ما يحتمله القصص البشرى من خيالات واوهام ، وشعر وفن ، وان الغاية من ورودها فى القرآن هو العظة والعبرة ، دون أن يكون لها واقع وتأريخ ..

ونحن نعجب كيف يلغى المؤلف عقله إلى حدٍ يفوته فيه أن العظة أو العبرة تتبع القصة التى تتضمنها ، وأنه لا عبرة حقة فى قصة مفتراة ؟! .

□ □ □

القصص القرآنى : تأريخ وعبرة :

وفى ص/٢٢ وما بعدها يقول المؤلف : «إن المسلمين حرصوا كل الحرص على فهم القصص القرآنى على أساس من التأريخ ـ ومن هنا رأيناهم يعمدون إلى الثقافة التأريخية وإلى الاسرائيليات وإلى الفروض النظرية لعل ذلك كله أو بعضه يزيل عن القصص القرآنى ما به من غموض وإبهام تأريخى من حيث الزمان والأشخاص .. ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس ، وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبى أو البيان البلاغى لأغلقوا هذا الباب التى جاءت منه الريح ، ولسدوا على المشركين والمبشرين السبيل ، وحالوا بينهم وبين الطعن فى النبى ﷺ وفى القرآن» .

وأضاف فى ص/٥١ وما بعدها : «أن المعانى التأريخية ليست

ديناً يُتَّبع .. وليست هى مما حماه القرآن مادام لم يقصدها .. ومن حق العقل البشرى أن يهمل هذه المعانى التأريخية أو يخالفها أو ينكرها» .

أما مستنداته فى ذلك من منقولة ومفهومة من آراء الأولين والآخرين ... فهى :

□ **أولاً** : ما ذهب إليه صاحب تفسير المنار من أن ما روته قصة هاروت وماروت فى سورة البقرة عن السحر ، وعن زعم من زعم كفر النبى سليمان عليه السلام .. لا يلزم أن يكون ذلك صحيحاً ، وما قاله الشيخ محمد عبده من أن القصص القرآنى جاء للموعظة والعبرة لا لبيان التأريخ ، لأن القرآن يحكى من عقائد الغابرين وعاداتهم الحق والباطل ، والصادق والكاذب والنافع والضار ! !

□ **ثانياً** : ماقاله الرازى فى تفسيره والنيسابورى على هامش الطبرى من أن المشركين حينما زعموا أن قصص القرآن هى اساطير الأولين لم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية ، وإنما الغرض بيان قدرة الله على التصرف فى هذا العالم ونقل الأمم من العز إلى الذل !

وأخيراً يرى المؤلف أَنه قد حل .. (المشكلة الخالدة القائمة على أساس أن بالقصص القرآنى أخطاء تأريخية) بدعوته للناس إلى أن يفهموا حقيقة الصلة والعلاقة بين الأدب والتأريخ ، وما يصنعه الأول حين يستغل الثانى فى أداء رسالته فى هذه الحياة . وهو يعنى أن القرآن فى سبيل البلاغة الأدبية والفن القصصى لم يلتزم الصدق والحق فى رواية أخباره ، وإنما قصد إلى التأثير البلاغى وما يقتضيه

من شعر وخيال وأوهام !

ومن هنا نبدأ الرد على سوء فهم المؤلف ، ومصدر خطئه .. فهو يريد أن ينهج بكلام الله منهج كلام الناس ، فيتحدث عما بين الأدب والتأريخ من علاقات استغلالية على حساب الحق والصدق ، ويضيف إلى ذلك أن المسألة مسألة خَلْق فني غير مقيَّد بحقائق ولا وثائق ، ويضرب لذلك مثلاً شكسبير ، وبرناردشو ، وشوقي .. وتصرفهم في التأريخ عند وضعهم القصص الروائية المعروفة باسمائهم ، وعدم التزامهم الصدق والدقة ، وخلْقهم شخوصاً من العدم ، وإنطاقها بما شاؤوا من أقوال ، وذكرهم أحداثاً لم تقع ، وكذلك القرآن فعل !

كبرت كلمة تخرج من فم رجل لم يفقه كلام الله ولم يتله حق تلاوته ، ولم يتدبره حق تدبره : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها**﴾ ؟

إن ما قصده المفسرون القدامى والمحدثون من قولهم : إن القصص القرآني جاء للاعتبار والتوجيه الديني ، واستنباط الحقيقة الدينية منه ، هو الا يلتفت المسلمون عن هذه الغاية السامية إلى البحث عن تفاصيل هذه القصص كلون كلب أهل الكهف وعددهم ، وأوصاف ذي القرنين ، وأسماء بعض الشخصيات التي لم يذكرها القرآن ، والأزمنة والأمكنة التي حدثت فيها هذه الأحداث .. مما اختلفت فيه آراء المفسرين والمؤرخين . ولكنهم لم يقصدوا أن الحقائق التأريخية للقصص القرآني قابلة للنقد وللخلاف وللإنكار كما زعم المؤلف الجريء ..

وكذلك ما رواه القرآن من معتقدات الغابرين وأخلاقهم وشرائعهم لا يعنى كونه صحيحاً أو باطلاً ، وسليماً أو زائفاً : أنه لم يقع تأريخياً ، أو أن القرآن رواه متزيداً فيه ، أو منتقصاً منه ؛ كما زعم المؤلف الجرئ ..

إن القرآن ينقل لقرائه مزاعم المشركين فى المشيئة فى قولهم : ﴿**لو شاء الله ما أشركنا**﴾ الآية ـ وفيما جعلوه من أنعامهم وحرثهم نصيباً لله ـ سبحانه ـ ونصيباً لشركائهم ، وما جعلوه حلالاً منها لذكورهم وحراماً على إناثهم .. وينقل كذلك مزاعم المبطلين فى فعلهم الفاحشة ، بان الله ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ «أمرهم بها» فهل يصح اعتبار كون هذه المزاعم غير صحيحة اعتقاداً وغير مشروعة عملاً : دليلاً على كونها غير صحيحة من حيث الوقوع التأريخى ؟!

ألا يقع اليوم .. بين أيدينا وعلى مرأى ومسمع منا .. وقائع وأحداث يرفضها العقل الراشد ، وتأباها الشريعة العادلة ، وتمقتها الطبيعة الفاضلة ؟ .

واذن فلا دلالة بذلك على كون قصص القرآن جميعه لا يراد به الواقع التأريخى ، ماضيًا ومستقبلاً ، كما يزعم المؤلف الجرئ .

وقد فاته أن يدرك الفرق الفارق بين ما يرويه القرآن من مزاعم المشركين والمبطلين ، ويفضحها ويرد عليها ، ويعظ المسلمين بها ، وبين ما يقصُّه هو من عنده من قصص الأنبياء والصالحين وما ينبىء بحدوثه مستقبلاً من عبر وعقوبات .

وإن تعجب فعجب أن يكون المبطلون المشركون فى عهد نبى

الاسلام صلوات الله وسلامه عليه قد اتهموه بأنه مفتر للقرآن الذى هو فى نظرهم إفك وسحر وشعر وأساطير.. ويأتى صاحبنا هذا فى القرن الرابع عشر لظهور رسالة الاسلام ، وثبوت صدق كتابها الماجد الخالد ، فيزعم أن فى القرآن خيالات وأوهاماً ومخالفات للحق والواقع والتأريخ .. وان الله ـ سبحانه ـ هو الذى اختار ذلك على أساس بلاغى ، مسايرة لتطورات البيئة ومعارفها الظنية من التأريخ !

أليس هذا عجباً؟ بلى ... وإلى القارىء ما هو أعجب وأكذب :

العقل الاسلامى المتهم البرىء :

لقد كرر المؤلف فى كثير من صفحات كتابه اتهام «العقل الاسلامى» بكل عوراء منكرة ، فى محاولته فهم القصص القرآنى ، وفى تعليل بعض القضايا الدينية واللغوية منه ، فقال مرةً : (حاول العقل الاسلامى أن يجيب على هذه الأسئلة فلم يهتد .. الخ ـ وقال أخرى : ولو أن العقل الاسلامى أقام فهمه للقصص القرآنى على أساسٍ فنى .. الخ . وقال أيضاً : وخُيِّل للعقل الاسلامى الخ ـ وقال : عجز العقل الاسلامى عن فهم الصلة بين هذه الأوثان وبين نوح الخ ـ وقال أخيراً : هذه الوقفات الطويلة وهذا التفكير المستمر جعل العقل الاسلامى يقرر أخيراً : أن التأريخ ليس من مقاصد القرآن ، وأن التمسك به خطر أى خطر على القرآن ونبى القرآن ، بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن .. كما كفروا بالتوراة من قبل)

مسكين هذا «العقل الاسلامى» الذى اتهمه المؤلف فى ماضيه بالعجز والجمود عن الفهم الصحيح للقصص القرآنى .. واتهمه فى حاضره بالتحرر فى فهم هذا القصص بحيث لا يتمسك بواقعية الأحداث المصورة فيه ، وبحيث يرهب خطر هذا التمسك الذى قد يؤدى إلى الكفر بالقرآن كما كفر بعض الناس بالتوراة ..

يا له من عقل مظلوم .. بل عقل لا وجود له إلا أن يكون عقل المؤلف وحده ، وعقل المشرف على رسالته ، والمؤيِّد له فى كل ما ذهب إليه فيها من أباطيل ! !

إن العقل الاسلامى الصحيح يدرك أن القرآن كلام الله ، وكله من ألفه إلى يائه : حق وصدق وعدل ، من حيث قصصه وأخباره ، ومن حيث أحكامه وآدابه ، والعقل الاسلامى الصحيح يدرك أيضاً أن ما أتى به القرآن من اشارات علمية ، وقصص تأريخية ، وقواعد تشريعية هى المثل الأعلى ، وهى الحجة الثابتة ، وهى التجربة الواقعة .. على مر العصور والدهور .. لا خيال فيها ولا تجميل ولا مجاملة .

ولكن المؤلف الذى يزعم أنه يدعو إلى الله على بصيرة ، يرمى «العقل الاسلامى» بدائه وينسل ، ويتهمه بذنبه ويتبرَّأ ..

فى القرآن : إعجاز تأريخى !

وقال المؤلف فى ص/٤٨ : «التحدى إنما يقوم على قوة التأثير وسحر البيان .. ومن هنا لا نستطيع أن نعد الأخبار التى جاءت فى القصص القرآنى إحدى المعجزات» واتكأ المؤلف على غير متكأ فى

قولٍ للإمام الرازى عن فصاحة اللفظ القرآنى كلون من ألوان اعجازه البلاغى . ولم يتعرض الرازى لإعجاز القرآن التأريخى بنفى أو إنكار .. وختم المؤلف كلامه بقوله : (ولعله من هنا كان القرآن يتحدى العرب بالسور المفتريات) !

ولعل المؤلف يعنى أن القرآن لم يتحدَّ العرب برواية الأخبار الماضية ، ومن هنا علم أو فهم ـ ويا بئس ذلك من علم أو فهم ـ أن أخبار القرآن ليست معجزة ، وهى ـ فى زعمه ـ غير واقعية ، ولا تحتوى حقائق ولا وثائق من التأريخ القديم للغابرين ..

إن الرازى كما أسلفنا لم ينف عن القصص القرآنى إعجازه التأريخى .. والمؤلف يحشر فى ثنايا مزاعمه البواطل آراء ومذاهب لبعض المفسرين القدامى ، ليوهم القراء أنه يعتمد على آراء قديمة حكيمة لأئمة التفسير ..

ولو سلمنا ـ جدلاً ـ أن الرازى أو أكثر من الرازى نفى عن القرآن اعجازه التأريخى فما نحن له بمذعنين .. فالقرآن نفسه يقرر إعجازه التأريخى بأسلوب قطعى لا مجال فيه للشبهة أو الظن أو الاجتهاد .. يقرره حين يقص على نبى الاسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ قصص الأمم الغابرة ، وقصص إخوانه الأنبياء السابقين ، ثم يختم هذه القصص بالمنّ عليه بأنه لو لا إخبار القرآن له بها ما كان يعلمها قاصداً بذلك أنه الوحى الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقاصداً فى الوقت نفسه : تقرير الإعجاز بهذا العلم التأريخى .. الذى سمّاه المبطلون «أساطير الأولين» وجاراهم المؤلف على زعمهم ، فقال ماقالوه عن قصص

القرآن ..

ولنستمع الآن إلى تقرير الإعجاز التأريخى فى بعض نصوص القرآن :

□ **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾** [١]

□ **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ..﴾** [٢]

□ **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك .. وما كنت لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾** [٣]

□ **﴿وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين﴾** [٤]

□ **﴿وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾** [٥]

□ **﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾** [٦]

دعوى الحرية الفنية فى القرآن :

وحاول المؤلف فى ص (٥٩) وما بعدها أن يفتعل الأدلة على زعمه وجود «الحرية الفنية» فى قصص القرآن .. فى قصة لوط

(١) سورة آل عمران/٤٤ .
(٢) سورة هود/٤٩ .
(٣) سورة يوسف/١٠٢ .
(٤) سورة القصص/٤٤ .
(٥) سورة القصص/٤٥ .
(٦) سورة القصص/٤٦ .

وورودها مختلفة الأسلوب فى عدة مواضع من القرآن ، وفى إسناد القرآن بعض الأحداث أو الأقوال لشخص فى موضع ثم إسنادها لشخص آخر فى موضع غير الأول .. كصدور اتهام موسى بأنه ساحر عليم من فرعون مرة ومن ملئه أخرى ـ وكذلك بشرى الملائكة بالغلام لإبراهيم تارةً ولسارة تارة ـ كما حاول أن يدلل على دعواه «الاختلاف الفنى» فى القصة القرآنية باختلاف التعابير فى قصة موسى إذ جاء فى موطن : «فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة» وفى موطن آخر : «فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها» وفى ثالث : «فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك» .

كذلك عد المؤلف الترادف اللفظى فى القرآن من دلائل «الحرية الفنية» فى قصصه كقوله تعالى : ﴿**فإنفجرت منه اثنتا عشرة عينا**﴾ وقوله فى آية أخرى : ﴿**فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً**﴾ .. وأخيراً اعتمد المؤلف فى مذهبه إلى القول بالاختلاف الفنى فى قصص القرآن ، على ما خيل إليه من إنطاق القرآن لبعض أشخاص قصصه بما لم يقولوه كما جاء فى سورة النساء : ﴿**وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله**﴾ فاليهود ـ كما يقول المؤلف «ينكرون رسالة عيسى ، ومن أجل ذلك قتلوه فكيف يُقرِّون بأنه رسول الله ؟ واذن ـ كما يزعم المؤلف ـ فالدلالة على وجود الحرية الفنية التى يمنحها الأدباء البشر لأنفسهم ، فى قصص القرآن : قوية واضحة» ..

هذا هو مبلغ علمه وفهمه وحكمه .. عن القرآن ككتابٍ عربى

مبين ، وهو علم وفهم وحكم .. عن اللغة العربية ، وبلاغتها وآدابها عامة ، فهل أعجب من كلام كهذا الكلام ؟ .

لو كان الأمر ـ فيما ذهب إليه المؤلف ـ مسألة وجود حرية أدبية فى قصص القرآن لهان استنباط ذلك بطريقته السليمة ، دون أن نحتقر عقلاً ، أو نهدم عقيدة .. ولكن المؤلف يتكلف فوق جهده ، ويصطنع بذلك الأدلة ليؤيد نظريته الباطلة القائلة بوجود أخطاء تأريخية وأساطير وأوهام فى قصص القرآن واخباره عن الغابرين .

ونحن لا نعرف عن النَقَدَةِ الثقاة القدامَى والمحدثين من يزعم أن اختلاف ترتيب جزئيات القصة الواحدة فى عدة مواضع ، يعنى الحرية والانطلاق من تحرى الصدق وتدوين الواقع ـ كما زعم المؤلف ذلك فى قصة لوط ..

ولا نعلم مانعاً عقلياً ولا تأريخياً من أن يكون فرعون وملؤه قد تبادلوا القول عن موسى عليه السلام بأنه ساحر عليم .. أو ردده الملأ بعد فرعون مجاملة ونفاقاً ، كما تفعل بطانة السادة والرؤساء اليوم ، وقبل اليوم وإلى الأبد ..

ولا نعلم أيضاً مانعاً عقلياً أو تأريخياً من أن تكون الملائكة قد بشَّرت باسحاق إبراهيم عليه السلام وامرأته معاً أو أحدهما بعد الآخر .. ثم جاء القرآن يذكر بشراهم لإبراهيم فى سورة منه ، وبشراهم لسارة فى سورة أخرى ..

ولا نعلم أخيراً بأى مقياس نقدى ، أو ميزان بلاغى ، يحكم المؤلف بأن المترادفات اللفظية ، أو الإجمال فى مقام والتفصيل فى مقام آخر ـ فى القصة الانسانية بله القصة القرآنية ـ يعنى

«الاختلاف الفنى» أو عدم تحرى الصدق وتدوين الواقع .

لم نسمع بذلك كله فى المذاهب النقدية قديمها وحديثها على سواء .. ولكن المؤلف يرينا العجب من علمه وفهمه وحكمه ، ثم يرينا العجب العجاب من أدبه وسلوكه إذ يضع كلام الانسان فيما يقص أو يروى ، وكلام الرحمن ـ وكله صدق وعدل ـ فى ميزان واحد !

أما ما خيل للمؤلف من أن القرآن أنطق بعض أشخاص قصصه بما لم يقولوه ، واستدلاله بهذا الخيال ، أو هذا الضلال على احتمال وجود الكذب فى اخبار القرآن ـ فنرده بأصل أدبى .. يعرفه نقاد الأدب وكتاب البلاغة ولا ينكرونه ، ويحملونه محمل الصدق ولا يكذبونه .. ذلك (الأصل البلاغى) هو تأكيد الذم بما يشبه المدح بقصد السخرية والتحدى ، ومن أمثلة ذلك فى القرآن نفسه : قوله تبارك وتعالى .. للكافر المترف المنعم فى الدنيا .. عندما يحاسبه ويعاقبه يوم القيامة : ﴿**ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾[1] وأين العزة والكرامة منه يومذاك ؟ إنما هو منتهى الإذلال له ، وغاية السخرية به ..

كذلك قول اليهود ـ من حكاية القرآن ـ عن عيسى عليه السلام : ﴿**إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله**﴾[2] إنهم يريدون بذلك إعلان سخريتهم بنبوة عيسى ، وتأكيد إنكارهم لرسالته ، فهم يقولون «رسول الله» تحدِّياً وتعدِّياً وفَرَحاً مكذوباً بما خيل إليهم إنه

---

(١) سورة الدخان/٤٩ .

(٢) سورة النساء/١٧٥ .

حجة لهم ، وهو استطاعتهم قتله ، مما ابطل ـ بزعمهم ـ دعوى رسالته ، إذ لو كان رسولاً لامتنع عليهم مسه بسوء ..

وشبيه بهذا قول فرعون ـ فى حكاية القرآن ـ عن موسى عليه السلام : ﴿**إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون**﴾[1] وهو ينكر رسالته ، ولكنه هنا يسخر ويستهزىء .

كذلك قول القرآن حكايةً عن مشركى مكة : ﴿**ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا**﴾[2] وهم لا يعرفون بأن رسالة محمد (هدى) ! ! وعلى العكس من ذلك تأكيد المدح بما يشبه الذم كقوله : (قل لا تسألون عما أجرمنا) من باب الاستهزاء وإرخاء العنان للخصوم .

أما الأمثلة من كتب الأدب والبلاغة ، وأقربها مقررات المدارس .. فالمفروض لا الواقع ـ أن المؤلف كان يعلمها فى أيام الدراسة ! على أن المؤلف هنا لا ينسى طريقته فى حشر أقوال بعض المفسرين فى أثناء مزاعمه ، فهو يروى رأياً للأئمة القدامى : الزمخشرى ، والرازى ، والنيسابورى ، وابى حيان ، فى تعليل ايراد عبارة «رسول الله» فى الآية القرآنية بأنها من كلام الله .. وأنه يجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم .. ومعنى هذا فى رأى المؤلف أنه عملية إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به ، وأنه يدل على أن القصص القرآنى عرض أدبىٌ فنىٌّ للأحداث والأقوال وليس عرضاً تاريخياً لها .

---

(١) سورة الشعراء/٢٧ .
(٢) سورة القصص/٥٧ .

لقد أوضحنا نهج القرآن ـ ككتاب عربى مبين ـ فيما أتخذه من أساليب بلاغية لا غبار على صحتها وفصاحتها ، وفيما يتفق مع قدسيته ككلام إلٓهى لا يجوز عليه ما يجوز على كلام الناس من تخييل وتهويل . .

زعمه أن فى القرآن أخطاء تأريخية :

واورد المؤلف فى ص (٦٤) وما بعدها قصة أصحاب الكهف ، وجعل منها دليلاً على وجود أخطاء تأريخية فى قصص القرآن ، فالقصة ـ بزعمه ـ ترددت فى ذكر العدد الحقيق للفتية بين ثلاثة وخمسة وسبعة ، وقالت بعد ذلك : «قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل» ، كما ترددت فى عدد ما لبثوا من سنين إذ جاء فى ختامها : «قل الله أعلم بما لبثوا» بعد قوله تعالى : ﴿**ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً**﴾ ، ثم قال المؤلف النابغة : إنما فعل القرآن ذلك ليطابق أقوال اليهود ، فلا يكذِّبوا محمداً فيما يوحى إليه . وحاول المؤلف كدأبه فى اختطاف أقوال المفسرين القدامى أن يؤيد فهمه وينصر زعمه بما رواه الامام الطبرى ـ رحمه الله ـ عن مدة لبث الفتية إذ قال : «فقال بعضهم ذلك خبر من الله ، ذكره عن أهل الكتاب ، ولو كان ذلك خبراً من الله عن قدر لبثهم فى الكهف لم يكن لقوله : ﴿**قل الله أعلم بما لبثوا**﴾ وجه مفهوم وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه .

□ □ □

وهكذا لا يكتفى المؤلف بأن يزعم وجود الأوهام والأساطير فى

القرآن فيضيف إلى ذلك أن القرآن يجارى أهل الكتاب فى معارفهم التأريخية التماساً لتصديقهم نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولو كانت هذه المعارف كواذب أو خواطىء ! ! .

ولو كانت هذه سبيل القرآن لآمن به اليهود والنصارى والمجوس من أول مرة .. ولكن سبيل القرآن كانت على العكس من ذلك .. كانت تواجههم بالحقائق والوثائق التى يعرفونها ، ولكنهم يخفونها إصراراً على الكفر بنبي القرآن ﷺ ، وحسداً لما أوتيه وقومه العرب من شرف ظهور الإسلام فيهم .

إن القرآن رسالة حق وصدق وعدل ـ جاءت لتطهِّر الكون والبشر من أرجاس الباطل والظلم والوثنية ، ولتصحِّح كثيراً من العقائد والمعارف الخاطئة السفهة ، والله سبحانه قبل ذلك وبعده ـ غنى عن العالمين ، من شاء منهم فليؤمن ومن شاء فليكفر ..

أما تفصيل الرد على المؤلف فهو كما يلى :

أولاً : لو كان القرآن يحابى أهل الكتاب ويداريهم طمعاً فى إسلامهم ـ كما زعم المؤلف ـ لفعل ذلك فى مواقف أحق بالمحاباة والمداراة من موقف أصحاب الكهف .

■ فقد زعموا أنهم أبناء الله واحبّاؤه ـ فرد عليهم القرآن : ﴿**بل أنتم بشر ممن خلق**﴾ .

■ وزعموا أن المسيح ابن الله ـ فكذَّبهم القرآن ، واتهموا موسى بتهمة نكراء ، فبرأه الله مما قالوا .[1]

---

(١) اتهموه بأنه آدر ـ أى كبير الخصيتين ـ وقد نزل فى ذلك قول الله عزوجل : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها**﴾ الاحزاب/٦٧ .

■ وزعموا أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ، فكذبهم القرآن ، لأن يعقوب هو أول من تسمَّى باسرائيل ، وهو حفيد إبراهيم ، ولأن اليهودى ينسب إلى يهودا رابع أبناء يعقوب !

■ وقالوا : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى ، فقال لهم القرآن : ﴿**هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ .

■ ثم زعموا أنهم قتلوا المسيح وصلبوه فردَّ عليهم القرآن : ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم**﴾ .

■ وعندما خبثت نياتهم فى تحية نبى الاسلام ومخاطبته فقالوا له : «السام عليكم» وقالوا له : «راعنا» فضح القرآن سرائرهم ! !

■ وزاد القرآن ، فوصفهم بأنهم أكَّالون للسحت ، سمَّاعون للكذب .. ثم دمغهم بوصمة الدهر ، وصمهم بتحريف التوراة والانجيل عن معانيهما ومقاصدهما ، بل وألفاظهما فى سبيل رضى الرؤساء ، وأخذ رشايا الأغنياء ! .

والقرآن بعد ذلك يقول بصراحة ناصعة : ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾[1] ويقول أيضاً : ﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آيةٍ ما تبعوا قبلتك**﴾[2]

واخيراً .. لو كان القرآن يجامل أحداً فى سبيل الإيمان به على حساب الحقائق التأريخية ـ لجامل المتعنتين من أهل الكتاب والمشركين الذين ارهقوا رسول الله عليه الصلاة والسلام بمقترحاتهم فى طلب المعجزات فنى قدرة الله العزيز متسع لتحققها . ! ! .

---

(١) سورة البقرة/١٢٠ .

(٢) سورة البقرة/١٤٥ .

ثانياً : يقف قارىء القرآن وهو يتلو فضائح أهل الكتاب فى تحريف كتبهم وإنحرافهم عن أحكامها وأخلاقها وأخبارها الصحيحة إلى نقائضها أمام تأكيد يقتل كل ريب ، وتقرير يمنع كل إلحاد .. تقرير إلّهى بأن القرآن جملة أنزل بعلم الله ، وتأكيد إلّهى بأن قصصه رويت بالحق ، ولنقف معْ قارئى القرآن هذه المواقف الرائعة التى تدع الجاهل عالماً ، والحائر راشداً ، والزائع عن عمد وعناد مبهوتاً بقوة الحجة ووضاحة البيان :

- ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾[1]
- ﴿**نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق**﴾[2] .
- ﴿**نحن نقص عليك نبأهم بالحق**﴾[3]
- ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**﴾[4]
- ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾[5]
- ﴿**ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم**﴾[6]

ومعنى قوله عز وجل : ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ أنه ليس فيما قصصنا على محمد فى القرآن باطل فيما كان قبله ، ولا فيما هو كائن بعده فى الدنيا والآخرة .[7]

---

(١) سورة آل عمران/٦٢ .
(٢) سورة القصص/٣٥ .
(٣) سورة الكهف/١٣ .
(٤) سورة الانعام/١١٥ .
(٥) سورة فصلت/٤٢ .
(٦) سورة الاعراف/٦٢ .
(٧) ابن جريج فى فهم القرآن ...

ثالثاً : إن تعقيب القرآن بقوله : ﴿**قل الله أعلم بما لبثوا**﴾ بعد قوله : ﴿**ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً**﴾ لا يعنى إبطال تحديد المعدود ، ولا يستلزم تأويل التحديد بأنه من قول اليهود .. وذلك من جهة أولى .. لأن سياق الآيات لا يساعد على هذا التأويل ، ولا يهيىء للقارىء مدخلاً إلى الزعم بأن : ﴿**ولبثوا فى كهفهم**﴾ الخ من مقول اليهود .

ومن جهة ثانية .. لأن آية ﴿**قل الله أعلم بما لبثوا**﴾ ومثيلاتها فى القرآن كآية : ﴿**قل ربى أعلم من جاء بالهدى من عنده**﴾ وآية : ﴿**قال ربى أعلم بما تعملون**﴾ وآية : ﴿**ربكم أعلم بما فى نفوسكم**﴾ وآية : ﴿**إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ وآية : ﴿**ان ربك هو أعلم بالمعتدين**﴾ .. إن هذه الآيات القرآنية لا تقتضى نسخ ما يسبقها من مقررات ، ولا هى تعنى نفى هذه المقررات أو حمل القارى على التردد فى الأخذ بها ، أو على الذهاب فى تأويلها كل مذهب كما فعل المؤلف وذلك «البعض» المجهول الذى نقل عنه الطبرى ..

إنفراد الله بالأعلمية المطلقة :

وإنما هى آيات بينات جاءت تعقيباً لتقرير انفراد الله سبحانه بالأعلمية اللا نهائية المطلقة ولحمل المخاطبين بالقرآن على التسليم بمقرراته ، والتأدب مع الله بالكف عن المجادلة والمماراة فيما يقدمه القرآن من أخبار وأحكام ووصايا ، وبالتجافى عن الغرور بعلومهم ومعارفهم .. فما أوتوا من العلم الا قليلا ، وفوق كل ذى علم عليم .

ولنأخذ ـ مثلاً ـ آية : ﴿**قل ربى أعلم من جاء بالهدى من عنده**﴾ ثم لنسأل المؤلف النابغة : هل تعنى التردد فى الإيمان بما سبقها من تقرير رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، بناء على أنه لو كان محمد جاء بالهدى فعلاً لم يكن لهذه الآية وجه مفهوم .. على حد فهم المؤلف وذلك «البعض» المجهول الذى نقل عنه الطبرى . ؟

وهل تعنى آية : ﴿**قال ربى أعلم بما تعملون**﴾ التردد فى الحكم على ما يأتيه قوم شعيب عليه السلام من باطلٍ وإثم بناء على أنهم لو كانوا على باطل وإثم لم يكن لهذه الآية وجه مفهوم .. على حد فهم المؤلف وذلك «البعض» المجهول الذى نقل عنه الطبرى ؟ .

ثم هل تعنى آية : ﴿**ربكم أعلم بما فى نفوسكم**﴾ التردد فى الأخذ بوصاية الله سبحانه ببرّ الوالدين اعتماداً على ما فى النفوس من حب لهما .. دون المعاملة الحسنة معهما .. بناء على أنه لو كانت الرعاية العملية والبرّ الفعلى واجبين لم يكن لهذه الآية وجه مفهوم .. على حد فهم المؤلف وذلك «البعض» المجهول الذى نقل عنه الطبرى ؟ .

واخيراً هل تعنى آية : ﴿**ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ التردد فى ما قرره القرآن قبلها : ﴿**وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله**﴾ وعدم التزام وصية الله بالا تطاع أهواء الناس .. ولو كانوا كثرة كاثرة بناء على أنه لو كانت آراء أكثرية الناس ضالة مضلة لم يكن لهذه الآية وجه مفهوم ، على حد فهم المؤلف ومن أخذ عنه ؟ .

لا .. أيها «الفهماء» إنما هى آيات بينات تأتى تعقيباً بقصد تقرير

انفراد الله بالأعلمية المطلقة اللا نهائية .. ولا تعنى بفهم من المفهوم إهمال الأخذ بما سبقها من أوامر ونواه ، ولا تعنى أيضاً التردد فى استيقان صدق ما سبقها من قصص وأخبار .

□ □ □

الجن عند العرب وفى حديث القرآن :

وفى ص (٦٦) وما بعدها يقول المؤلف : إن القرآن يجرى فى فنه البيانى على أساس ماكانت تعتقد العرب وتتخيَّل لا على ما هو الحقيقة العقلية ، ولا على ما هو الواقع العملى .. وهو يجرى على هذا المذهب حيث يتحدث عن الجن ، وعن عقيدة المشركين فيهم ، وأنهم كانوا يستمعون إلى السماء ليعرفوا أخبارها ، ثم يقومون بعد ذلك بالقاء هذه لأخبار على الكهنة .. الخ ..

وقد أورد المؤلف قولاً للامام الزمخشرى فى الكشاف .. عند كلامه على هذه الآية : ﴿**لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس**﴾إذ يقول الزمخشرى : لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان أى المصروع .. وتخبط الشيطان من زعمات العرب .. يزعمون أن الشيطان يخبط الانسان فيصرع ، فورد على ما كانوا يعتقدون ، والمس : الجنون ، ورجل ممسوس .. وهذه أيضاً من زعماتهم .. وان الجنى يمسه فيختلط عقله ، ورأيت لهم فى الجن قصصاً وعجائب وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات» .

وعندى أن كلا الكلامين ــ كلام خلف الله وكلام الزمخشرى ــ

عجيب ، وخطأ .. وارتجال ، بل هو من مزالق الفتنة والردة عن الاسلام .. إذ كيف يجرأ مؤمن مسلم على أن يظن بله أن يعتقد ـ أن الله سبحانه ـ يتحدث إلى الناس ويضرب لهم الأمثال على مقرراته الإلّهية من آداب وعقاب .. بالمزاعم الباطلة مجاملة لعقائدهم الضالة ؟ .

ومن أين للذاهبين إلى ذلك : الحجة العقلية والبرهان الواقعي ؟ من أين لهم الحجة العقلية أو البرهان الواقعي على أن خبط الشيطان للإنسان عقيدة جاهلية باطلة ، أو خرافة لا أساس لوجودها ؟

إن الحجة العقلية والبرهان الواقعي معاً ، يقومان بين أعينهم ، وعلى مسمع منهم قبل أن ينزل القرآن .. وبعدما نزل إلى اليوم .. وإلى أن تقوم الساعة ، ويشهدان بحقيقة وجود الجن والشياطين ، وبحقيقة صلة الجن ـ والشياطين هم كفّارهم وفسّاقهم ـ بالإنس صلة إيحاء ، وصلة إيذاء .

وهذه قصص ومشاهد المصابين بِخَبْط الشياطين ومس الجن .. على مرأى ومسمع من المنكرين كل يوم .. بل هذا القرآن يزيد قيام هاتين الصلتين تأكيداً وتأييداً فيقول :

□ **﴿انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾** [1]

□ **﴿وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾** [2]

□ **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين﴾** [3]

---

(١) سورة الاعراف/٢٧ .

(٢) سورة الانعام/١٢١ .

(٣) سورة الزخرف/٣٦ .

□ ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ (١) .

□ ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ (٢)

□ ﴿وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا﴾ (٣)

□ ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبَّطه الشيطان من المس﴾ (٤)

وفى القرآن آيات كثيرة عن تسخير الشياطين لخدمة سليمان عليه السلام ، وتزيينهم للكفار أعمالهم وايقاعهم العداوة والبغضاء بين الأحياء ، وأن النجوم جعلت زينةً للسماء ورجوماً للشياطين حين يسترقون السمع ـ وآيات أخرى عديدة تحذرنا من كيدهم ونزغهم ووسوستهم .. الخ ..

ثم هذه الأحاديث والآثار تؤكد صلة الجن بالإنس :

ـ **(ما من بنى آدم مولود الا يمسُّه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً الا مريم وابنها)** (٥)

ـ **(إذا استجنح الليل فكفوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ .. واغلق بابك واذكر اسم الله ، واطفىء مصباحك واذكر الله ..)** (٦)

---

(١) سورة الانعام/١٢٨ .
(٢) سورة الانعام/١٠٠ .
(٣) سورة الجن/٦ .
(٤) سورة البقرة/٢٧٥ .
(٥) رواه الامام البخارى .
(٦) المصدر السابق .

- (وفى حديث مكحول : انه مر برجل نائم بعد العصر فركضه برجله .. وقال : إنها ساعة مخرجهم وفيها يكون الخبطة) .
- (وفى حديث المفقود الذى اختطفته الجن فى عهده عليه الصلاة والسلام قال «جاءنى طائر كأنه جمل فتعثّر فىّ» الخ ..

وقد علق الإمام الاسكندرى فى (الانتصاف) على كلام الزمخشرى بقوله : «هذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع .. وإنما القدرية خصماء العلانية ، فلا جرم أنهم ينكرون السحر ، وخبط الشيطان ومعظم أحوال الجن ، فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون» .

أما حديث المؤلف عن عقيدة المشركين فى «الجن» وفى استراقهم لأنباء السماء ، وزعمه أن القرآن تكلم عن هذه المسألة على أساس معتقدات العرب وتخيلاتهم ، لا على أساس الواقع والحقيقة ــ فهو خطأ وزلل ، بل هو أيضاً من مزالق الفتنة والردة عن الاسلام .

ذلك لأن القرآن تحدث فى مسألة استماع الجن إلى أخبار السماء بلسان الجن أنفسهم ، لا بلسان العرب ولا بالحكاية عنهم ..

ويبدو أن المؤلف لم يقرأ سورة الجن التى تقرعه بالحجة الدينية الساطعة ، والبرهان التأريخى الدامغ بأسلوب صريح ولهجةٍ حاسمة : **﴿قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن : فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدى إلى الرشد فآمنا به﴾ .**

ثم يمضى القرآن فى رواية ما قاله الجن ، إلى أن يأتى على قولهم : **﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً**

(١) للإمام ابن تيمية تفصيل وتأكيد لتلبس الجن بالإنس ، وصرعهم لهم فى الفتاوى جـ/١٩ ص/٣٥ وما بعدها .

رصَداً﴾ .

وفى سورة الشعراء حجة أخرى .. على الحقيقة التأريخية لاستراق الشياطين لأنباء السماء فهذه آياتٌ منها تقول : **﴿هل أنبئكم على من تنوَّلُ الشياطين ، تنزل على كل أفَّاك أثيم ، يلقون السمع واكثرهم كاذبون﴾** .

فهل يُنبىء القرآن عن خرافة وباطل ، أم يُنبىء عن حقيقة وتأريخ ؟ .

وفى سورة الأحقاف تقريرٌ قاطع لحقيقة وجود الجن : **﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى وَلَّواْ إلى قومهم منذرين﴾** .

ماذا بعد كلام القرآن عن حقيقة الجن ، واستماعهم إلى أنباء السماء الا باطل المؤلف وضلاله .. على أنه إن شاء مزيداً من الحق والهدى ، فأمامه وثائق الحديث النبوى ـ فى هذه المسألة ـ وأمامه أيضاً تأريخ الكهانة والكهان .

النسخ فى الأخبار : مستحيل وباطل :

نأتى بعد ذلك إلى جراءة أخرى من جراءات المؤلف ، بل إلى جهالة جديدة من جهالاته العديدة ، فهو يروى فى ص (٧٠) عن الامام الرازى بعض ما وجَّهه المبطلون من طعون وشبهات .. إلى ما ورد فى القرآن من جعل الله سبحانه الكواكب رجوماً للشياطين كقول بعضهم : لم لم يمنع الله الشياطين إبتداءً من الصعود إلى السماء حتى لا تحتاج فى دفعهم عنها إلى هذه الشهب ؟ وكقول

الآخرين : إن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم نقل أخبار السماء إلى الكهنة ، فلم لم ينقلوا أسرار المؤمنين إلى المشركين ؟ .

ثم يعقب المؤلِّف العبقرى على ذلك بقوله : «لو فطن الرازى من أول الأمر إلى أن القرآن إنما يحارب عقيدة الرجم بأسلوبه الخاص القائم على فكرة التدرج كالتدرج فى التشريع لتحريم الخمر وغيرها ، لما أتعب نفسه وغيره فى هذه الوقفات الطويلة ، ولقال : إن القرآن إنما يأخذ الناس بتصوراتهم ، وإنه فى هذا الموقف سلم بهذه العقيدة لا لأنها صدق وحق ، وإنما يريد أن يهدمها تدريجياً كما كان يفعل فى أمور التشريع .. الأمر الذى من أجله كان النسخ فى التشريع .

وقد زل المؤلف فيما رواه عن الامام الرازى ، وفيما استنبطه منه .. وفيما زعمه من عندياته ـ هذه الزلات الثلاث :

□ **الأولى** : أنه لم ينقل عن الرازى تعقيباته على مطاعن المبطلين وشبههم ، حول كون النجوم رجوماً للشياطين ..

□ **الثانية** : زعمه أن القرآن بما يقصه عن هذه الرجوم ، إنما يقصد عدم واقعيته ويرمى إلى محاربته ..

□ **الثالثة** : فهمه العجيب لقاعدة التدرج فى التشريع الإسلامى . وتعليله الأعجب لقيام النسخ فيه ، وخلطه بين النسخ فى التشريع ـ وهو ممكن وواقع ـ والنسخ فى الأخبار ـ وهو مستحيل وغير موجود فى القرآن ..

فأما مسألة الكواكب .. فالقرآن بأسلوب جازم حاسم يقرِّر أن الله سبحانه قد تَعلَّقت إرادته وحكمته فى خلقها بخصائص ثلاث الأولى : كونها مصابيح لهداية سراة الليل بالأرض ، والثانية :

كونها زينة للناظرين إلى السماء ، والثالثة : كونها رجومًا لِسَرَقَةِ الوحى من الجن والشياطين..

وليتدبَّر قارئ القرآن معى ما جاء فى الآيات التوالى : من كلمة «جعلناها» وكلمة «حفظناها» وما تعنيانه من تقرير حقيقة تكوين الكواكب بخصائصها الثلاث المذكورات آنفاً :

□ ﴿**ولقد زيَّنا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾ (١)

□ ﴿**إنا زيَّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد**﴾ (٢)

□ ﴿**وزيَّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً .. ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ (٣)

□ ﴿**ولقد جعلنا فى السماء بروجاً ، وزيَّناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين**﴾ (٤)

وأما كلامه عن قاعدة «التدرُّج فى التشريع الاسلامى .. وعن النسخ ، فقد كان دليلاً جديداً على ما يتمتع به من علم وفهم ، ذلك أن التدرُّج فى التشريع الاسلامى جاء ـ مثلاً ـ فى تحريم الخمر على النحو التالى :

أولاً : لفت القرآن نظر شاربها لفْتاً خفيفاً إلى أنها ليست من الرزق الحسن فقال : ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه**

---

(١) سورة الملك/٥ .
(٢) سورة الصافات/٧ .
(٣) سورة فصلت/١٢ .
(٤) سورة الحجر/١٦ ـ ١٨ .

سكراً ورزقاً حسنا﴾ .

ثانياً : تقدم القرآن خطوة أخرى فأشار إلى أن مآثمها أكبر من منافعها ، فقال عنها وعن الميسر : **﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾** ، ومنافع الخمر والميسر منافع مادية بحتة ، وهى أرباح المتاجرة بصناعة الخمر وبيعها ومكاسب الميسر مثلها ..

ثالثاً : جاءت خطوته الثالثة لتحريمها على القائمين إلى الصلاة ، فقال : **﴿لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾** .

رابعاً : أقدم القرآن أقدامه الأخير فى تحريم الخمر مطلقاً فقال : **﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾** .

فأين فى هذه الآيات ـ كمثال على قاعدة التدرج فى التشريع الاسلامى ـ ما يزعمه المؤلف النابغة من أن القرآن يأخذ الناس بعاداتهم ومعتقداتهم ، ويسلم بها أولاً ، ثم يأخذ فى هدمها مستعيناً بالزمن ؟ .

ثم أين وجه الشبه بين هذا المثال من قاعدة التدرج القرآنى فى التشريع وبين ما تخيله المؤلف من وجود قاعدة تدرج قرآنى فى رواية الأخبار وحكاية القصص عن الجن والشياطين وصلتهم بالإنس ، والنجوم وكونها رجوماً لمسترقى أنباء السماء ؟!

أما النسخ .. فلا يقع فى الأخبار[1] الا ما جاء منها بمعنى الطلب . ويقع النسخ فى الأمر والنهى ولو جاء بلفظ الخبر كنسخ

---

(١) يقول الحارث المحاسبى فى كتابه (فهم القرآن) : لا يجوز النسخ فى أخبار القرآن ولا فى أسماء الله وصفاته .. ومن قال بذلك فقد كفر .

آية النجوى ، ونسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة ، ونسخ حبس الزانى بالحد ، ونسخ النهى عن القتال فى الأشهر الحرم بآية : ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة**﴾ .

وإنما جاء النسخ فى هذه الأمور لإنها إنشائية : أمرٌ ونهْىٌ وإباحة .. على أن مسألة النسخ فى التشريع الإسلامى مثار اختلاف بين العلماء والفقهاء ـ قديماً وحديثاً ـ ويقول منكروه .. ليس هناك نسخ إنما هو تخصيص عام ، وتقييد مطلق ، وتفصيل مجمل ، وضم حكم إلى حكم مراعاةً لمقتضيات الظروف أو الأحوال .

وعلى القول بالنسخ .. لا نرى ما يمنعه فى الأحكام عقلياً وتشريعياً ، لأن الله سبحانه أدرى بما يصلح خلقه ، واعلم بدخائلهم وإمكانياتهم ، وأحكم فى معالجة نفوسهم ، ومجتمعاتهم بمختلف أحكامه وآدابه تدرُّجاً مع استعدادهم وامدادهم ، وتصديقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها**﴾[1]

ولكن يمتنع عقلياً وتأريخياً أن ينسخ الله سبحانه ـ فى القرآن خبراً بخبر أو قصة بقصة .. لأن هذا يعنى عدم صحة الخبر الأول ، وعدم واقعية القصة الأولى ، وذلك ما يريد أن يلتمس المؤلف الأدلة والأمثلة عليه لتأييد دعواه وجود الأساطير والأخطاء التأريخية فى أخبار القرآن .. وهو مقصد لا يتحراه من يؤمن بالله إلّهاً تمت كلمته ـ أى القرآن ـ صدقاً فى الأنباء ، وعدلاً فى الأحكام كما يقول عز وجل : ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً .. لا مبدل**

---

(١) سورة البقرة/١٠٦ .

لكلماته ، وهو السميع العليم﴾[1]

□ □ □

بقى أن نتصدى للشبهتين اللتين أوردهما المؤلف نقلاً عن الامام الرازى دون أن ينقل رده عليهما :

إن الامام الرازى يقول فى الرد على الشبهة الأولى : «لعل الله أقدرهم ـ أى الشياطين ـ على استماع الغيوب من الملائكة ، واعجزهم عن ايصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين ، ويقول رداً على الشبهة الثانية : «إن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد»

وبالحق أن رد الرازى على هاتين الشبهتين لا يغنى فتيلا ، ولا يشفى غليلا ، وكأنه كان ـ رحمه الله ـ يريد أن يوجّهها بإيمانه دون عقله ، وهذا لا يكفى فى مجادلة قوم يلقون شبههم فى اسلوب قائم على الجدل الفكرى وحده ، بعيد كل البعد عن الايمان ..

أما أنا فأرى دحضاً لأحدى الشبهتين : أنه لا يلزم من تمكين الله سبحانه وتعالى للشياطين من استراق بعض أنباء السماء : ان يمكّنهم أيضاً من معرفة أسرار خلقه فيما بينهم ، وإفشائها خلالهم ..

وذلك لأن إرادته سبحانه قد تعلّقت ـ فى إمكانهم من ختلاس بعض غيوب السماء ـ بوجود السحرة والكهان الذين تنزل عليهم الشياطين بالأنباء السماوية .. مزيدةً أو محرَّفة .

ولا يجوز لعاقل ـ فضلاً عن مسلم ـ أن يسأل لماذا أوْجد الله طائفة الكهان والسحرة ؟ إلا إذا جاز له أن يسأل لماذا أوجد الله الأئمة والأشرار فى الدنيا ، ولم لم يستغن الله سبحانه وتعالى بعدم

---

(١) سورة الانعام/١١٥ .

إيجادهم عن إيجاد العقاب والعذاب فى الآخرة ؟ .. وفى هذا ردٌّ على الشبهة الأخرى التى تقول : لماذا لم يمنع الله الشياطين ابتداءاً من الصعود إلى السماء ؟ .

إن ارادة الله سبحانه وتعالى قد تعلَّقت فى عمران الكون ، وخلافه البشرية على الأرض وتنظيم شئونها حياةً وموتاً ونصراً وهزيمةً ـ بعدم تمكين الجن والشياطين من معرفة أسرار الانس[1] وبعدم امكانهم من افشائها بينهم على فرض علمهم ببعضها ـ والا لما انكتم للناس سر .. ولما قضيت لهم حاجة .. ولاضطربت أمورهم اضطرابا .. ولخربت ديارهم خراباً وكان قيام الخليقة ـ على هذه الصورة ـ عبثاً غير مفهوم المبادىء والغايات ؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

اتهام الأنبياء بالوثنية :

وفى ص (٨٠) يتهم المؤلف أنبياء الله ورسله بأنهم كانوا فى بداية حياتهم ، وقبل أن يندبوا للدعوة إلى الله كدأب أقوامهم .. يدينون بدينهم ، ويعبدون آلهتهم ، ويقلدونهم فى كل ما يقال ويفعل . وأسانيده فى هذا الاتهام الجرىء البذىء : فهم سىء لبعض آيات القرآن ، وجهلٌ أسوأ بقواعد اللغة ، ومجازات البلاغة ، وأصول التفسير .

ـ فهو يذكر قول فرعون عن موسى عليه السلام : ﴿**ألم نرِّبك فينا وليداً .. ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى**

(١) نستثنى من ذلك إتصال بعض الشياطين من الجن بالسحرة والكهان وكشفهم لاسرار الكائدين من الانس لإخوانهم نفثاً أو عقدا .

فعلت وأنت من الكافرين﴾ !

ـ ويذكر قول الملأ من قول شعيب عليه السلام : **﴿لنخرجنَّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا﴾** .

ـ ويذكر قول يوسف عليه السلام : **﴿إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾** .

ـ ويذكر قول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام : **﴿إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربِّى﴾** .

ولو كان المؤلف من الباحثين عن الحقائق فى معانى هذه الآيات وألفاظها لوجدها ناصعة ساطعة داحضة لكل ما فهم وما زعم .

فليس هنالك فى تربية موسى فى بيت فرعون دليل على أن موسى كان على شاكلة فرعون .. بل هنالك الدليل الأقوى على ما ينقض مذهب المؤلف فى اتهام الأنبياء الأبرياء .. هنالك امرأة فرعون ، وهى عشيرته ووثيقة الصلة به أكثر من موسى ، كانت مؤمنة قانتة : **﴿إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله﴾** [1]

وهنالك أيضاً كون امرأة فرعون هذه هى التى اتخذت موسى وليداً ، وهى التى حضنته وربَّته حتى سلَّمته إلى أخته وهو رضيع .

أما (الفعلة) التى فعلها موسى ، وذكَّره بها فرعون ، فهى قتله لقبطى اعتدى على إسرائيلى ، وكان القتل خطأً فلم يلبث موسى من فوره أن توجه إلى الله نادماً مستغفراً وهو يقول : **﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى**

---

(١) سورة التحريم/١١ .

فغفر له انه هو الغفور الرحيم﴾[1] .

فمن أين فهم المؤلف أن موسى كان على شاكلة فرعون ؟؟

أمن قول فرعون نفسه عن موسى : ﴿**وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين**﴾ ؟ وهل يكفى هذا ليحكم على موسى بما حكم ؟ إذن كان يكفى أى قارىء للقرآن أن يحكم على نبى الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام بأنه كان ـ وحاشاه ـ ساحراً وشاعراً لأن أعداءه اتهموه بالسحر والشعر !

على أن فرعون لا يعنى بكفر موسى كفره بالله سبحانه وتعالى ، ففرعون نفسه كان يدعى انه إله .. وطبيعى أنه لم يفكر فى تعيير موسى بالكفر بالله الحق .. وإنما كان فرعون يعنى أن موسى كافر به ـ أى بفرعون نفسه ـ أو كافر بنعمته عليه إذ قتل أحد خواصه ، أو كافراً من جملة القوم الذين يدعى موسى ، حين جاءه بدعوة الله ، كفرهم بالله ، بناء على ما عرفه فرعون ، من ظاهر حال موسى يومذاك لاختلاطه بهم ، وعدم إنكاره ما هم عليه من وثنية

أما قول موسى ﴿**فعلتها إذن وأنا من الضالين**﴾ فالضلال هنا معناه : الجهل أو النسيان .. أى أن موسى فعل فعلته وهو جاهل بأن وكزته تأتى على نفس القبطى ، أو ناسٍ أن هذه الفعلة حرام . وقد ورد لفظ الضلال ـ فى القرآن ـ بهذين المعنيْن .. فى قوله ﴿**ووجدك ضالاً فهدى**﴾[2] أى جاهلاً بشرائع الله ، وفى قوله

---

(١) سورة القصص/١٦،١٥ .

(٢) سورة الضحى/٦ .

﴿**إن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى**﴾[1] أى تنسى احداهما الشهادة الخ .

□ □ □

أما ما فهمه المؤلف من كلمات ﴿**أو لَتعودُنَّ فى ملتنا**﴾ و ﴿**تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله**﴾ فى قصتى شعيب ويوسف وحكم فى ضوئه عليهما بما هما منه براء ؛ فقد دل على جهله بمجازات البلاغة العربية وأصول تفسير القرآن ..

لقد جهل المؤلف قاعدة (التضمين) وهى قاعدة أدبية لا يسع أديباً عادياً أن يجهلها ، فضلاً عن كاتب ينصب نفسه قاضياً فى الآداب العالمية ، ومقارناً بينها وبين أدب القرآن .. كصاحبنا مؤلف كتاب (الفن القصصى فى القرآن) .

إن الفعل (لَتعودُنَّ) فى آية الأعراف ،وشبيهه فى سورة إبراهيم : ﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا أو لتعودن فى ملتنا**﴾[2] قد ضُمِّنَا معنى الفعل (لتدخلن) والإتيان بحرف الجر (فى) بعدهما دليل على إرادة هذا المعنى .. ولو كانت (العودة) واردة على حقيقتها اللفظية ، لجىء بحرف الجر (إلى) .. ثم يجب أن لا ننسى أن الأنبياء معصومون من نشأتهم عن عبادة غير الله ، وقد صنعهم الله على عينه اطهاراً أبراراً ..

والأمثلة فى القرآن الكريم على قاعدة «التضمين» هذه كثيرة منها هذه الآية من سورة البقرة : ﴿**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت**

---

(١) سورة البقرة/٢٨٢ .

(٢) الآية/١٣ .

يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾[1] فالفعل «يخرجونهم» مُضَمَّن معنى الفعل «يصرفونهم» لأن الكفار لم يدخلوا إلى النور فعلاً ، حتى يخرجوهم منه إلى الظلمات .

وكذلك آية الأنبياء : **﴿ونصرناه من القوم الذين كذَّبوا بآياتنا﴾**[2] فالفعل «نصرناه» مُضَمَّن معنى الفعل «نجيناه» ودليله حرف الجر «من» من حيث اللفظ ، وموافقة الحال من حيث المعنى إذ أن نوحاً عليه السلام لم يكن فى حرب مع قومه .. وإنما هى نجاة من عذاب الطوفان الذى نزل بالكافرين منهم .

وكقوله تبارك وتعالى : **﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾**[3] فسؤال النعجة مُتضمِّن معنى جمعها وضمِّها إلى نِعاجه وكقوله تعالى : **﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك﴾**[4] فقد ضُمِّن الفعل «يفتنونك» معنى «يصرفونك» أو «يصدونك» ..

□ □ □

أما ما فهمه المؤلف من هذه الآية الكريمة : **﴿قل إنى نُهِيتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى﴾** من أن النبى محمدًا عليه الصلاة والسلام كان ـ وحاشاه ـ يعبد ما يدعو من دون الله وأنه لم ينته عن ذلك الا حين جاءته البينات من ربه .. فهو فهم عجيب أفضى بصاحبه إلى إلحاد حالق حارق .. فى شخصية محمد عليه الصلاة والسلام وفى حقيقة رسالته .

---

(١) الآية/٢٥٧ .
(٢) سورة الانبياء/٧٧ .
(٣) سورة ص/٢٤ .
(٤) سورة الاسراء/٧٣ .

وهو فهم لا يستند على تعليل لغوى ، ولا على وثيقة تأريخية من سيرة النبي الكريم . فقوله : ﴿**لما جاءنى البينات من ربى**﴾ لا يقتضى أن هذه البينات جاءته متأخرة بعد أن انسلك فى مسلك قومه من ضلال ووثنية ، وأن له ماضياً مثل ماضيهم . ولماذا لا تكون هذه البينات جاءته منذ النشأة ومنذ الطفولة ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يصطفى رسله من الملائكة ومن الناس ، ويصنعهم على عينه وينشئهم حنفاء بُرَءاء من الوثنية والضلال ! !

وهذا ما تؤيده الوثائق التأريخية من سيرة نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام وسير جميع أخوانه من الأنبياء والمرسلين .. فلم يرد عن أحدهم أنه نبت فى منابت الوثنية والضلال عن سنن الله ، الذى اصطفاهم لهداية عباده ، وعمارة بلاده بالحق والخير والعدل والنور ..

□ □ □

بقى قول القرآن الكريم حكايةً عن يوسف عليه السلام : ﴿**إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله**﴾ فقد فهم المؤلف العبقرى أن (ترك) تعنى ملابسة التارك سابقاً للشىء المتروك وعلى هذا فيوسف ـ بزعمه ـ كان على ملة قومه !

وهذا فهم لا نصير له من مرجع لغوى ولا وثيقة تأريخيةٍ ..

واللغة لا تفرض هذا المعنى ضربة لازب . فالترك يرد على معنى الهجر أو الاهمال أو الامتناع ابتداءً ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى فى القرآن وأشعار العرب ونثرهم :

كقوله تبارك وتعالى : ﴿**أيحسب الانسان أن يترك سدى**﴾[1] وقوله عز وجل : ﴿**كمثل الكلب تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**﴾[2]

ويحضرنى حديث هند بن أبى هالة عن أوصاف النبى عليه الصلاة والسلام أنه (قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه) ، أى منع نفسه وصانها عن هذه الخصال المشينة !

وتأريخ الأنبياء يروى هجرة محمد من مكة إلى المدينة ، وموسى من مصر إلى مدين ، وعيسى من فلسطين ، وتركهم ملل أقوامهم . وقد وصف نبينا يوسف بأنه : (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم) فهو ابن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .. فكيف يحكم المؤلف ـ بل يظن ـ أنه كان على ملة قومه ؟ .

حرب الأعصاب فى القرآن :

ومن هجمات المؤلف الجرىء على واقعية القصص القرآنى قوله فى ص (١٢٨) : إن القرآن فى هجومه العنيد على أخلاق اليهود إنما يشنُّ عليهم بذلك «حرب أعصاب» لا أكثر ولا أقل .. إنها الحرية الفنية أيضاً التى تدفع بالأديب إلى أن يلاحظ الواقع النفسى أكثر من ملاحظته لصدق القضايا وصحتها .. !

ومعنى هذا أن القرآن الكريم ـ وحاشاه ـ قد علَّم ساسة الاستعمار الظالم وتجار الحروب السياسية والعسكرية فنَّ الدعاية

---

(١) سورة القيامة/٣٦ .

(٢) سورة الاعراف/١٧٦ .

الكاذبة والاتهام المفترى . فى سبيل كسب المعارك أو القضايا إزاء الأعداء والخصوم ! وهو ما يعرف اليوم «بحرب الأعصاب» التى ألصقها المؤلف بالقرآن فى فضحه لأخلاق اليهود ! !

ومعنى هذا أيضاً أن اليهود أبرياء من نقض العهود وخيانة المواثيق ، والمتاجرة بأحكام التوراة بأثمان قليلة ، ومعاندة أنبيائهم واغتيالهم للبعض منهم ، وأخذهم الربا ، وأكلهم السحت .. وغير ذلك من سجايا السوء التى سجَّلها القرآن عليهم .. وإنما هى «حرب أعصاب» يشنُّها القرآن عليهم لا أقل ولا أكثر ! !

وهو كلام لا ندرى كيف نرد عليه .. بل هو فى الواقع لا يحتاج إلى رد ، وإنما يحتاج إلى فضح قائله بالإشارة إليه كمكذِّب بآيات الله ، ومنكر لصدق القصص القرآنى ، وكفى !

التجوز والتصرف فى تعبير القرآن :

وللمؤلف فى ص (١٣٦) إلى (١٥١) كلام طويل عن «القصة» وما قيل فى قواعدها وشروطها ــ ويعنينا منه قوله : «إن فى تعبير القرآن .. كذَّبت قوم نوح المرسلين ــ كذَّبت عاد المرسلين ــ كذبت ثمود المرسلين الخ تجوزاً وتصرفاً خلافاً للحقيقة التأريخية التى نعلمها .. وهى أن قوم نوح وعاد وثمود لم يكن لكل منهم الا رسول واحد !»

يقول ذلك وهو فى سهو عقلى غارق لم يفطن معه إلى أن تكذيب الأمة الواحدة لرسولها الواحد ، فما دعاها إليه من توحيد الله سبحانه وتعالى ، تكذيب لجميع الرسل قبله وبعده ، لاتحاد

الدعوة ، واتفاق الدعاة ، ولزوم الايمان بالجميع :

□ **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم .. لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون﴾** (١)

□ **﴿لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** (٢)

وقد أمرنا نحن المسلمين اتباع محمد ﷺ ـ فى القرآن وحديث الرسول : أن نؤمن بالله وملائكته ورسله جميعاً واليوم الآخر .. ومن لم يؤمن بنبى واحد من الأنبياء فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ .

ومن سهوات المؤلف العقلية الغارقة فى الخطأ والخطل أنه رأى فى توجيه القرآن الخطاب إلى اليهود بالمنِّ عليهم ، وتذكيرهم بنعمة الله على أسلافهم فى قوله : **﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون﴾** مظهراً من مظاهر تجوز القصص القرآنى فى ذكر الحقائق التاريخية ، إذ يصوِّر ما حدث لأجدادهم فى زمن موسى وقبله ، بالصيغة التى تدل على الحضور والمشاهدة ، كأن الأمر واقع بهم الآن !

وقد فاته فى هذه السهوة السادرة ، أن يدرك أن نجاة اليهود فى عهد نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام من آل فرعون حقيقة واقعية تأريخية ، منبثقة عن نجاة أسلافهم الذين عايشوا فرعون على ذلٍ واستعباد ، إذ لو لم ينج (الأصل) لا نقرض (النسل) ! !

---

(١) سوية البقرة/١٣٦ .

(٢) سورة البقرة/٢٨٥ .

وفى ص (١٦٦) يورد المؤلف هذه الآية : ﴿**حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوماً** ..﴾ ثم يقول : إن جلوس قوم فى قرب الشمس غير موجود ، وإن الشمس أكبر من الأرض ، فكيف يعقل دخولها فى عين حمئة من عيون الأرض ؟ ويروى هنا كلاماً للإمام الرازى ، معناه أن يصار إلى التأويل فى مسألة غروب الشمس فى العين الحمئة لأنها خلاف اليقين .. وكلام الله مبرأ من هذه التهمة ؟ .

ونحن نرى أنه لا داعى إلى كلام كثير كهذا أو إلى الذهاب بعيداً عن مفهوم عبارة القرآن الجلية الواضحة ، أو بعيداً عن واقع الشمس وواقع العين ، فالضمير فى «عندها» يصح أن يكون عائداً إلى العين ، لا إلى الشمس كما فهمه المؤلف أو الامام الرازى . وبذلك لا يستحيل وجود القوم قريباً من العين ، كما يمكن أن يقال أن غروب الشمس فى العين الحمئة ، هو غروب نسبى محلى ، أى بالنسبة لهذه البقعة من الأرض .. كما هو مشاهد فى سواحل البحار حيث يرى الناس فى كل ساحل منها أن الشمس تغرب فى بحرهم !

ونظرية «النسبية» صحيحة علمياً ، وتنطبق على كافة الناس فى كل زمان ومكان ، نظراً لطاقات أبصارهم وأسماعهم المحدودة .

وقد جاء فى القرآن أن للشمس مشرقاً واحداً ومغرباً واحداً ، باعتبار الوحدة الكونية ، وجاء فيه كذلك أن لها مشرقيْن ومغربيْن ، باعتبار اختلاف شروقها وغروبها صيفاً وشتاءً ، وجاء فيه أيضاً أن للشمس مشارق ومغارب ، باعتبار اختلاف ميقات الشروق والغروب فى كل بلد من بلاد العالم .. وعلى ذلك فنسبية غروب

الشمس فى العين الحمئة حقيقة واقعية لا تحتاج فى تلمُّسها إلى تأويل ..

□ □ □

ويروى المؤلف فى ص (١٧١) كلاماً من التفسير القديم عن قصة «ابنى آدم» وما قيل من أنهما لم يكونا ولديه ، وإنما هما اخوان من بنى اسرائيل ، وقد رد بعضهم على هذا الوهم بأن عملية الدفن لم تكن مجهولة فى بنى اسرائيل ، حتى يبعث الله الغُراب ليعلِّم القاتل كيف يوارى سوأة أخيه . !

وإلى هنا والكلام سليم .. ولكن المؤلف لا يزداد ايماناً بقصص القرآن كما ينبغى وإنما يتخذ من القول الخطأ عن ابنى آدم بأنهما اخوان من بنى اسرائيل مجالاً ليصول فيه بطعن جديد فى قصص القرآن ؛ فهو يقول : إنه لا حاجة إلى هذه النظريات المتضاربة ، فإن القرآن يقصد هنا إلى التصوير والتمثيل .. ويجمع بين تقديم القربان ، وبين ما ترتب عليه من حسد ، وما أدَّى إليه الحسد من قتل ثم بعث الغراب .. وهذه هى طريقة القرآن فى إختيار مواد متباعدة فى الزمن لبناء قصصه على أساس أدبىّ عاطفىّ !

وهكذا يبدو المؤلف ـ لنفسه ـ فقط ذكياً وفطيناً وقديراً على استنباط الفهوم والأحكام الصحيحة التى عجز عن الإتيان بها الأولون والآخرون . وفى سبيل استمتاعه بنشوة هذا الغرور وهذه الكبرياء يقع من حيث يدرى أو لا يدرى فى هوة سحيقة من الإلحاد فى آيات الله البينات وكلامه المحكم ، فإن معنى كلامه هذا : أن القرآن يجمع فى قصة واحدة بين مواد متباعدة فى الزمن ،

متناقضة فى حقائقها التأريخية .. أى أن «تقديم القربان» أو الجهل بطريقة الدفن ، غير واقعى فى قصة إبنى آدم ! ومعنى هذا بالتالى : ان رواية القرآن غير صادقة فى تعبيرها عن الواقع التأريخى لبعض قصصه ! مع أن هذه القصة متناسقة الفصول ، لا تنافر بين أبطالها وموضوعها .. شأن القصص القرآنى كله بلا استثناء .

□ □ □

وأورد المؤلف فى ص (١٨٨) قصة طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، وجاء بعد ذلك برواية من تفسير الرازى عن أبى مسلم أنه ينكر تقطيع إبراهيم للطير ، ويرى أنه أمر بتمرينها على الإرسال والإقبال ، وان الغرض من ذلك ضرب مثال محسوس على عودة الأرواح إلى أجسادها الخ .. ثم أورد المؤلف قولاً من تفسير المنار بتأييد أبى مسلم فى مذهبه الغريب .. ولم يلتفت إلى ما افتتح به الرازى كلامه على هذه القصة من قوله : (أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهن) .

ونحن لا نجد لهذا المذهب الشطط ، ما يؤيده من وثيقةٍ تأريخيةٍ من سيرة إبراهيم أو حجة عقلية أو استحالة واقعية لتقطيع الطير ..

وإنا سائلوهم كيف يكون مجرد تمرين أربعة من الطير على عملية الارسال والاقبال حجةً لله سبحانه وتعالى على إبراهيم فى سؤاله برهاناً على كيفية إحياء الموتى ، أو عودة الأرواح إلى أجسادها .. وهل يعد ذلك مثالاً محسوساً كما يرى أبومسلم ــ إن صحَّت نسبة هذا القول إليه ــ غفر الله له ؟ .

إن عملية تأنيس الطير وكافة الحيوانات على الإرسال والإقبال

والخدمة ، عملية سهلة يباشرها الناس من القديم إلى اليوم ، واعتقد أنها من التفاهة وقلة الشأن ، بحيث لا يمكن أن تكون برهاناً إلهياً على إحياء الموتى ، وعلى حقيقة البعث ولا يمكن أن يجد إبراهيم فيها شفاءً لقلبه وهدىً لحيرته ، ولا يمكن أن يرى فيها دليلاً جديداً على قدرة الله التى تتوانى بل تتفانى دونها قدر البشر.

أما من الناحية اللغوية فاللفظ «صُرْهنَّ» حقيقى واضح .. و «يأتينك سعيًا» تدل بمفهومها الصارخ على أن الطير قد ألقيت قبل ذلك جثثًا هوامد على الجبال .

هل القرآن يبنى قصصه على الأساطير؟

والآن ننتقل إلى ص (٢٠٢) وما بعدها من الكتاب لنقرأ كلاماً آخر للمؤلف عن قصص القرآن باعتبارها «أساطير الأولين» فى زعمه وزعم المبطلين السابقين .. فهو يقول هنا : «إن المشركين عندما وصفوا القرآن بهذا الوصف لم يكن ذلك منهم كذباً وادعاء ، بل كان شبهة قوية وعقيدة ثابتة لديهم .. كما أن القرآن نفسه لم ينف وجود الأساطير فيه ، حتى إن ما جاء فى القرآن من قوله : ﴿**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرةً وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً**﴾ لا ينفى وجود الأساطير فى القرآن ، وإنما ينفى أن تكون هذه الأساطير من اكتتاب محمدٍ ويثبت أنها من عند الله ، وعلى ذلك إذا قلنا فى القرآن أساطير لا نعارض نصاً من القرآن» .

ويناقض المؤلف نفسه ، فيزعم أن القول بالأساطير فى القرآن

إنما كان فى الجزء المكى منه بسبب البيئة الجاهلية فى مكة ، ثم انقطع ذلك فى الجزء المدنى منه لأن بيئة المدينة كانت مثقفة بفضل اليهود الذين هم من أهل الكتاب !

أفليس معنى هذا أن المكيين وصفوا قصص القرآن بأنه أساطير لأنهم جهلاء بالتاريخ ، وأن المدنيين سكتوا عن هذا الزعم الباطل لأنهم مثقفون ؟ وإذا صح ذلك ـ وهو صحيح باعتراف المؤلف نفسه ـ فكيف يصح أن يزعم هو بأن هذه القصص القرآنية أساطير وأوهام ومفتريات تأريخية اقتداء بالمشركين الجهلاء ، مادام أن اليهود المثقفين سلموا بها ؟

أما قوله إن القرآن لم ينف وجود الأساطير فيه ، وإنما نفى اكتتاب محمد لها واثبت روايتها من عند الله ـ فهو على جراءته وبذاءته فى حق الذات الإلهية المقدسة قول مردود ، فالله عز وجل يقول فى القرآن : **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا : أساطير الأولين ، ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ـ الا ساء ما يزرون﴾**[1] .. ويقول أيضاً : **﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم﴾**[2] .

فهل هناك أفصح رداً على زعم المشركين وجود الأساطير فى القرآن ـ وهو زعم المؤلف ـ من ما عقّب به القرآن على هذا الزعم من أنه أوزار ساءت من أوزار ، وإضلال بغير علم ، وما عقّب به أيضاً من أن جزاء هذا الزعم الباطل وسم بالنار على أنف صاحبه

---

(١) سورة النحل/٢٥,٢٤ .

(٢) سورة القلم/١٦,١٥ .

يوم الحساب ؟ .

والعجيب : أن المؤلف أورد آية أخرى تؤكد نفى القرآن لوجود الأساطير ولكنه تجاهلها أو لم يفطن إلى الحجة الدامغة فيها ، أو عميت بصيرته دون بصره عنها ؟ . هذه الآية هى قوله تبارك وتعالى : ﴿**قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ...**﴾ بعد قوله تعالى ﴿**وقالوا أساطير الأولين**﴾ [1]

الا يكفى دحضاً لذلك الزعم الباطل : أن يقال أن الذى أنزل قصص القرآن هو الله سبحانه الذى يعلم السر فى السماوات والأرض .. وماذا بعد السر من علم يطلبه الباحثون عن المعجزات الخوارق ، والباحثون عن أنباء الصِحاح ؟

وليس ذلك كل جراءة المؤلف وبذاءته .. فقد أحب أن يلطف هذه الجراءة والبذاءة فى موقفه من قصص القرآن فقال : إن القرآن ببنائه القصة الدينية على بعض الأساطير قد جعل الأدب العربى يسبق غيره من الآداب العالمية فى جعله القصة الأسطورية لوناً من ألوان الأدب الرقيق الرفيع ويكفينا فخراً أن كتابنا الكريم قد سنَّ السنن ، وقعَّد القواعد ، وسبق غيره فى هذا الميدان ! !

ماشاء الله .. وما أعظم ما فتح به الشيطان على المؤلف العبقرى من بهتان ! وما أكذب هذا الفخر وأبطل هذه الدعوى بسبق القرآن لجميع الأدباء والشعراء والقُصَّاص إلى حبك الأساطير والأوهام [2] !

---

(١) سورة الفرقان/٥،٦ .

(٢) الاساطير فى معاجم اللغة وكتب التفسير : هى الأحاديث الباطلة ، وما سطره الاؤلون من اعاجيب وترهات لا صحة لها .

لا .. أيها العبقرى المفتوح عليه فتوح الشياطين .. ليس القرآن سابقاً إلى شيء من هذا البهتان والزور ، ولا لاحقاً به . إنه كلام الله إلى عباده .. كلام هداية وإرشاد ، عن طريق الأحكام والوصايا التى أنشأها الله إنشاء لهم ، وعن طريق الأخبار التى يرويها عن أحوال الأمم الغابرة : رواية لا باطل فيها من زيادة أو نقص ، لتكون موعظةً وعبرةً صادقتين .

□ □ □

نفيه للوحدة القصصية فى القرآن :

وفى ص (٢١٤) يقول المؤلف باستحالة الجمع بين ما جاء من قصة إبراهيم عليه السلام مفرقاً بين سور «البقرة» و «هود» و «الأنبياء» فى وحدة قصصيّةٍ وكذلك قصص غيره من الأنبياء ! !

ونحن لا ندرى أى معنى يريده المؤلف بالوحدة القصصية ؟

هل يريد غير ما تعارف عليه القُصاص من أن «الوحدة القصصية» هى وحدة بطل القصة ، أو وحدة موضوعها ؟

إن وحدة البطل هنا هى «إبراهيم» عليه السلام ..

■ هى إبراهيم ـ فى سورة البقرة ـ فى بداية نبوته عندما أراد أن يطمئن قلبه ، فسأل ربه برهاناً على كيفية إحياء الموتى ، البعث ..

■ وهى إبراهيم أيضاً ـ فى سورة الأنبياء ـ عندما أراد أن يضع بين أعين قومه برهاناً على ضلالهم فى عبادة الأصنام : ﴿**فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم**﴾ وكاد لينجح فى مهمته مع قومه ، فيؤمنوا بدعوته .. لولا أنهم نُكِسوا على رؤوسهم ..

■ وهى إبراهيم كذلك ـ فى سورة مريم ـ حينما رأى نفسه عاجزاً عن هداية أبيه وهو أقرب الناس إليه ، وأكرمهم عليه ، إلى الإيمان بدعوته ..

أما وحدة الموضوع فهى ـ بالجملة ـ طلب إبراهيم ، وهو يباشر دعوته أن يقتنع بها بينه وبين نفسه ، ثم محاولته أن يقنع بها قومه ، ثم عجزه عن اقناع أبيه .. وما تخلل ذلك من إلقائه فى النار ، وإقدامه على ذبح إبنه اسماعيل ، ونجاته من النار ، ونجاة إبنه من الذبح ، وهجرته إلى مكة مع زوجته هاجر وبناء الكعبة واخيراً : مشيئة الله وقدرته فى الهداية والارشاد .

هذه هى الوحدة القصصية فى قصة إبراهيم ومثلها فى قصص الأنبياء التى يبحث عنها المؤلف النابغة .. فلا يراها وهى بين عينيه !

هل الأنبياء أبطال عشق وغرام !

ثم ننتقل إلى ص (٣١٤) وما بعدها لنجد غمزاً جديداً فى كلام المؤلف عن قصص الأنبياء غمزاً للأنبياء أنفسهم عليهم السلام ، فهو يقول عن يوسف إنه فتى جميل ، مليح الوجه إلى حد الفتنة والاغراء بحيث تقع فى حبه أولاً امرأة العزيز ، ثم من بعدها جمعٌ من كرائم النساء ثم يقول : إن شخصية يوسف تمثّل كثيرين غيره من الاسرائيليين الذين يتركون أوطانهم إلى غيرها حيث ينبه شأنهم ، وينهضون نهضة اقتصادية تمكّن لهم ، وتجعلهم كما يطلق عليهم «ملوك المال» ..

ويبدو ان المؤلف تحت تأثير مذهبه إلى القول بوجود أخطاء فى

أخبار القرآن أصبح لا يلتفت إلى نصوص القرآن الواضحة ، معتزاً بروايات التوراة المحرفة ، فهو لا يقرأ فى القرآن نفسه عن يوسف أن امرأة العزيز وحدها هى التى شغفت حباً به ، وراودته عن نفسه فاستعصم ، أما النساء الأُخَر فقد اعجبن به واكبرنه وقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ؛ وهو لا يقرأ فى القرآن أيضاً أن يوسف عليه السلام لم يذهب متاجراً إلى مصر ـ كما يفعل اليهود ـ ولم يصل إلى ما وصل إليه من الملك والسلطان فى مصر نتيجة نهضة اقتصادية يهودية .. وإنما كان يوسف ضحية غيرة إخوانه لأبيه .. تآمروا عليه ، وهو غلام فألقوه فى غيابة الجب ، ثم باعه الذى التقطه من الجب بثمن بَخْسٍ دراهم معدودة : ودخل مصر مملوكاً ، وظل فيها سجيناً بضع سنين ، ثم عندما انكشفت براءته ونزاهته وأمانته جعله عزيز مصر أميناً على خزائنها .. إلى آخر ما قصه القرآن عن يوسف والعزيز وامرأته ـ القرآن الذى نصب المؤلف فهمه وعلمه : ميزاناً جائراً لقصصه وأخباره !

.. وعاد المؤلف مرة أخرى إلى غمزه المقيت لأنبياء الله ورسله الأكرمين عليهم السلام .. فهو يقول عن سليمان عليه السلام فى ص (٣٢٢) انه احتال لتكشُّف ملكة سبأ عن ساقيها ، وقال عن موسى وشعيب عليهما السلام فى ص (٤٣٣) : «وتبدأ مرحلة أخرى تصور الاعجاب بالفتى والاحتيال على لقاء الحبيب إذ تتقدم إحدى بنتى شعيب إلى أبيها وتطلب أن يستأجره .. ومن يستأجر ؟ (إن خير من يستأجر القوى الأمين) وكأن الشيخ قد فطن إلى المراد فاسرع إلى تحقيق رغبة الفتاة ، واقدم على الفتى بقوله المؤكد (إنى أريد أن

انكحك إحدى إبنتَّى هاتيْن) .

فما معنى هذا الكلام

أليس معناه أن المؤلف يجعل من بعض الأنبياء أبطال غرام لهم مغامرات واحتيالات فى ميدان الظفر بالحبيب ء إن القرآن كما أسلفنا كتاب لا بد لدراسته من عقيدة صافية ، ومن إدراك كامل للمعارف اللغوية والتأريخية ، ادراك غير جامح فى متاهات الظن الآثم والخيال الكذوب .. إدراك يقف به صاحبه عند معالم الحق الواضح ، ولا يتعداها باحثاً عن الظلمات يتخبَّط فيها ظلماً وعدواناً على الأبرياء .

فسليمان عليه السلام كما أورد القرآن قصته كان صاحب دعوة إلى الاسلام .. وجَّهها إلى ملكة سبأ ، ولم يكن صاحب مطمع وشهوة فى جمال أو متعة جسدية ، وليس فى ألفاظ القرآن ومعانيه الخاصة بهذه القصة ما يشير ـ ولو من بعيد ـ إلى هذا الظن الأثيم بنبى الله سليمان .. وكل ما فى الأمر أنه أوتى عليه السلام ملكاً لم يؤته أحد من بعده وسُخِّرت له الرياح والشياطين ، وكان قصره مشيداً على أجمل وأكمل مثال من الزخرف ، وعندما دخلت الملكة بلقيس عليه ظنت الصرح الممرد من قوارير لجَّة ماء فكشفت عن ساقيها ، وإن يكن لسليمان عليه السلام مقصد من ذلك فهو امتحان ذكائها وفطنتها ، أو إظهار قوة ملكه ، وسعة سلطانه .. وقد سبق أن هدَّد ملكة سبأ بهذا السلطان عندما بعثت إليه بهدية محاولة أن يسالمها ويتركها فى ملكها وبين قومها ، فقال للرسول :

﴿إرجع إليهم فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قبل لهم بها ، ولنخرجنَّهم منها أذلةً

وهم صاغرون﴾[1] .

إن ما يزعمه المؤلف عن احتيال سليمان لكشف ساقَيْ بلقيس .. هو من روايات اليهود فى مراجعهم التأريخية .. ولكن هل جهل المؤلف افتراءات اليهود على عيسى ومريم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء ؟ .

أما ما يقوله عن إعجاب بنت شعيب عليه السلام بموسى ، وافتتانها بقوته ، واندفاعها إلى أبيها تطلب منه تزويجها به ، بأسلوب الإشارة والتلميح ، ومسارعة الأب إلى تحقيق رغبتها ؛ فكل هذه خيالات وظنون آثمة لا مقر لها الا فى أذهان قُصَّاص الحب والشهوات .

وكل ما فى قصة موسى عليه السلام مع شعيب أنه أسدى يداً كريمة إلى ابنتى الشيخ الكبير ، فسقى لهما .. (ثم تولَّى إلى الظل فقال : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير)[2] وعندما أخبرت البنتان أباهما بصنيع موسى معهما استدعاه إليه ، ولمست البنت المرافقة لموسى ديانته وأمانته عندما طلب إليها أن تمشى من خلفه أثناء ذهابه معها إلى أبيها ، لأن الرياح كانت تلعب بثيابها عندما كانت تمشى أمامه فتبدى مفاتنها ، وكانت من قبل قد لمست قوته فى عملية السقاية ، وأبوها قبل ذلك وبعده شيخ كبير فى حاجة معين .

ولعل البنتين قد طال عناؤهما فى السقاية ، فبدا لأحدهما أن تقترح على أبيها أن يستأجر موسى راعياً لغنمه ، وكان من عادات قوم شعيب أن يمهر الرجل زوجته خدمة أبيها عدداً من السنين .

---

(١) سورة النمل/٣٧ .

(٢) القصة مفصلة فى سورة القصص من آية/٢٢ إلى آية/٢٩ .

فكان كل ذلك تمهيداً طبيعياً وعادياً لأن يزوج الشيخ احدى إبنتيه من موسى اعجاباً بقوته وأمانته وما قص عليه من قصص نبوته ، واستعانةً به فى رعى ماله تعويضاً عن فقده الذرية من الذكور.

أفبعد هذا يقول قائل : إن هنالك قصة حب وإعجاب بين بنت شعيب وموسى ؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم ! .

دعوى مجاملة القرآن للتقاليد العربية ؟

ويقول المؤلف فى ص (٣١٧) : إن القرآن عدل عن نسبة الإغواء فى قصة آدم وابليس إلى حواء وهى التى أغوت آدم ، وأغرته بالأكل من الشجرة كما تقول التوراة ـ مجاراة لتقاليد البيئة العربية التى تجعل المرأة تابعة للرجل فى كل شيء !

وهذا الفهم الخاطىء ، والتعليل المعوج من المؤلف إزاء قصة آدم ، وإزاء حقيقة المرأة العربية ـ كلاهما مردود عليه بالتصويب الآتى :

أولاً : إن القرآن إنما جاء محرراً للرجل والمرأة من التقاليد الضالة ، والعادات الجاهلية الظالمة .. عقائدية واجتماعية على سواء ، فليس معقولاً أن يأتى الاسلام بأسلوب ينكره مبدؤه التحريرى العام ، الذى رفع به مقام المرأة عَلِيّاً ، وخلصها من القيود المهينة التى كانت مفروضة عليها ، وجعلها أنثى ذات كرامة ورسالة وجهاد .

والمعروف أن القرآن جاء ينقض الأباطيل والمظالم الجاهلية

عروة .. عروة فكيف يجارى بعضها فيأتى بأسلوب يوافقها ، فيناقض بذلك مبدأه من جهة ، ويناقص به الحقيقة التأريخية من جهة أخرى ؟ .

ثانياً : إن القرآن لم ينسب الغواية إلى آدم حتى يقال : إنه عدل عن نسبتها إلى حواء .. مجاراة للتقاليد العربية فى تبعية المرأة للرجل ، وإنما نسب الإغواء إلى إبليس حيث قال تبارك وتعالى : ﴿**فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سؤاتهما**﴾[1] وقال أيضاً : ﴿**فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه**﴾[2]

أما آية : ﴿**فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى**﴾[3] فقد نسبت فيها «الغواية» إلى آدم ـ وليس الاغواء ـ بعد أن حذره الله من إبليس بقوله : ﴿**إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة ، فتشقى**﴾[4] وبعد أن وقع الأغواء فعلاً من إبليس لآدم كما جاء فى الآية التالية : ﴿**فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**﴾[5] .

وليس أمام الباحث الصادق ، سليم المقصد الا أن يسلِّم برواية القرآن لا رواية التوراة التى آثرها المؤلف ، وذهب يعلل مخالفة القرآن لها بمجاملته للتقاليد العربية الاجتماعية .. ونحن المسلمين يجب

---

(١) سورة الاعراف/٢٢ .
(٢) سورة البقرة/٣٦ .
(٣) سورة طه/١٢١ .
(٤) سورة طه/١١٧ .
(٥) سورة طه/١٢٠ .

أن نسلم برواية القرآن ... لأنه آخر كتاب سماوى ، واصدق كتاب سماوى ، واسلم كتاب سماوى برىء من التحريف ، كما يقرر الله سبحانه ذلك مراراً فى مواضع متعددة من القرآن ، عندما يندد بمواقف اليهود من توراتهم التى مزقوها تحريفاً ودسّاً .

على أنه يجب الا يفوت قارىء الكتاب : إن تسليم المؤلف برواية التوراة لقصة آدم وحواء ، إنما هو تأكيد جديد منه لدعواه بوجود أخطاء تأريخية فى أخبار القرآن .. هذه الدعوى الباطلة التى يبثها فى كل فصل من فصول كتابه ويتحسس الأدلة والأسانيد الواهنة .. إغراءً للقارى بتصديقه وتأييده .

وقد فاته أن تأريخ التوراة ـ التى يحب أن يتخذ منها مرجعاً تأريخياً أقوى ـ يحدثنا أن العبرانيين إنما بدأوا يكتبون فصولها بعد وفاة موسى عليه السلام بزمن طويل ، ضمَّنوها بعض العادات التى كان قضاتهم يبنون أحكامهم عليها وأنهم رفضوا بعض أحكام التوراة الأصلية وبدَّلوا بعضاً آخر منها كما ضمَّنوها كثيراً من شريعة حمورابى ، وشرائع الأمم الأخرى ..

وإذا كان اليهود فعلوا ذلك فيما يتصل بشريعتهم .. فهم إذن اجرأ على أكثر منه فى رواية تأريخهم .. بلا جدال .

وعلى ضوء هذه الخيانة التأريخية التى وصفهم بها مؤرخوهم أنفسهم قبل القرآن ، يذهب عجبنا من التناقض الذى نجده بين ما ترويه التوراة من أن ضيف إبراهيم من الملائكة أكلوا من الطعام الذى قدَّمه إليهم ، وبين ما يرويه القرآن عن ذلك من أن أيديهم لم تمتد إلى الطعام ، لأن الملائكة لا تأكل ولا تشرب كما هو معلوم من

طبيعة خلقهم ، فأوجس منهم خيفة ! !

وامثلة هذه الخيانة التأريخية اليهودية كثيرة .. كزعمهم فى التوراة أن الذبيح هو اسحق حسداً لاسماعيل الذبيح الحقيق ، لأنه أب العرب ، وهم يريدون الفخر لأبيهم إسحاق[1] .

ومنها اختلاف صفة سارة زوج إبراهيم عليه السلام فى روايات التوراة والمراجع اليهودية الأخرى .. بين كونها أخته مرة ، وبنت أخيه مرة أخرى .

ومع ذلك فالتوراة لم تستوف تأريخ كثير من الأنبياء .. فهى مثلاً لم ترو حادثة إلقاء النمرود لإبراهيم فى النار ولا رحلته إلى الحجاز ، ولم تتحدث المراجع اليهودية أيضاً بأخبار عاد وثمود ، وهى بلاد أو أقوام كانت مجاورة لمملكة إسرائيل ، وقد انفرد القرآن برواية الحقائق التأريخية عن كل ذلك وغيره .

زعمه أن قصص القرآن : كقصص كليلة ودمنة :

وفى ص (٣٩٨) ينقل المؤلف عن تفسير الإمام الرازى بعض طعون المبطلين وشبهاتهم حول قصة الهدهد وسليمان عليه السلام ، كسؤالهم كيف خفى على سليمان نبأ الملكة ، مع ما يقال من أن الجن والشياطين كانوا فى طاعته ؟ ومن أين للهدهد معرفة الله ووجوب السجود له الخ .. ويعقّب المؤلف العبقرى على ذلك بأن المسألة لا تحتاج إلى أن يقف الرازى وغيره من المفسرين هذا الموقف الحائر أمام هذه الشبهات والطعون .. فكل ما فى الأمر أنها مجرد قصة .. وأنه

---

(١) يراجع ردنا على قولد تسيهر فى الجزء الثانى حول زعمه ان اسحاق هو الذبيح .

من الملاحظ فى القصص الحديث أن تسند بعض الأدوار الرئيسية إلى الحيوانات كالكلب «لاسى» الذى اضطلع بالبطولة فى قصة «لاسى يعود إلى منزله» وككتاب «كليلة ودمنة» .. وختم المؤلف النابغة كلامه بأن سبب حيرة المفسرين أمام مثل هذه القصة هو مذهبهم فى عقيدة الخوارق والمعجزات» :

وردنا عليه من وجوه أربعة كما يلى :

أولاً : إن الرازى وغيره من المفسرين لم يقفوا حيارى أمام هذه القصة ، وإنما أوردوا شبهات الملحدين ، وطعون المبطلين ، وردوا عليها فى تفاسيرهم .

ثانياً : إن عقيدة الخوارق والمعجزات لا ينكر تأريخها الطويل فى سير الأنبياء عليهم السلام .

ثالثاً : إن القول بأنه كيف غاب عن سليمان نبأ ملكة سبأ ، وهو من هو ملكاً وسلطاناً .. شبهة تافهة ، لأن الله سبحانه لم يقل عن سليمان إنه أوتى علم الغيب جميعه ، بل أورد القرآن فى هذه القصة نفسها أن سليمان احتاج فى إحضار عرش الملكة ـ إلى علم رجل من حاشيته ..

رابعاً : ما الذى يمنع عقائدياً أن يكون اختيار الله للهدهد كاشفاً لنبأ الملكة ومنكراً لما هى عليه من شرك ووثنية .. إنما هو حجة الله على خلقه من البشر على أن المخلوقات كافة حتى الطير مدينة للخالق القادر بخلقها ورزقها ، كما هو تبكيت للمشركين من البشر

---

(١) سورة الاسراء/٤٤ .

بما يريهم ـ سبحانه ـ من معرفة الطير لبارئها ، وتوحيدها له ، مصدقاً لما قرره القرآن فى هذه المسألة نفسها كقوله عز وجل : ﴿**وإن من شىء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾[1] وكقوله أيضًا : ﴿**ألم تر أن الله يسبِّح له من فى السموات والأرض والطير صافاتٍ كل قد علم صلاته وتسبيحه**﴾[2]

أما مقارنة المؤلف لقصص القرآن بكليلة ودمنة .. وقصة الكلبة لاسى فذلك أحقر من أن ننصب فى الرد عليه .. وجراءته وبذاءته فى ذلك مفضوحتان ، وخزيه فيه مكشوف صراح .

وبعد .. فهذا ما فتح الله به ، وأعان عليه .. فى رد أباطيل «محمد أحمد خلف الله»[3] وشبهاته حول قصص القرآن الكريم وأخباره .. فلله الحمد فى الأولى والآخرة[2]

---

(١) سورة النور/٤١ .

(٢) محمد أحمد خلف الله ـ هو غير الدكتور محمد خلف الله أحمد ـ عميد كلية الآداب فى جامعة الاسكندرية ـ وقد سعدت بزمالته فى الندوة العالمية للأسلاميات المنعقدة فى جامعة البنجاب بباكستان عام ١٣٧٧ هـ .

(٣) كتب هذا النقد لكتاب (الفن القصصى فى القرآن الكريم) حين صدوره سنة ١٩٥١م ـ ١٣٧١ هـ ـ وقد اصدر المجلس الوطنى للثقافة والفنون بدولة الكويت طبعة جديدة للكتاب سنة ١٩٨٥م ـ ١٤٠٥هـ لم اطلع عليها وإنما قرأت نقداً لبعض موضوعاتها فى مجلة (الدعوة) السعودية الصادرة فى رمضان سنة ١٤٠٥هـ .

نقد كتاب :
(القرآن : محاولة لفهم عصرى)

الدكتور مصطفى محمود .. كان فى بداية حياته الفكرية لا يهتم بالدين ، بل كان معترضاً على فكرة الدين ، وقد كتب مرة ـ فى مجلة روز اليوسف ـ قبل نحو عشرين عاماً رأياً يسخر فيه من المتدينين ، ورددت عليه فى إحدى صحفنا المحلية ، واطلع على الرد فكتب تعقيباً فيه سخرية منى .. ونشرته مجلة روز اليوسف .

قدّمت بهذه الجملة بين يدىّ ما أريد أن أعلق به على كتابه الجديد : (القرآن : محاولة لفهم عصرى) وقد اعترف هو نفسه ـ فى ص ٨٤ و ٨٨ من الكتاب ـ بأنه كان منصرفاً عن القرآن فى شبابه ، بل عن الدين كله .. لأسباب منها : ما قرأه عن أنهار العسل وأنهار الخمر فى الجنة ، وما جاء فى القرآن من آيات العذاب ، وما خطر له آنذاك من أنه ـ أى العذاب يتنافى مع رحمة الله وعظمته ! !

والآن نمضى فى تتبع آراء المؤلف عن القرآن فى عدد من موضوعاته ونعترف بادى الرأى ـ أن له روائع من الفهوم الصائبة لبعض آيات القرآن الكريم ومعانيه .

ونلاحظ عليه ـ من البداية أيضاً ـ ثلاثة أمور : الأول أنه يقر تفسير القرآن بالقرآن ـ ص ١٥٩ ـ فيقول : وهذا ينتهى بنا إلى

موقف فى التفسير لا بد من التزامه .. لنفسر القرآن بالقرآن ظاهراً وباطناً على ألا يتعارض تفسيرنا الباطن مع مدلول الكلمات الظاهر أو يكون منافياً له ، ولا يكون التفسير الباطنى مقبولاً الا إذا كان مؤيداً ومؤكداً للمعنى الظاهر .

يقول ذلك الدكتور مصطفى محمود .. ولكنه يخالف ما قرر الالتزام به من تفسير القرآن بالقرآن ـ كما سنرى فى تعليقاتنا الآتية على وجهات نظره القرآنية ـ الأمر الثانى : لم يبدأ الكتاب بالبسملة مع أن موضوعه دينى ، وهى مطلوبة فى كل أمر دينى ودنيوى : «كل أمر لا يبتدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» أى قليل البركة أو عديمها ـ والأمر الثالث : هو أنه يذكر رسول الله ﷺ كثيراً فى كتابه ، ويذكر أحاديثه ويذكر نزول القرآن عليه بمختلف الموضوعات ولكنه لا يصلى عليه أو يسلم ! !

مع أننا مأمورون بالصلاة والسلام عليه فى القرآن نفسه : ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبّى . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .**﴾ وفى الحديث : (البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على)[1] وفى رواية أخرى ، ألا أخبركم بأبخل الناس ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال ، (من ذكرت عنده فلم يصلّ على)

ومن روائع المؤلف ـ مثلاً ـ قوله عن العبارة القرآنية : إنها سر من أعمق الأسرار فى التركيب القرآنى ، إنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع . ثم يضرب المثل من شعر عمر بن أبى ربيعة قوله :

---

(١) رواه أحمد والنسائى والطبرانى فى الكبير.

قال لى صاحبى ليعلم ما بى أتحب القتول أخت الرباب

فيرى الموسيقى هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام فى اشطار متساوية ، ثم تقفيل كل عبارة تقفيلاً واحداً على الباء الممدودة . هذه الموسيقى فى الشعر تصل إلى الأذن من خارج العبارة ، وليس من داخلها من التقفيلات «القافية» ومن البحر والوزن .

أما حين تتلو ـ يقول المؤلف ـ ﴿**والضحى والليل إذا سجى**﴾ فأنت أمام شطرة واحدة ، وهى تخلو من التقفية والوزن والتشطير . ومع ذلك فالموسيقى تقطر من كل حرف فيها .. من أين ؟ وكيف ؟ هذه هى الموسيقى الداخلية ، الموسيقى الباطنة .. التى هى سر من أسرار القرآن لا يشاركه فيه أى تركيب أدبى ! .

واستمر المؤلف فى ص/١١ يذكر آيات أخرى من القرآن .. حتى جاء إلى قوله عز وجل : ﴿**ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا .. لا تخاف دركاً ولا تخشى**﴾ فقال .. كلمات فى غاية الدقة مثل «يَبَسًا» أو لا تخاف «دركاً» بمعنى لا تخاف ادراكا . ان الكلمات لتذوب .. وتصطف وتتراص فى معمار وصف موسيقى فريد .. هو نسيج وحده بين كل ما كتب بالعربية سابقاً ولاحقاً .. لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلى ، ولا بينه وبين الشعر والنثر المتأخر ، ولا محاولة للتقليد حفظها لنا التاريخ رغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن .. ان العبارة القرآنية تبرز منفردة بخصائصها تماماً ، وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير سوى أن لها مصدراً آخر غير ما نعرف» .

وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول ـ فالسبب كما يقول المؤلف فى ص/١٧ : ـ هو : التعود والالفة والمعايشة والأغراق فى عامية مبتذلة ابعدتنا عن أصول لغتنا .. ثم أسلوب الأداء الرتيب الذى نسمعه من مرتلين ، لا يفرقون بين المواقف : من فرح إلى حزن إلى وعيد إلى بشرى .. وبعض المشايخ يقرأون القرآن على سبيل اللعلعة دون أن ينبض شىء فى قلبه .. ثم الحياة العصرية ومشاغلها ، وتوزّع الانتباه ، وتحجّر القلوب ، وصدأ الأرواح ..

ويطرب المؤلف طرباً شديداً لوصف القرآن الكريم للعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة فى قوله : ﴿**فلما تغشّاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به ....**﴾ فهو اسلوب رفيع ، وكلمة رقيقة ، فريدة لا تجد لها مثيلاً ولا بديلاً فى لغة أخرى ! !

□ ونضيف ـ من عندنا ـ إلى استدلال المؤلف بهذه الآية على بلاغة القرآن واعجازه فى الوصف والتشبيه ـ استدلالا آخر .. هو قوله تبارك وتعالى فى وصف العلاقة الزوجية والجنسية بين الرجل والمرأة : ﴿**هن لباس لكم وانتم لباس لهن**﴾ .

أنه تشبيه فوق التفسير .. ولكنه مفهوم ورائع وحكيم ، وفيه توجيه تربوى واجتماعى يقول للرجل وللمرأة معاً : إن كل واحد منكما ستر للآخر ، كما يستر اللباس لابسه ، ستر عن الحرام .. عن الشهوة والرغبة والطمع فيما لا يحل ، كما إنه ستر لصاحبه عما يحدث بينهما ، من شئون وشجون ، فلا يفضى احدهما للناس عن سر الآخر ، ولا يحدّثهم به .

□ □ □

بعد ذلك يقول المؤلف فى ـ ص/١٩ ـ (لهذه الأسباب مجتمعة .. كان القرآن كتاباً لا يترجم) لأن له لمسات سريعة ، وظلالاً محكمة ، وألفاظاً ذات جرس وصوت وصورة . فهو قرآن فى لغته . أما فى اللغات الأخرى فهو شىء آخر : ﴿**انا أنزلناه قرآناً عربياً**﴾ وفى هذا تحديد فاصل ..

حديث القرآن عن «هموم الرسول»

ونقف الآن قليلاً عن ذكر روائع المؤلف فى محاولته العصرية لفهم القرآن الكريم ، لنعقب على رأى له حول دعوى أعداء الاسلام بأن القرآن من وضع محمد ﷺ ـ يقول الدكتور مصطفى محمود فى ص/٢٤ : لو ان محمداً هو الذى وضع القرآن لبث فيه أشجانه وحالاته النفسية وأزماته وأحزانه .. والقرآن غير هذا تماماً ، فهو يبدو من البدء إلى النهاية معزولاً عن النفس المحمدية بما فيها من مشاغل وهموم ، بل ان الآية لتنزل مناقضة للارادة المحمدية : ﴿**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ..**﴾ ـ أما القرآن فهو لفظاً ومعنى من الله أحاط بكل شىء علماً .

ودفاع الدكتور مصطفى محمود عن كون القرآن من كلام الله عز وجل دفاع محمود ، ولكن ما استدل به على دفاعه غير وارد وغير صحيح .

فالقرآن ـ على خلاف ما يقول الدكتور ـ يتحدث عن هموم محمد ﷺ ، واتهامات قومه له ، وعن تصرفاته وعن آماله فى هداية أمته .. من ذلك قوله :

□ ﴿ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعاً﴾ (١)

□ ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ (٢)

□ ﴿والضحى والليل إذا سجى ... ما ودّعك ربك وما قلى﴾ (٣)

□ ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض﴾ (٤)

□ ﴿إنك لا تهدى من أحببت .. ولكن الله يهدى من يشاء﴾ (٥)

□ ﴿ام يقولون افتراه .. قل إن افتريته فعلى اجرامى﴾ (٦)

□ ﴿بل قالوا : أضغاث أحلام . بل افتراه . بل هو شاعر﴾ (٧)

□ ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ (٨)

وهناك ، فى القرآن ، قصة زواجه بزينب ومادار حولها من كلام الناس ، فى سورة الأحزاب ، وقصة الافك المفترى على أحب أزواجه إليه (عائشة) رضى الله عنها ، فى سورة النور ، وقصة مغاضبة بعض أزواجه إياه ، فى سورة الأحزاب أيضاً .

ولكن هذا لا يعنى أن القرآن من وضع محمد عليه الصلاة والسلام ، لكى نحاول نفيه أو عدم وجود شيء منه فى القرآن .. بل العكس هو الصحيح : إن وجود هذه المشاكل وحديث القرآن عنها ، واعطاء الحلول المناسبة لها دليل على أن القرآن من عند الله ،

---

(١) سورة يونس/٥٦ .
(٢) سورة الكهف/٦ .
(٣) سورة الضحى/٢،١ .
(٤) سورة الانفال/٦٧ .
(٥) سورة القصص/٥٦ .
(٦) سورة هود/٣٥ .
(٧) سورة الانبياء/٥ .
(٨) سورة الحجر /٩٧ .

وانه نزل بتوجيه الرسول إلى ما يريده الله ويحبه ويرضاه ..

أما الآية التي ذكرها المؤلف : ﴿**ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه**﴾ : فهي ليست مناقضة للإرادة المحمدية كما ظن المؤلف ، وإنما هي توجيه من الله لرسوله ﷺ عندما لاحظ عليه استعجاله في تلقِّي القرآن من جبريل عليه السلام والاجتهاد في حفظه لئلا تنفلت منه آياته ، وقد تكرر هذا التوجيه في سورة القيامة : ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾ وفي آيات القيامة هذه مع التوجيه ، طمأنة للرسول ﷺ بأن الله هو الكفيل بحفظه في صدر الرسول بحيث لا ينساه ، ولا يتفلت من ذهنه شيء من معناه ، وفي سورة الحجر آية أخرى تؤكد ضمانة الله بحفظ القرآن ، بصورة عامة ، عن التحريف والتزييف ، وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**﴾ .

والخلاصة : أنه ليس في حديث القرآن عن هموم الرسول ، ومشكلاته أو مشاغله حجة على دعوى أن القرآن من وضعه ، حتى يحاول المحاولون نفي ذلك أو يروا خلوّ القرآن منه .

في القضاء والقدر

ومن روائع المؤلف : حديثه عن القضاء والقدر في ص/٢٥ وما بعدها ـ وفي ص/٣٧ من الكتاب يقول ما خلاصته : إن علم الله السابق بما سوف يكون عليه الانسان من هدى أو ضلال ، وخيرٍ أو شر .. لا يعني الجبر والحتم ، وضرب لذلك مثلاً ـ ولله ولصفاته المثل الأعلى ـ أن يتوسم الأب في أحد أبنائه حب العلم والتحصيل

فيمده بالتسهيلات والتيسيرات ، ويبعثه إلى الخارج فى بعثه ، ويرى فى الابن الآخر العكوف على الفساد وصحبة قرناء السوء ، فيكتفى بماله من حظ محدود فى التعليم فى بلده ، ولو فعل عكس ذلك لكان ظالماً ، ولأكره أبناءه على غير طبائعهم .

إن هذا التوسم المسبق ليس فيه عنصر اكراه ولا اجبار ، إنما هو مجرد سبق علم ، فالأب يعلم مسبقاً من أخلاق ولده انه سوف ينصرف إلى اللعب ، ويهمل كتبه ودروسه ، فاذا انصرف إلى اللعب فعلاً واهمل دروسه ، فان ذلك لا يكون اكراهاً منه له ، وإنما تأتى التجربة . فتكشف له نفسه وبذلك يحق عليه العقاب صدقاً وعدلاً . ولهذا كانت الحياة حقل تجربة واختبار لمعادن النفوس : **﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾** [1] .

ولكن الدكتور مصطفى محمود حين يتحدث عن موضوع رفض الأعذار التى يبرر بها المخطئون اخطاءهم .. من عرف أو بيئة أو مجتمع أو تربية ؛ يقول : إن الله حسم ذلك فى القرآن : **﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾** [2] **﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدَّت قلوبكم﴾** [3] .

مع أن الآيتين لا تصلحان أن تكونا دليلاً على ما يريده المؤلف ، فهو يريد أن يحتج بهما على أن الله عز وجل لا يؤاخذ من يعتذر عن

---

(١) سورة الملك/٢ .
(٢) سورة البقرة/٢٢٥ .
(٣) سورة الاحزاب/٥ .

أخطائه وذنوبه بتأثير البيئة أو تربية الوالدين أو أعراف المجتمع والآيتان بعيدتان عن هذا المعنى بعد المشرق عن المغرب .

فانهما تعنيان الخطيئة التى ترتكب عمداً وبنية سابقة أو بإصرار عليها قبل ارتكابها فتكون اذن المؤاخذة والعقوبة أما الخطأ الذى يقع من الانسان ، فيكون مخالفة دون تعمد ، ولا اصرار عليه ، وكذلك اللغو فى الحلف الذى يتكرر دون نية ودون اصرار ؛ فانهما لا جناح على الانسان فيهما ..

ولكن الدكتور مصطفى محمود أدخل فى نطاق الخطأ غير المتعمد واليمين اللغو : الأفعال التى يرتكبها الانسان بتأثير البيئة والمجتمع والعرف والتربية ، وهى فى نظر القرآن أخطاء متعمدة وانحرافات مقصودة .

فقد عاب على المشركين قولهم فى تبرير شركهم والاعتذار عن كفرهم : ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ [1] وكرر الانتقاد لهم كثيراً فى آيات عديدة ، كما قرر استقلال الانسان فى مسئوليته عن نفسه تفكيراً وتدبيراً فى قوله عز وجل : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾ [2] .

□ □ □

وفى ص/٤٤ يورد قوله تبارك وتعالى : ـ من سورة الشمس ـ ﴿**ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها**﴾ ثم يعقب بقوله : أى

---

(١) الزخرف/٢٣ .
(٢) الأسراء/٣٦ .

فتح أمامها سبيل الخير والشر ، وتركها أمام الطريقين لتختار ، ولهذا قال : فجورها وتقواها . ولم يقل فجورها أو تقواها ، لأنه فتح الطريقين معاً ليجعل للنفس حرية الاختيار : لذلك أردف موضحاً : ﴿**قد أفلح من زكَّاها وقد خاب من دسَّاها**﴾ «فرد الفلاح والخيبة للنفس المخيرة» .

وفى ص ٤٥ ـ يتحدث المؤلف عن كون حرية الفعل حقيقة والقدر أيضاً حقيقة ، وان علينا أن نفهم هذا الأزدواج وكيف لا يلغى أحدهما الآخر .. كيف لا يلغى القدر الحرية ، وكيف لا تلغى الحرية القدر ؟ ويستدل بالآية : ﴿**إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين**﴾[1] فلو شاء الله ذلك لفعله ، ولكنه لم يفعله ، لأنّه أراد الا يقهرنا على الإيمان ، فتنتفى حرية الاختيار ، التى جعل منها جوهر وجودنا ، حيث أراد لنا أن نكون أحراراً نؤمن .. أو نكفر ! !

والمؤلف يركز مراراً على تقرير حرية الفعل فى الانسان ، فيقول فى ص /٤٧ ان القرآن يشرح فى آية نموذجية ما بين القدر الإلٓهى والحرية الفردية من تلاق ، ويرفع ما بينهما من تناقض ، حينما يروى ما حدث من تكاسل المنافقين عن نصرة الرسول ﷺ وعدم الخروج معه فى غزواته : ﴿**ولو أرادوا الخروج لأعّدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين**﴾[2] فها هنا منافقون بالقلب ، لا يريدهم بالنية أن ينصروا نبيهم فيقضى

---

(١) الشعراء الآية ٤ .

(٢) التوبة/٤٦ .

عليهم بمثل نيتهم فلا يريد لهم كما لا يريدون هم لأنفسهم ، ويثبطهم ويكره انبعاثهم كما كرهوه هم لأنفسهم ! !

وهكذا ينتفى ما يبدو من تناقض بين القدر وحرية الانسان ، حيث تماثلت إرادة الانسان مع القدر الإلهى ، وأصبح من السهل علينا أن نفهم آيتين متناقضتين فى الظاهر مثل قوله : **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** وقوله : **﴿وما تشاءون الا أن يشاء الله﴾** : ففى الآية الأولى يصف الله ارادة الانسان الحرة ، وفى الثانية يتكلم عن إرادته الإلهية وهى القدر .. وما بين الاثنين من تناقض فى الظاهر فقط . فقد فهمنا أن الله لا يريد للانسان الا ما يريده الانسان لنفسه : **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** (٢) . إن الله عز وجل يقدم للإنسان من التيسيرات ما يماثل ضميره وقلبه ، وبالتقاء الاثنين : الحرية والقدر ينفذ القضاء ويتم الفعل بإرادة الله ومشيئته ، وفى نفس الوقت باختيار الانسان وحريته دون تناقض : **﴿قل كل من عند الله﴾** فأنت تشاء ولكن قدرتك على أن تشاء وتختار هى منحة من الله ، ومشيئة عليا ، ومن هنا كانت الآية : **﴿وما تشاءون الا أن يشاء الله﴾** تقريراً للحقيقة الكبرى ، وليست كلاماً متناقضاً فهى أنك حر ولكن حريتك منحة وهبة ومشيئة من المعطى .

مطلق المشيئة الإلهية :

□ قلت : إن المؤلف يريد أن يعنى ــ بعبارة أوضح ــ : ان

---

(٢) الرعد/١١ .

الانسان عندما يكفر بالله ، أو يخالف أمره ، أو يقارف ما حرَّمه الله عز وجل ، فإنه لا يفعل ذلك استكراهاً لله تبارك وتعالى ، ولا رغماً لارادته ، وحتى عندما يفعل الخير أو يقوم بطاعة فإنه لا يعمل ذلك بعيداً عن إرادة الله وفضله عليه ، وتوفيقه له .

ومن هنا جاءت الآية : ﴿**قل كل من عند الله**﴾ والآية : ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**﴾ والآية : ﴿**وما يذكرون الا ان يشاء الله**﴾ والآية : ﴿**ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون**﴾ .

فلله عز وجل فضل التوفيق للإنسان إلى فعل الخير ، وله تبارك وتعالى مطلق المشيئة فيما يقترفه الانسان من مخالفات .

ولذلك استثنى الله عز وجل بمشيئته المطلقة فى قوله : ﴿**لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**﴾ فمع ان الله صدق رسوله الرؤيا بالحق ، وأكد دخول المسلمين المسجد الحرام بنون التأكيد فى (لتدخلن) الا أنه استثنى بقوله (إن شاء الله) وذلك كما اسلفنا لتقرير مطلق المشيئة الإلهية .. حتى فى تحقيق الوعد ، وإنجاز العهد ، وتصديق الرؤيا[1] .

آدم .. والأطوار التى مرّ بها خلق الانسان

وفى ص ٦٦/٦٧ـ : يتحدث المؤلف عن خلق آدم عليه السلام ، ويسرد ما جاء عن ذلك فى القرآن من آيات ثم يذكر قوله

---

(١) فى تعقيبنا على فضيلة الشيخ محمد أمين الشنقيطى تفصيل لقضية المشيئة الآلهية المطلقة وجاء فى القرآن من آيات عديدة حولها الجزء الاول من كتاب : (القران كتاب أحكمت آياته) ص/٨٨ .

عز وجل : ﴿**وقد خلقكم اطوارا**﴾ ويعقب عليها بقوله : (.. ومعناها أنه كانت هناك قبل آدم صور وصفوف من الخلائق جاء هو ذروة لها) ..

ولا شك أن هذا الخلط بين آيات تتحدث عن خلق آدم وأخرى تتحدث عن الانسان ... كل إنسان على تعاقب الزمان ، واختلاف المكان . فإن هذه الآية ﴿**وقد خلقكم اطوارا**﴾ جاءت فى سياق نوح عليه السلام إلى قومه : ﴿**مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم اطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ، وجعل القمر فيهنَّ نوراً ، وجعل الشمس سراجاً**﴾ !

فهو ــ أى نوح عليه السلام ــ فى سورة من القرآن خاصة به ــ يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، ويعجب كيف يشركون به خلقه ، من شجر وحجر وشمس وقمر فى عبادته ، ولا يعظمونه ويجلونه .. وهو الذى خلقهم ، خلقهم كما يرون وكما يحسون اطواراً : من نطفةٍ ، فعلقة ، فمضغة ، فعظام مكسوة لحماً فجنين فبشر سوىّ[1] .. ثم يذكرهم بما يرون أيضاً وبما يحسون حولهم فى الكون من سماوات تضىء فيها الشمس ، وينير القمر ، وأرض جعلها الله بساطا ليسلكوا منها سبلاً فجاجا .. الخ ..

فأين هذا المعنى الواضح للأطوار وللسياق الذى يؤيده ء مما يقوله المؤلف الفاضل من أن معنى الأطوار : هو الصفوف والصور من الخلائق التى سبقت آدم عليه السلام ثم جاء هو ذروة لها ؟ .

---

(١) هناك رأى آخر فى تفسير (الاطوار) بأنها أطوار الطفولة .. فالصبا .. فالشباب فالشيخوخة والهرم ــ وهو صحيح ايضا .

على أن آية أخرى ـ من القرآن نفسه ـ تؤيد وتؤكد هذا المعنى للأطوار وهى قوله عز وجل : **﴿يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث﴾**[1]

وجاء تفصيل هذه الأطوار فى سورة الحج فى الآية الخامسة منها وفى سورة (المؤمنون) من الآية (١٢) إلى الآية (١٤) .

وقد اثنينا على الدكتور مصطفى محمود فى فاتحة نقدنا لكتابه لأنه يدعو إلى تفسير القرآن بالقرآن ، ولكنه يبدو أنه لم يلتزم بهذا المبدأ التفسيرى الصحيح .

وإذا كان المؤلف الفاضل يريد بهذه الصفوف من الخلائق السابقة لآدم وذريته : (الجن) الذين افسدوا فى الأرض ولذلك سألت الملائكة : **﴿أتجعل من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾** فان الانس (بنى آدم) لا يعدون تطوراً لخلق الجن الذين مايزالون خلقاً آخر يعايشون الإنس إلى يوم القيامة . ولهم طبيعتهم الخاصة ، وقوانين حياتهم وتناسلهم ، ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك كما يحدثنا القرآن :

- ☐ **﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾** .
- ☐ **﴿وانا منا المسلمون ، ومنا دون ذلك ...﴾** .
- ☐ **﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ..﴾** .

ويذكر المؤلف فى ص/٦٧ ـ هذه الآية : **﴿الذى أعطى كل شيء خلقه ، ثم هدى﴾** ويفسرها بقوله : «إن الله هدى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها فى آدم» .

---

(١) سورة الزمر الآية ٦ .

وقد أبعد هنا أيضاً .. فالآية عامة شاملة ، ولا علاقة لها بحكاية تطور الخلق قبل آدم أو بعده ، وهى واردة لبيان قدرة الله وحكمته خَلْقاً وتقديراً ، أو خلْقاً وهدايةً ، لأن الأمرين مرتبطان إحداهما بالآخر .. فقد خلق الله الخلق كله من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وأودع فى كل منها القُوىَ والقُدَر والنواميس التى تهتدى بها فى حياتها ومعيشتها . وفى قيام الكون ومسيرة الحياة .

ولهذه الآية مثيلات مُؤكِّداتٌ لهذا المعنى الذى يكرره القرآن ليذكر الناس بقدرة الله ووحدانيته التى تفرض توحيده فى عبادته لأنه الخالق المقدِّر والهادى المدبِّر :

□ ﴿**سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خَلَقَ فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى**﴾ (١)

□ ﴿**ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتيْن ، وهديناه النجديْن**﴾ (٢)

□ ﴿**إنا هديناه السبيل : اما شاكراً واما كفورا**﴾ (٣)

□ ﴿**إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى**﴾ (٤)

□ □ □

وفى الصفحة نفسها يذكر المؤلف الفاضل هذه الآية : ﴿**وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم**﴾ (٥) ثم

---

(١) سورة الأعلى من ١ – ٣ .

(٢) سورة البلد من ٨ – ١٠ .

(٣) سورة الانسان الآية ٣ .

(٤) سورة الليل الآيات ١٢ و ١٣ .

(٥) سورة الانعام الآية ٣٨ .

يفسرها بقوله : (هنا ربط القرآن بين جميع المخلوقات فى وشيجةٍ عائليةٍ واحدة .. إنها كلها أمم أمثالنا !)

والآية لا تعنى ما فهمه المؤلف من ربط المخلوقات فى وشيجة عائلية واحدة ، فالواقع المادى : أن المخلوقات الأرضية ليست عائلة واحدة ... فهى عائلة إنسانية ، وأخرى حيوانية ، وثالثة نباتية ، ورابعة جمادية .

وإنما تعنى الآية أن كل صنف من هذه المخلوقات أمة بحالها ومآلها ، لها نواميسها وعاداتها وأخلاقها وطرائق حياتها وفق ما خلقها الله عليه ، ووفق ما سنَّ لها من قوانين الفطرة والغريزة والإلهام .

□ □ □

وفى ص/٨٨ يورد المؤلف الحديث النبوى : (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد) ثم يذكر الآية : ﴿**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين .. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾ ويعقِّب بقوله : «وهى كلمات تعنى سبق الوجود المحمدى على جميع الأنبياء إذ يعتبر القرآن جميع الأنبياء مسلمين ومحمد أولهم» .

ولا ندرى كيف نسى الدكتور مصطفى الآية القرآنية الصريحة التى تقول : ﴿**ما كان محمد ابا أحدٍ من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[1] ؟ . أما الحديث النبوى فهو لا يعنى أكثر من أنه

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

سابق فى العلم والتقدير الإلّهيّين ، لا فى الوجود المادى كما يقول المؤلف ، وليس هو أولهم وجوداً أو بعثةً ، وإنما هو (خاتم) كما يقرر القرآن الكريم ، وان كان أفضلهم وأكرمهم .

العذاب والنعيم ـ هل هما حسيان أم معنويان ء

واحسن الدكتور مصطفى حين قال ـ فى ص/٨٩ : (إن الله لا يعذب بالفعل ، ولكن الله يعدل .. فهو لا يساوى بين ظالم ومظلوم ، وبين قتيل وقاتله ..)

ولكنه تجاوز حدود عقله وفهمه حين فسّر فى ص **٩٣** ـ العذاب الأخروى بأنه الاحساس الداخلى بالهوان والخزى والخسران ، وأن كان قد رجع ـ فى ص **٩٤** ـ فقال بامكانية أن يكون العذاب حسياً ومعنوياً . وليته وقف عند هذا الحد ، أو قال مثل قوله الأول عن (النعيم) فى الجنة : بأنه غيب لا يمكن التعبير عنه بلغة الأرض ، فكذلك عذاب النار بلا اختلاف .

ويتناقض المؤلف من جديد ـ فى ص **١٠٥** إذ يعود إلى القول : بأن عذاب النار معنوى لا حسى ، فهو يذكر الآية : ﴿**إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**﴾[1] ويعقب عليها بقوله : (حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا) ثم يضيف : (إنما قد لزم كل واحد عمله كظله ، وحق القول ونفذ العدل الإلّهى) .

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٤ .

وهذه الآية لا تشير إلى شيء مما فهمه الدكتور مصطفى محمود لا تصريحاً ولا تلميحاً ، بل هى صريحة فى تقرير العدالة الإلهية فى محاسبة الانسان .. حيث يقدم إليه كتاب أعماله فيرى ما عمل من خير وشر ، صغائره وجلائله ، ويراه مدوَّناً بأزمانه ودلائله .. وقد أكَّدت هذا المعنى آيات أخرى عديدة منها قوله تبارك وتعالى : ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾ . وقوله عز وجل ـ حكاية عن الكفار والعصاة ـ : (**ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها** ؟) ولذلك ختمت الآية التى استدل بها المؤلف بقوله عز وجل : ﴿**كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**﴾ فأنت لا تجد شيئاً مزيداً ولا منسوباً إليك الا ما عملته فعلاً ..

أما قول المؤلف : (تعالى الله أن يعذبنا شهوة فى عذاب) **فهو** قول حق وقد سبق القرآن نفسه إلى تقرير ذلك فى قوله عز وجل : ﴿**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكراً عليماً**﴾ [1]

ومع ذلك فان عذاب الله لمن استحقه من الكفار والفساق : حق لا ريب فيه ، والآيات القرآنية التى تؤكده أكثر من أن تحصى ـ هنا ـ وتأتى فى مقدمتها :

- ﴿**فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين**﴾ [2]
- ﴿**فكلاً أخذنا بذنبه .. فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من اغرقنا ،**

(١) سورة النساء الآية ١٤٧ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٥٥ .

وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمون﴾[1]

وهذا .. وإن كان عذاب الدنيا ، فان عذاب الآخرة كما جاء فى القرآن نفسه أشد وابقى ووصف تارةً بأنه : أشق ، وأخرى بأنه : أكبر كما وصف القرآن أيضاً أخذ الله للعصاة بأنه أليم شديد ، وانه تبارك وتعالى : عزيز ذو انتقام .

وهذا يكفى لنقض مفهوم المؤلف فى ص/١٠٧ لكلمة (العذاب) فى القرآن : بأن من عاش دنياه شهوانياً بهيمياً فسيكون عذابه أن يعيش نفس المعيشة الحيوانية البهيمية فى الآخرة ، ومن كان يشتعل صدره حقداً وحسداً وطمعاً وجمعاً للمال من كل طريق حرام فسوف يكون عذابه بإبقائه فى الآخرة على صفته فى الدنيا !

النظرات المتبادلة بين الجنسين عمداً هل هما حرام أم حلال ؟

وفى ص/١١١ ــ يذكر المؤلف الآيتين : **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ..﴾**[3] ثم يقول : لا بد من العودة إلى جوهر التحريم .. إن مجرد إرسال النظر لا ضرر فيه ، ولكن الضرر فيما يجرى فى القلب والعقل نتيجة إمعان النظر الخبيث الخ ..) .

وكلام الدكتور مصطفى محمود عن النظر إلى النساء الجميلات ، ورأيه : ان العبرة بما يستقر فى القلب والعقل لا بمجرد النظر يبدو

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

(٣) سورة النور الآيات ٣٠ و ٣١ .

سليماً لأول وهلة ، ولكن الواقع غير ذلك فإن الأمور لا تقع فجأة ولا مصادفة ، بل لا بد من أسباب ومقدمات ولا بد من تمهيد وإعداد ، ولذلك حرم القرآن كما حرمت السنة النبوية : النظرة الثانية ، وأمر بغض النظر .. منعاً للوسيلة المؤدية حتماً إلى النتيجة ، لقد جاء فى الحديث النبوى : (النظرة الأولى لك والثانية عليك) لأن الانسان لا يملك النظرة الأولى ان يمنعها ، ولكنه يملك الثانية والثالثة وما بعدها ، ولذلك أمر القرآن بغض البصر بعد النظرة الأولى التى تقع مصادفة ، ودون قصد وارادة .

□ وجاء فى الحديث القدسى كذلك : (**النظرة سهم مسموم من سهام ابليس من تركها مخافةً منى اعقبته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه**)[١] .

□ وفى حجة الوداع جاءت فتاة تستفتى النبى لله فى أمر من أمور الحج ، وكان الفضل بن العباس رديف الرسول على راحلته ، وهو فتى جميل ، فكان ﷺ يصرف وجه الفضل عن الفتاة ليحول دون نظراته المتتابعة إليها .

□ وكان عبدالله بن أم كلتوم مرة فى بيت النبى ﷺ وهو ضرير فأمر الرسول زوجتيْه ـ لعلها عائشة وحفصة ـ أن تحتجبا فاحتجبتا وسألتاه : أليس هو أعمى يا رسول الله ؟ فردَّ عليهما : (أو عمياوان انتما) ؛ وهذا يعنى أن تغض النساء أيضاً أبصارهن عن الرجال حتى ولو كانوا عميا لا يبصرون .

هذا قليل من كثير مما ورد عن حَظْر النظر إلى المرأة الجميلة

---

(١) رواه الحاكم وصححه .

والرجل الجميل ، لما يتأدَّى عنه من انبعاث الرغبات والشهوات الجنسية الحرام .

الشرك وصوره ومظاهره :

وفى ص/١١٤ - يقول : الشرك ليس فقط عبادة الأصنام ، فهذا لون قديم ساذج من الشرك إنتهى أمره .. والأصنام الآن غير اللات والعزى وهبل .. إن خطر الأصنام ان تتخذ نفسك صنماً .. أن تعبد رأيك وهواك ومصلحتك .

أما أن الشرك ليس هو عبادة الأصنام فقط .. فهذا صحيح لأن الشرك تتعدد صوره ومظاهره ، ولكنه يتفق فكرة وعقيدة ومعنى . فأما أن يتخذ المرؤ إلّهه هواه أو مصلحته أو رأيه .. فهذا أيضاً أمر واقع قديماً وحديثاً ، وقد جاء القرآن ذاكراً هذه الصورة من صور الشرك المتعددة فى قوله عز وجل : ﴿**أفرأيت من اتخذ إلّهه هواه ؟ أفأنت تكون عليه وكيلا**﴾[1]

ولكن غير صحيح : ما قاله الدكتور مصطفى محمود من أن عبادة الأصنام لون قديم ساذج من الشرك انتهى امره ،، فمازالت الأصنام تعبد من دون الله حتى اليوم وفى أرقى الدول والبلاد حضارةً وتقدماً علمياً وفكرياً .. فى الدول المسيحية والدول غير المسيحية التى توجد بها كنائس يتوَّجه إليها المسيحيون .. حيث تخضع اعناقهم وتدعو ألسنتهم وتتجه أنظارهم إلى تمثال المسيح وتمثال العذراء ..

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

والأصنام التى تعبد من دون الله .. مازالت قائمة فى الدول الاسلامية أيضاً ، أو الدول المنتسبة إلى الاسلام ! ! حيث أضرحة الأولياء فى المساجد وغيرها محفوفة بالسدنة والخدم ومضاءة بالشموع والمصابيح الكهربائية .. تستقبل الناس من ضعاف الايمان وصغار العقول ، وعُمْى البصائر .. يقدِّمون من النذور والقرابين لأصحاب هذه القبور ملتمسين البركة أو الشفاء من مرض أو عقم ، أو قضاء حاجةٍ من حاجات الأحياء ، أو حل مشكلةٍ من مشكلات الحياة .

النشأة الآخرة : هي الاعادة ...
وليست نوعاً جديداً

وفى ص/١٣٧ و ١٩٢ ـ يذكر المؤلف جزءاً من آية فى سورة الواقعة : ﴿.. **وننشئكم فيما لا تعلمون**﴾ ويرى أن معنى ذلك أن نشأتنا فى الآخرة مختلفة تماماً عن كل ما نعلم .. أى أنها سوف تكون على صورة مغايرة لما نحن عليه !

وهو ـ كما قلت ـ جزء من آية ، والآية جزء من مقطع فى معنى واحد بعيد جداً عما فهمه الدكتور مصطفى وفسر على ضوئه هذه الجملة القرآنية المبتورة من سياقها .

ولنقرأ المقطع كاملاً : ﴿**نحن قدَّرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون**﴾[1]

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٦٠ ـ ٦٢ .

فى هذه الآيات يتحدث الله عز وجل إلى الكفار الذين ينكرون البعث .. بأنه قدَّر عليهم الموت ، وأنه قادر على أن يبدل أمثالهم فى الدنيا وينشئهم فيما لا يعلمون .. أى ينشئهم خلْقاً آخر : قردة مثلاً أو خنازير ، أو أى صنف من أصناف مخلوقاته ، كما قال عز وجل عن بنى اسرائيل : ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**﴾ .

فهو تبارك وتعالى يهدد المنكرين للبعث بأنه قادر على تبديل خلقتهم الانسانية ، وإنشائهم فى خلْقة أخرى ، ويذكِّرهم بالخِلْقة الأولى .. خِلْقتهم من طين ، أو خِلقتهم من ماء مهين ، والذى بدأ الخلق يعيده من غير شك ، وصدق الله العظيم .

□ ﴿**كما بدأكم تعودون**﴾ (١)

□ ﴿**كما بدأنا أول خلق نعيده**﴾ (٢)

□ ﴿**الله يبدأ الخلق ثم يعيده**﴾ (٣)

□ ﴿**ثم الله ينشىء النشأة الآخرة**﴾ (٤)

□ ﴿**وأن عليه النشأة الأخرى**﴾ (٥)

فليس فى الآية التى ذكرها الدكتور مصطفى محمود ، ولا الآيات التى أوردتها هنا ما يفيد أن النشأة الآخرة أو الأخرى تعنى خَلْقاً جديداً .. من حيث الصورة والنوع ، وإنما تعنى أنه جديد من حيث أنه إعادة بعد الموت والفناء ، ولفظة (آخرة وأخرى) تعنى :

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٩ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .
(٣) سورة الروم الآية ١١ .
(٤) سورة العنكبوت الآية ٢٠ .
(٥) سورة النجم الآية ٤٧ .

ثانية ، فى مقابل (الأولى) التى وردت فى قوله عز وجل : ﴿**ولقد علمتم النشأة الأولى فلو لا تذكرون**﴾ .

وفى القرآن آيات مماثلة للآية التى أوردها المؤلف وأخطأ فهمها وتفسيرها ـ وقد جاءت كلها تهديداً لمنكرى البعث بقدرة الله التى لا حد لها ولا طاقة لأحد من مخلوقاته بها ؛ من ذلك قوله :

□ ﴿**نحن خلقناهم وشددنا أسْرهم ، وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً**﴾ (١)

□ ﴿**انا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين**﴾ (٢)

ويكرر فى ص/١٩٣ ـ ماقاله فى ص ١٣٧ ـ عن تبدل صورة الانسان يوم القيامة ، فيورد الآية : ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**﴾ ويقول : وهو لقاء لا يمكن أن يتم والإنسان فى صورته البشرية .. ويحتج بالآية الأخرى : ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض .. والسماوات**﴾ ثم يستدل بقولٍ ليوحنا اللاهوتى : إنه رأى سماء جديدةً وأرضاً جديدة ! !

وقد رددنا على هذه الزعمة ـ فيما سبق ـ بما فيه كفية وغنية ، ولكنا نضيف هنا أن القرآن تحدَّث كثيراً عن تبدل الأرض والسماوات والجبال والبحار يوم القيامة ، ولم يتحدث قط عن تبدل الانسان كما يرى الدكتور مصطفى محمود أنه سيبعث على صورة غير بشرية .

---

(١) سورة الانسان الآية ٢٨ .

(٢) سورة المعارج الآية ٤١ .

وفى ص ١٣٨ ــ يذكر الآية : ﴿**ادعونى استجب لكم**﴾ ثم يتحدث عن (المتصوف) الذى يمرض فلا يسأل الله الشفاء ، ويقول فى أدب : كيف اجعل لنفسى إرادة إلى جانب إرادة الله فأسأله ما لم يفعل ، وأنا الذى لا أعلم ما ينفعنى مما يضرنى ، ويذكر الرجل الذى يقول : يا رب أرزقنى مئة جنيه ، ويرى أنه يمزح مزحاً سخيفاً ، ثم يسرد الدكتور مصطفى محمود آيات لا رابط بينها وبين موضوع الدعا كآية : ﴿**رب اجعلنى مقيم الصلاة**﴾وآية : ﴿**وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون**﴾ وآية : ﴿**لقد خلقنا الانسان فى كبد**﴾ ...

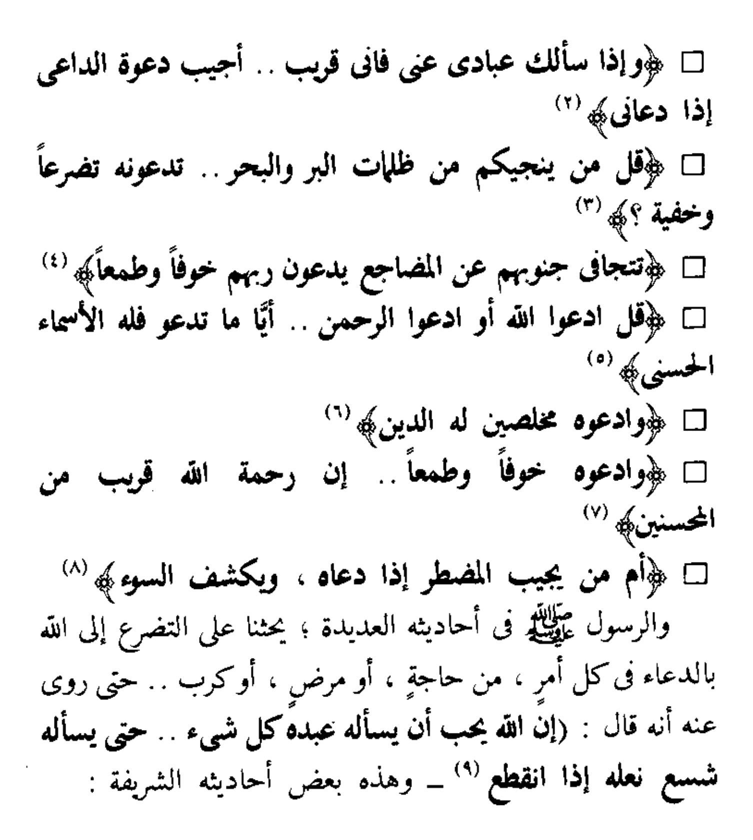
ولا ندرى ان كان المؤلف يؤيد رأى المتصوف فى الدعاء .. أم ذكره دون قصد لتأييده . ولكن قوله عن الرجل الذى يسأل ربه أن يرزقه مئة جنيه : انه يمزح مزاحاً سخيفاً .. يجعلنا نعتقد أن الدكتور مصطفى محمود يرى رأياً شبيهاً برأى المتصوف فى الدعاء .. وهذا ما يدفعنا إلى التعقيب عليه ..

إن الدعاء مطلوب من العبد لربه . والقرآن فى عديد من آياته يُغرى الناس بالتوجه إلى الله بالدعاء : استشفاءً من مرض ، أو استقضاءً لحاجة ، أو استغناء من فقر ، أو استغفاراً من خطيئة ــ يقول الله عز وجل فى آيات متعددة من القرآن الكريم :

□ ﴿**ادعونى استجب لكم**﴾[1]

---

(١) سورة غافر الآية ٦٠ .



□ ﴿وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب .. أجيب دعوة الداعى إذا دعانى﴾ (٢)

□ ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر .. تدعونه تضرعاً وخفية ؟﴾ (٣)

□ ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ (٤)

□ ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن .. أيًّا ما تدعو فله الأسماء الحسنى﴾ (٥)

□ ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ (٦)

□ ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً .. إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ (٧)

□ ﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء﴾ (٨)

والرسول ﷺ فى أحاديثه العديدة ؛ يحثنا على التضرع إلى الله بالدعاء فى كل أمرٍ ، من حاجةٍ ، أو مرضٍ ، أو كرب .. حتى روى عنه أنه قال : (**إن الله يحب أن يسأله عبده كل شىء .. حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع** (٩) ــ وهذه بعض أحاديثه الشريفة :

---

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦ .
(٣) سورة الانعام الآية ٦٣ .
(٤) سورة السجدة الآية ١٦ .
(٥) سورة الاسراء الآية ١١٠ .
(٦) سورة الاعراف الآية ٢٩ .
(٧) سورة الأعراف الآية ٥٦ .
(٨) سورة النمل الآية ٥٦ .
(٩) التشسع : هو الرباط الذى تدخل فيه القدم من سطح النعل .

- **(لا يرد القضاء الا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر الا البر ، وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)**(١)
- **(الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وان البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)**(٢)
- **(ليس شىء أكرم على الله من الدعاء)** .
- **(الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض)**(٣)
- **(من لم يسأل الله يغضب عليه)**(٤)
- **(لا تعجزوا عن الدعاء فانه لا يهلك مع الدعاء أحد)**(٥)

إذن فالرجل الذى يسأل ربه مئة جنيه ليس سخيفا .. لأن الله يحب أن يسأل عبده كل شىء حتى التافه والبسيط من حاجاته وآماله ، ولأن : (الدعاء هو العبادة) كما جاء فى حديث نبوى صحيح ، والله عز وجل يقول : ﴿**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**﴾ .

وانما السخيف ذلك المتصوِّف الذى يرى سَفَهاً وجهلاً : أن توجهه إلى الله بالدعاء هو مشاركة لله فى إرادته ، وأنه سؤالٌ لما لم يرد الله أن يفعله ! !

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .
(٢) رواه الحاكم فى المستدرك .
(٣) رواه الحاكم .
(٤) رواه الحاكم .
(٥) رواه الحاكم .

وفى ص/١٤١ و ١٤٢ ـ يعود إلى سخافات المتصوفين فيقول عنهم ما يقولونه عن أنفسهم : من أنهم أهل الحضرة ، وان علمهم لدنّى ، أى من لدن الله ، وليس علما نقلياً من الكتب ، كما يفعل الفقهاء الذين يأخذون علمهم عن الموتى فيقولون حدثنا فلان عن فلان عن فلان ـ ويصفون أنفسهم ، أى المتصوفة بأنهم يأخذون أنفسهم بالرياضيات الروحية العنيفة كالصيام والعبادة المتصلة إلى درجة إفناء الذات فى الله .. وسيلتهم إلى الله اسماؤه الحسنى ، ومحبته القصوى لا شاغل لهم الا ذكره ، وهؤلاء كما يقول الدكتور مصطفى محمود ، هم أهل السر والقرب .. هم الأولياء الصالحون حقاً ! .

ونحن نقول : إنهم هم السخفاء حقاً .. لأنهم يزعمون لأنفسهم انهم انبياء يتلقون علمهم اللدّنى من الله مباشرة وانهم لا يحتاجون إلى القرآن وأحاديث الرسول ﷺ .. اللذين فيهما علم العقيدة وعلم الشريعة ـ الا انهم هم الجهلاء والسفهاء .. ولكن لا يشعرون !

الانسان يتعلَّم أم يتذكَّر؟

وفى ص/٩٩ ـ يذكر الدكتور مصطفى محمود نظرية نفسية تزعم أن المعارف كلها تكون مخبؤة مكنوزة داخل نفس الانسان ولكن تحجبها عنه غرائزه وشهواته ولهذا فالتعلم هو فى حقيقته تذكّرنا بارتفاع حجب النفس وشغوفها . ولا يكون تعلماً من عدم ، فالطفل لا يتعلم أن ٢ + ٢ = ٤ ، وإنما هو فقط يتذكَّر حقيقة باطنة

فى روحه ولد بها .

وهذه النظرية : كلام فارغ ، وما أكثر ما يساق إلى الناس المغفلين من تخريفات وجهالات يزعم اصحابها أو الناقلون عنهم : أنها نظريات علمية لا تقبل السؤال ولا الجدال ، ولا النقد ولا التخطئة !

لو قيل : إن بعض العلماء والمفكرين يتصرفون ويسلكون خلافاً لما ينبغى لهم . وإن ذلك نتيجة لحجب شهواتهم وغرائزهم لمعارفهم وما ينادون به من مبادىء ومثل أخلاقية .. لقلنا : هذا صحيح لأن الغرائز والشهوات الحيوانية فى النفوس البشرية تحجب فطرتها السليمة عن الظهور ، فيكون الجهل ، ويكون الخطأ ..

أما أن كل الأطفال ـ بإطلاق ـ يولدون علماء بكل شىء ، وان شهواتهم وغرائزهم تحجب هذا العلم الكامل ـ المخبوء فى نفوسهم .. حتى يتذكرون ، وان تعليمهم فى المدارس والمعاهد والجامعات إنما هو تذكير وليس تعليماً لأشياء جديدة على الحقيقة ـ فهو هراء وتخريف ، لأن (الواقع) المادى والنفسى يكذب هذه (الخرافة) المسماة نظرية نفسية ! ! .

وصدق الله العظيم فيما يقول : ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ـ لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة .. قليلاً ما تشكرون**﴾[1]

والآيات القرآنية التى تذكر تمييز الله بين الناس وخاصة الأنبياء

(١) سورة النحل الآية ٧٨ .

(بالعلم) وتفضيله للعلماء كثيرة جداً .. وحسبنا هذه الآية التى يوجه الله فيها نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿**وقل ربى زدنى علماً**﴾[1] والآية الأخرى التى يمن الله عليه فيها : ﴿**وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك كبيرا**﴾[2]

اصحاب الأديان السابقة ؟

وفى ص/١٤٥ - يذكر الآية : ﴿**إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ - ويعلق بقوله : «إن القرآن يقرر فى وضوح لا لبس فيه ان جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل البعثة المحمدية .. على هدى .. وأن لهم أجرهم يوم القيامة ، وأكثر من ذلك يقرر أنه حتى الذين عبدوا الشمس على أنها رمز وآية من آيات الله وهم الصابئون امثال اخناتون هم أيضاً على هدىً ، ولهم أجر ومغفرة» .

وهذا كلام غريب ، ورأى عجيب ، فالقرآن لم يقل هذا الذى فهمه الدكتور مصطفى محمود ، والعقل أيضاً لا يقبله . ان القرآن - على عكس ما يقول المؤلف - يقرر ويكرر فى عديد من آياته : أن أهل الكتاب من يهود ونصارى قد حرفوا التوراة والانجيل ، وزعمت يهود أن عزيراً ابن الله ، وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله وان الله ثالث ثلاثة .. وقال القرآن عنهم بلفظ صريح : ﴿**لقد**

(١) سورة طه الآية ١١٤ .
(٢) سورة النساء الآية ١١٣ .

كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾ وقال مرة أخرى : **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾** . ولعن القرآن اليهود فى كثير من آياته لكفرهم ، وتحريفهم لأحكام التوراة ، وقتلهم الأنبياء ، واكلهم أموال الناس بالباطل .

إن ما حكاه القرآن عن اليهود والنصارى : واضح صريح ، وليس من قسم المتشابه أو مما يحتمل التأويل ، ولذلك فكلام الدكتور مصطفى محمود عنهم بأنهم على هدى ، وأن لهم أجراً ومغفرةً يوم القيامة لا يعنى الا الذين لم يحرفوا التوراة والانجيل ، ولم يعصوا موسى وعيسى ، ولم يتخذوا المسيح رباً ، ولم يزعموا ان الله ثالث ثلاثة .. وماتوا على عقيدة التوحيد التى جاء بها موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ صافية نقية ، قبل أن يدركوا محمداً ﷺ والا لوجب عليهم الايمان به واتباع شريعته ..

وهذا ما تعنيه الآية التى أوردها المؤلف وحملها ما لم تحمل من معانى ، بل حملها معانى تناقض القرآن ، وتناقض الحقائق التأريخية أيضاً .

والصابئون المذكورون فى الآية ... ليسوا من عبدوا الشمس ، فهؤلاء مشركون لا ريب فى شركهم وكفرهم ـ وانما الصابئون فى الآية هم الذين صبأوا ـ أى مالوا عن عبادة الأوثان ـ على اختلاف مسمياتها واشخاصها ، إلى عبادة الله وحده . والآية نفسها تؤكد هذا المعنى بعبارة صريحة والفاظ واضحة ، إذ تصف اليهود والنصارى والصابئين الذين لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بأنهم : **﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل**

صالحاً﴾ .. ولا يكون إيمانٌ بالله واليوم الآخر وعملٌ صالح .. مع الشرك والوثنية المتمثلين فى اتخاذ المسيح إلّهاً وفى عبادة الشمس أو القمر أو النار ، وفى تحريف التوراة والانجيل ، وقتل الأنبياء واتهامهم بالزنا ، وأكل الربا .. الخ .

□ □ □

حياة الرسول حقيقة أم مجاز ؟

وفى ص/١٩٧ ـ تحت عنوان (البعث) يتحدث المؤلف عن الآية : **﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** فيرى أن الموت وصف حاضر للرسول ﷺ .. أى أنه ميت فى حقيقته ، وإنما حى بالله يسمع به ، ويبصر به ، وينطق به .. وربما تأثر المؤلف فى هذا المفهوم بما قرأه من سخافات المتصوفة وخرافاتهم وتفسيرهم الباطنى للقرآن .

إن المؤلف يريد أن يقول : إن حياة الرسول ﷺ مجازية ، وإن الموت حقيقة .. لأنه اعتبر الآية وصف للحال وليس للاستقبال ، مع أن العبارة القرآنية وسياقها وختامها كل ذلك صريح فى أن المقصود بها المستقبل : أى أن الرسول وجميع الناس سيموتون ، كما هو الواقع فعلاً منذ خلق الدنيا إلى يوم القيامة ، وهو ما يؤكده عز وجل فى آية أخرى : **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد .. أفإن مِتَّ فهم الخالدون﴾** ؟ .

ونقول إن سياق العبارة القرآنية وختامها يؤكِّدان أن المراد بالموت هو المستقبل .. لأن تتمتها هى : **﴿.. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾** ومن المعروف فى علوم اللغة العربية وبلاغتها : التعبير

بالحال عن الاستقبال ، وبالماضى أيضاً كقوله : ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾ وبالحال عن الماضى كقوله : ﴿**يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم**﴾ وهو كثير فى القرآن الكريم .

حقيقة الوجود الإنسانى :

وفى ص/١٣٦ ـ يستمر المؤلف فى تصوراته فيقول : (لا إلَه إلا الله) أى لا موجود بحق الا الله أنا وأنت وهو وهم كلنا : مجرَّد صُوَر تبرق وتختفى على شاشة الوجود !

والصحيح : أن يقول المؤلف : لا معبود بحق الا الله أما نفى وجود غير الله من مخلوقاته من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وشمس وقمر وكواكب وجبال وبحار ، وسماوات وأرضين ـ فليس صحيحاً ولا واقعاً ، ولا هو من مطالب الإيمان بوحدة الله وقدرته .

بل إن الإيمان بوجود هذه المخلوقات ـ وفى مقدمتها الانسان هو ـ الوسيلة إلى الايمان بالله الخالق القادر الحكيم العليم .. فالخَلْق هو دليل الخالق وتعدد أنواعه واختلاف مجالاته هى آيات قدرته ، وعلامات حكمته :

وفى كل شىء له آية * تدل على أنه الواحد [1]

والقرآن الكريم يذكر هذه المخلوقات ، ويذكِّر بها عن الخالق ، ويدل عليه ، ويمنّ بها على الناس انتفاعاً واستمتاعاً .. وعندما يريد القرآن أن يقرر أن الله الخالق القادر العليم الحكيم هو الباقى والدائم لا يقول : إنه لا موجود بحقٍ إلا الله ، وإنما يأتى بتعبير معقول فيقول :

(١) هذا بيت من قصيدة لأحد الشعراء لا اذكر اسمه الآن ..

□ ﴿**كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ (٢)

□ ﴿**لا إله الا هو .. كل شيء هالكٌ الا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون**﴾ (٣)

إنه لا ينفى وجود الموجودات ولكنه يقرر فناءها .. لأن فى هذا الفناء المتتابع البقاء المتتابع أيضاً : ﴿**ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾ (٤)

الحروف التى تبدأ بها السور

وفى ص/٢٥٤ ـ يتحدث المؤلف عن الحروف التى جاءت من أوائل السور القرآنية أمثال : ألم ـ طس ـ حم ويذكر الآراء المختلفة حول تفسيرها ، ثم يعقب قائلاً : (يقول لنا الله إنه خلق منها ومن مثلها القرآن) .

ويبدو أن المؤلف لم يدرس أو لم يطلع على ما قيل حول (خلْق القرآن) وهى الفرية الكبرى التى ردَّ عليها كبار العلماء وانتهوا إلى ضرورة القول بل الاعتقاد بأن القرآن : كلام الله منزل غير مخلوق ! ولو لا خشية الإطالة لفصَّلنا القول فى هذه القضية تفصيلا .

□ □ □

نكتفى بهذا المقدار من حوارنا وتعقيباتنا على الدكتور مصطفى

---

(٢) سورة الرحمن الآيات ٢٧ و ٢٨ .
(٣) سورة القصص الآية ٨٨ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

محمود فى بعض مفهوماته وتفسيراته للقرآن الكريم ، ونكرر أن فى الكتاب وجهات نظر للمؤلف تحمد له ، ويشكر عليها . ولسنا مع الدكتورة بنت الشاطىء فى حملتها العنيفة على الكتاب وعلى مؤلفه .. فهو أى الدكتور مصطفى محمود ـ كغيره ممن تعرض لفهم القرآن قديماً وحديثاً .. أخطاؤه لا تبرِّر منعه وردعه ، فقد أخطأ قبله كثيرون وسوف يخطىء آخرون .

والمؤلف لم يقل : إنه مُفسِّر للقرآن ، وإنما سمىَّ كتابه : (.. محاولة لفهم عصرى) وعلينا أن نحاوره ونناقش أفكاره ، ونقبل السليم منها ، ونرد الخواطىء من وجهات نظره بأسلوب مقنع ، ودليل راجح .

ولسنا مع الدكتورة بنت الشاطىء أيضاً فى احتكار دراسة القرآن وفهمه لطائفة خاصة ، وحظر ذلك على غيرهم ، فإن القرآن صريح فى أن الله يسَّره للقراءة والدراسة ، ودعا الناس جميعاً إلى تأمُّله والتفكير فيه ، والانتفاع بمواعظه وعلومه وآدابه : ﴿**ولقد يسَّرنا القرآن للذكر ، فهل من مُدَّكر**﴾[1] على أنه يجب ـ كما اسلفنا ـ تنبيه الخاطئين وتوجيههم إلى ما ينبغى من استعدادات ومؤهلات لفهم القرآن وتفسيره ، لا أن نقول لهم : لا حق لكم فى ذلك اطلاقاً . فباب الاسلام مفتوح ، وصدر القرآن رحب .. يستقبلان العالم لتكريمه ، والخاطىء لتقويمه ، والجاهل لتعليمه ..

وللدكتور مصطفى محمود ـ كما أشرنا آنفاً ـ لفتات ، وآراء ووجهات نظر سليمة ورائعة ، ومن حقه أن نرضى عنها ، كما أن من

---

(١) فى كتابنا : (مأدبة الله فى الأرض) فصل لشرح هذه المسألة ص ١٥ ـ ٣٦ .

واجبنا أن ننبه إلى ما أخطأ فيه ، أو خالف به الأصول .. وتجاوز به الحدود .

وفى ختام حوارنا للدكتور مصطفى محمود نضيف بعض الملاحظات العامة السريعة إلى ما اسلفناه فى فاتحة التعقيب :

□ يجمع المؤلف بين آيات مختلفات المعنى والسياق ، ويستشهد بها على موضوع أو قضية لا تصلح لها ، ولا تدل عليها .

□ يصف الله عز وجل بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسول الله ﷺ كقوله : المعمارى العظيم ، المهندس الأعظم للكون ، سائق القطار الذى تفوق قدرته ومهارته جميع السائقين .

□ ويقول عن القرآن وبعض آياته وصوره : المعمار القرآنى ، سيمفونية الفاتحة ، الموسيقى القرآنية ..

□ يفسر بعض الآيات بالإسرائيليات ، وينقل عن التوراة والانجيل مع أن القرآن يتهم اليهود والنصارى بتحريفهم كتبهم ، فهى ليست معتمدة فى الاستدلال بها . ثم كيف يكون فهمه عصرياً إذا كان يعتمد فيه على الأقدم .. كما اعتمد أيضاً على شطحات المتصوفة ، وسخافاتهم وخرافاتهم ..

□ يقول عن الرسول (ﷺ) : إنه بدوى راعى غنم من أجلاف البادية .

□ يتناقض فى أقواله وآرائه كثيراً .. فهو حين ينكر على البهائية تفسيرهم غنم موسى بشعبه ، يفسر هو نعلَىْ موسى بنفسه وجسده ...

وحين يقول : إن كل ما جاء عن الجنة والنار والعرش وحملته

ما هو الا ضرب مثال وتقريب ـ يقول فى مكان آخر : إن القطع فى أمر غيبى أكبر خطأ يتورط فيه قارىء القرآن .. فضلاً عن أنه ليس فى مقدورنا ! !

وبعد فلكى يحسن الدكتور مصطفى محمود فهم القرآن عصرياً .. لا بد له من حفظ القرآن ، ومراجعة تفاسيره القديمة والحديثة ، المتفقة والمتعارضة .. ولا بد له من فهم أسباب النزول ومعرفة مجازات القرآن وحقائقه ، وناسخه ومنسوخه . وباختصار : عليه أن يدرس «علوم القرآن» التى ألَّف فيها كبار العلماء قديماً وحديثاً .

وبعد ذلك كله من حقه أن يفهم القرآن فهماً عصرياً على ضوء ما تكشَّف عنه العلم الحديث من معجزات جديدة للقرآن بل للإسلام كله .. لأنه الدين الخالد الذى لا تزيده الأيام وتعاقبها ، وتطورات الحياة والناس الا ثباتاً وقوةً وثقةً بأنه الحق المبين .[1]

---

(١) كتب هذا النقد للطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م واطلع عليه الدكتور مصطفى محمود فى زيارة خاصة للناقد بمكة المكرمة . وفى سنة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م اهدى الدكتور للناقد نسخة من الكتاب فى طبعته الخامسة وقال فى كلمة الاهداء على الغلاف الداخلى للكتاب :

* (إلى الأخ العزيز أحمد محمد جمال ـ هذه طبعة أخيرة من كتابى .. وفيها اضافات كثيرة ، وتعديلات توضح الأمور التى يدور حولها كلامك ونقدك .. ولا شك اننا سوف نلتقى فى هذه الطبعة ونتفق على الكثير ـ أخوك المحب : مصطفى محمود) .

نقد كتاب :
(درة التنزيل وغرة التأويل)

هذا كتاب قيم ونفيس ، وضعه محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب الاسكافى من أهل اصبهان ، وقد برع فى اللغة والأدب .

وفى خطبة الكتاب أو مقدمته : أن المؤلف اهتم «بالنظر والروية فى الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة ، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة تطلّباً لعلامات ترفع لبس إشكالها ، وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها ... حتى صار المبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبيانا ، ولطعن الجاحدين ردّاً ، ولمسلك الملحدين سدّاً ..» الخ [1]

وأكثر الكتاب توضيحات وتعليلات لغوية وبلاغية ، واقله تفسير وبيان لمعانى الآيات القرآنية .

وما يحمد للخطيب الإسكافى أنه تأدّب فى عباراته حين يذكر الآيات المتشابهات والألفاظ المتكررات ، ويحاول تعليل المتشابه أو تبرير المتكرر ، فهو يقول : «للسائل أن يسأل عن الفرق بين كذا وكذا ؟ ، أو للسائل أن يسأل : لماذا تكرر هذا المعنى هنا وهناك – أو للسائل أن يسأل عن اختلاف فاصلة الآية هنا عنها فى الآيات الأخرى ولا يقول : ان فى هذه الآية إشكالاً ، أو إضطراباً ، أو

---

(١) ص ٨ من الكتاب ..

تناقضاً مع غيرها ، كما فعل غيره من المؤلفين»[1] .

والكتاب فى جملته ـ كما اسلفنا ـ قيم ونفيس ومفيد لقارىء القرآن ، وطالب المعرفة والبيان لبعض آياته المتشابهات لفظاً أو معنى ، وحكمة هذا التشابه ، ومغزى هذا التكرار .

وقد بدت لنا ملاحظات يسيرة على تعليلات الخطيب الإسكافى وتوضيحاته فيما سماه «درة التنزيل وغرة التأويل» نذكرها فيما يلى :

□ فى ص/١٦ و ١٧ حاول أن يعلل للفرق بين الآية ﴿**وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين**﴾ والآية : ﴿**وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم ، سنزيد المحسنين**﴾ حيث أدخلت واو العطف على «سنزيد» فى الأولى ولم تدخل فى الثانية .

وقال الخطيب كلاماً كثيراً عن اختلاف النحاة البصريين والكوفيين ، هل يكون المفعول مفرداً أو جملة ؟ وهل يصح أن تكون الجملة فاعلاً أم لا تكون ؟

وفى نظرى أن ذلك التعليل الطويل لا حاجة إليه ، ويكفى أن يقال : إن الجملة «وسنزيد المحسنين» فى الآية الأولى معطوفة على ، «نغفر لكم خطاياكم» وهى فى الآية الثانية حال .. أى زائدين المحسنين أجراً على أجر ، ومثوبةً على مثوبة .

□ وفى ص/٢٣ حاول أن يعلل لورود «معدودة» و «معدودات» فى قوله عز وجل ﴿**وقالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودة**﴾ وقوله :

---

(٢) فى الجزئين ١ و ٢ من كتاب (القرآن كتاب أحكمت آياته) تفصيلات شافية لهذا الموضوع ، وتعقيب على من خالف اسلوب الإسكافى ..

﴿... **الا أياماً معدودات**﴾ بأن الأصل ما كان مفرَده مذكراً كيوم لا يجمع وصفه فيقال : كوز مكسور وكيزان مكسورة ، ولا يقال : مكسورات . وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿**فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة**﴾ ، فإما أن يكون المراد : فى ساعات أيام معدودات ، فحذفت الساعات وأقيم المضاف إليها مقامها ، وإما أن يكون الحق بما فى واحدة تاء التأنيث .

قلت : إن قواعد النحو ، ومذاهب النحاة إنما وضعت أو عرفت بعد القرآن وهو أصل لها ، فكيف تقاس ألفاظه وجمله وإعرابه بهذه القواعد والمذاهب ؟ وقد يكون الصواب : ان نقول إن ما كان مفرداً غير عاقل يجوز جمعه وجمع وصفه مؤنثاً .. كاليوم ، والكوز ، والسرير .

☐ وفى ص/٦٥ و ٦٦ ـ قال كلاماً كثيراً عن قوله عز وجل فى سورة آل عمران : ﴿**إنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فانفخ فيه ، فيكون طيراً بإذن الله**﴾ وقوله أيضاً فى سورة المائدة : ﴿**وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى**﴾ ثم سأل : لماذا قال فى الأولى : «فانفخ فيه والثانية فانفخ فيها» ؟

وكل ما قاله المؤلف من تعليل فى التفريق لا طائل تحته ، ويكفى أن يقال : إن الضمير فى الأولى أعيد إلى الطير وفى الثانية أعيد إلى الهيئة ، وكلا التعبيرين فصيح ومثله كثير فى تعبيرات القرآن إذا تكررت المعانى كقوله : ﴿**انزل عليك الكتاب ـ وانزل إليك الكتاب**﴾ وقوله : ﴿**قولوا آمنا بما أنزل إلينا ، وقوله آمنا بما انزل**

علينا﴾ الخ .

وكذلك أبعد المؤلف ـ ص/٢٦٨ ـ فى تفريقه بين قوله **﴿نسقيكم مما فى بطونه﴾** وقوله : **﴿نسقيكم مما فى بطونها﴾** مع أن الضمير فى الأولى عائد على جنس الأنعام أو نوعها وفى الثانية عائد على اللفظ .

□ وفى ص ٧٢ ـ أطال فى بيان الفرق بين هاتين الجملتين **﴿وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم﴾** **﴿وما النصر الا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم﴾** . الأولى من سورة آل عمران والثانية من سورة الأنفال ، وكان فيما قاله تعسّف وتكلُّف لا داعى إليهما ، ولا نعتقد أن قارىء القرآن أو سامعه يقف متسائلاً عن الفرق بين ختام كل آية منهما بزيادة «إن» فى الثانية .

وكل ما فى الأمر : إن الله وصف بالعزة والحكمة فى الآية الأولى مباشرة وفى الثانية أكَّد الوصف «بأن» .

□ وفعل المؤلف مثل فعلته هذه وتلك فى تكلف التعليل .. فى كثير من الآيات : **﴿جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾** فى سورة فاطر ، وقوله فى سورة آل عمران . **﴿فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾** . فقد تحدث طويلاً عن زيادة «الباء» فى الأولى وحذفها فى الثانية بما لا طائل وراءه ولا مقنع فيه .

□ وفى ص ١٠٠ ـ أورد الإسكافى فى الآيات الثلاث من سورة المائدة التى يقول الله عز وجل فيها : **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم**

الظالمون ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾
وقال : إن المراد بالكافرين والظالمين اليهود ، والمراد بالفاسقين النصارى . وان القول بان الحكم بغير ما أنزل الله كفر هو مذهب الخوارج إذ يذهبون «بمن» إلى المجازاة فى جواب الشرط .

قلت : سبق أن رددنا على مثل هذا الزعم فى تخصيص الكفر والظلم والفسق باليهود والنصارى دون غيرهم . مع أن الحكم عام ولا مخصص له ، رددنا على ذلك مفصلاً فيما ذهب إليه الشيخ أحمد حسن الباقورى من القول بالمقالة ذاتها . وقلنا : إن المسلمين أيضاً إذا حكموا بغير ما أنزل الله فهم كافرون أو ظالمون أو فاسقون على مراتب يعلو بعضها فوق بعض من الفسق إلى الظلم ثم إلى الكفر . فإذا كان الحكم بغير ما أنزل الله جحوداً وإنكاراً لعداليَّة شريعة الله ، وتفضيلا لغيرها عليها فهو كفر صراح [1]

وإذا كان ذلك ميلا وهوى من غير جحود أو تفضيل ، فهو ظلم ، وإذا كان ذلك عجزاً أو جهلاً فهو فسوق ..

واشرنا إلى آيات قرآنية أخرى تؤيد مذهبنا فى ذلك منها :

□ **﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾**

□ **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾** .

□ **﴿أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾** .

---

(١) يراجع ردنا على الشيخ الباقورى فى هذا الجزء ص :

والعبرة ـ فى هذه الآيات الثلاث وفى الآيات الثلاث السابقة ـ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معروف ومعلوم من أصول التفسير.

□ □ □

□ وفى ص/١١٠ أورد الاسكافى هذه الآية :

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ وهذه الآية : **﴿أو لم يروا كم أنبتنا من كل زوج كريم﴾** وتحدث طويلاً عن دخول واو العطف فى الآية الثانية دون الأولى بعد الألف.. وان ذلك للتبكيت .. ومثلها قوله : **﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾** وقوله : **﴿أو لم يروا ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾** .

ثم بعد تعليلات مملة خاف أن يعترض عليه معترض بآية مماثلة لم تذكر فيها واو العطف هى قوله تعالى : **﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء﴾** .

مع أن موضوعها أو مضمونها من القسم المشاهد المنظور كالآيات السابقة تماماً .. ولم يأت بجواب شاف على الاعتراض الذى أورده هو نفسه .

قلت : كان يكفى أن يقال : يجوز الاستخبار والاستنكار بـ «ألم» و «أولم» على سواء ، ولا حاجة إلى إيراد هذه العليلات المفتعلة والمبررات المتكلفة ، خاصة وقد جاء القرآن نفسه بالأسلوبيْن فى قضية واحدة تكرر الاستنكار فيها بالألفاظ نفسها مع اختلاف قليل ففى الأولى : **﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافاتٍ ؟﴾** وفى الثانية :

﴿**ألم يروا إلى الطير مسخراتٍ فى جو السماء**﴾ وكلتاهما سواء فى المعنى .

□ □ □

□ وفى ص/١١١ ـ أورد الخطيب الاسكافى قوله عز وجل : ﴿**قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾ ؟ وقوله تبار وتعالى : ﴿**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين**﴾ وعلى طريقته فى التعليل ، وبأسلوبه فى التكلف والاعتساف تحدث عن «ثم» والفرق بينها وبين «الفاء» .

قلت : إن الآيتين متشابهتان تماماً فى الأمر بالسير فى الأرض ، والأمر بالنظر إلى عاقبة المكذبين فى الأولى والمجرمين فى الثانية ، وإن كانت كل آية قد جاءت فى سياق خاص ، واقتضى المقام استبدال كلمة المجرمين بالمكذبين .

□ □ □

□ وفى ص/١٢١ و ١٢٢ ـ أورد الإسكافى آية الانعام : ﴿**وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً**﴾ وآية الأعراف : ﴿**قالوا إن الله حرمها على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً**﴾ . وآية العنكبوت : ﴿**وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب**﴾ . وآية الحديد : ﴿**إعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة**﴾ .

ثم جعل كعادته يعتسف ويتكلف التعليل للتفريق بين موضع وموضع حيث قدم اللهو تارةً وقدم اللعب أخرى .

قلت : إنه لا غناء فيما حاول به المؤلف أن يفرِّق بين اللهو واللعب تقديماً وتأخيراً ، وفى نظرنا إن ذلك جائز وأن أحدهما يحل

محل الآخر بدليل آية الأنبياء : ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنَّا فاعلين**﴾ .

فقد ذكر أولاً اللعب فى «لاعبين» وعندما أراد نفيه عبر عنه باللهو .

وما ذكره الإسكافى من قول بعض المفسرين ان «اللهو» هنا بمعنى المرأة فى لغة أهل اليمن لا صحة له ولا حجة فيه إذ لا دخل لذكر المرأة فى هذه الآية لا سباقا ولا لحاقاً .

□ وفى ص ـ ١٥٧ و ١٥٨ ـ أورد آية الأعراف : ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين**﴾ .. وآية هود : ﴿**وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين**﴾ وآيات أخرى من الأعراف وهود عن قوم عاد وثمود .. وتساءل : لماذا قال مرة (دارهم) وقال أخرى (ديارهم) ؟ ثم ذهب يعلل للفرق بين توحيد الدار وجمع الديار ..

قلت : إن القصة واحدة بالنسبة لكل من قوم عاد وقوم ثمود ، وكل ما فى الأمر أن القرآن عبَّر مرة بالدار وأخرى بالديار ، والمعنى واحد . وإن كان لا بد من تعليل فهو أن يقال : إن التعبير بالدار قصد به كل جماعة أو طائفة أو قبيلة أو أهل حىّ كانوا جاثمين فى مكانهم الخاص بهم . والتعبير بالديار قصد به جميع القوم حيث كانوا ..

□ وفى ص ـ ٢٦٤ ـ ذكر قوله تعالى : ﴿**ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون .. ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون**﴾ من سورة النحل ـ وأورد قوله عز وجل : ﴿**ثم إذا اذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون**﴾ من سورة الروم ـ ثم ذكر قوله سبحانه ﴿**فلما نجاهم إلى البر اذا هم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، وليتمتعوا فسوف يعلمون**﴾ من سورة العنكبوت .

ثم تساءل : ما بال الآية فى العنكبوت وحدها خصت بقوله : (وليتمتعوا) وجاءت الآيتان الأخريان بلفظ الأمر على معنى التهديد وهو (فتمتعوا) ؟ .

وأجاب : إن الآية الأولى افتتحت بخطاب الشاهد فاجرى قوله (فتمتعوا) على هذا اللفظ . والآية الأخيرة افتتحت بالإخبار عن الغائب وهو : ﴿**فاذا ركبوا فى الفلك ..**﴾ .

وهذا فى رأينا تعليل سقيم .. لأن الآية المتوسطة افتتحت بالإخبار عن الغائب ومع ذلك جاء قوله : (فتمتعوا) للشاهد ، واذن فلا علاقة لافتتاح الآيات بما اختتمت به .

وإنما ذلك اسلوب معروف من أساليب اللغة العربية ، وهو الإلتفات بالكلام من الغائب إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى الغائب .. ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿**حتى إذا كنتم فى الفلك .. وجرين بهم**﴾ فقد افتتحت الآية بخطاب الشاهد ثم انصرفت إلى الغائب : «وجرين بهم» إلى آخر الآية وهو عكس قوله : ﴿**ليكفروا بما آتيناهم .. فتمتعوا فسوف تعلمون**﴾ فهو التفات من الغائب إلى

الشاهد : (فتمتعوا ..) .

□ □ □

□ وفى ص ـ ٢٦٥ ـ أورد الخطيب الإسكافى آية النحل : ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ..**﴾ ثم آية فاطر : ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ..**﴾ وذهب كدأبه يعلل : لماذا قال فى الأولى «بظلمهم» وقال فى الثانية : «بما كسبوا» ؟ ولماذا ذكر هناك : «ما ترك عليها» وهنا : «ما ترك على ظهرها» ؟ .

قلت : إن التعبير بالظلم تارةً و «ماكسبوا» تارةً أخرى سواء فى المعنى ، الا أنه فى الأولى صريح ببيان الكسب وهو يستعمل فى الخير والشر ، فجاء هنا دالاً على الشر وهو الظلم ، وجاء فى الثانية بمعنى الشر واضحاً لا لبس فيه بقرينة قوله «يؤاخذ» والمؤاخذة لا تكون الا على السيىء من الأفعال .

وكذلك تفريق المؤلف بين قوله : «ما ترك عليها» وقوله : «ما ترك على ظهرها» غير وارد وضعيف لأن كلمة (عليها) و (على ظهرها) معناهما واحد والمقصود : الأرض .

□ □ □

□ وفى ص ـ ٢٨٢ أورد الخطيب الإسكافى الآية : ﴿**ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى**﴾ من سورة فصِّلت .

ثم قال : إن الرد عن الشيء يتضمَّن معنى الكراهية للمردود .. فلما كان الأول ينقل عن جنته وهو خلاف محبته كان استعمال اللفظ الذى يدل على الكراهية فيه أولى .. والثانية لم يتقدمها ما تقدم

الأول الخ ..

قلت : هذا التفريق بين اللفظين لا غناء فيه . لأن الفعلين استعملا فى معنى واحد ، والمردود إليه أو المرجوع إليه واحد أيضاً ، وأمل المردود أو المرجوع واحد .. وهو انتظار الخير أو الحسنى .

كما أن الفعل الثانى (رجع) تقدمه ما تقدم الفعل الأول (رد) خلافاً لما يقول الخطيب الإسكافى .. فما تقدم (رُدِدْتُ) هو الجنة أى بستان الرجل ، وما تقدم (رُجِعْتُ) هو الرحمة بعد الضراء : **﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته .. ليقولن هذا لى ، وما اظن الساعة قائمة . ولئن رجعت إلى ربى ان لى عنده للحسنى﴾** ..

والرحمة والجنة كلتاهما : نعمة لكل منهما ، ظناً أنهما خالدتان لهما فى الدنيا ، وليس من إيابٍ ولا حسابٍ بعد الموت .. ولئن كان إيابٌ وحسابٌ افتراضاً منهما فسيكون ـ بزعمهما ـ الخير أو الحسنى منقلباً لهما أو مصيراً .

□ □ □

□ وفى ص ـ ٢٩٢ ذكر الآيات التى تتحدث عن بعض قصة موسى عليه السلام ، وهى قوله عز وجل : **﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾** من سورة طه ، وقوله فى سورة النمل : **﴿.. إنى آنست ناراً سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ لعلكم تصطلون﴾** ..

ثم عقب المؤلف بقوله : للسائل أن يسأل فيقول : قال الله تعالى : **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** وهل

الاختلاف الا هذا الذى جاء فى سوره فى الإخبار عن قصة واحدة الخ ..

وبعد كلام كثير ؛ قال الخطيب الإسكافى : الجواب أن يقال إن الله تعالى لم يخبر أن موسى خوطب باللغة العربية بألفاظ إذا عدل عنها إلى غيرها مما يخالف معناها كان اختلافاً فى القرآن قادحاً فيه .. بل معلوم أن الخطاب كان بغير هذه اللغة ، وأنه تعالى أخبر فى بعض السور ببعض ما جرى ، وفى أخرى بأكثر مما أخبر به فى التى قبلها ، وليس يدفع بعضها بعضاً ، فأما قوله ﴿**لعلى آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدى**﴾ فهو فى معنى قوله تعالى : ﴿**سآتيكم منها بخير أو آتيكم بشهاب قبس** ..﴾ لأن الخبر الذى يأتيهم به هو أن يجد على النار ما يهديه أو يخبره أن الطريق هو ما هو عليه أو غيره الخ ..

قلت : إن الجواب هنا سليم .. ولكن أخطأ المؤلف فى قوله آنفاً : «وهل الاختلاف الا هذا الذى جاء فى الإخبار عن قصة واحدة الخ» وقوله : «إن الله لم يخبر أن موسى عليه السلام خوطب باللغة العربية بألفاظ إذا عدل عنها إلى غيرها مما يخالف معناها .. الخ» .

.. حيث لا اختلاف .. ولا مخالفة للمعنى . وإنما هو اختلاف أو مخالفة بين الألفاظ والجمل . أما المعانى فواحدة كما هو واضح من الآيات .

ونلاحظ أن القرآن فى سورة القصص كرر القصة وجاء بلفظة «جذوة» بدلاً من «قبس» فى قوله تعالى ﴿**لعلى آتيكم منها بخير أو جذوة من النار**﴾ .

والخطيب الاسكافى نفسه ـ فى ص ١٦ و ١٧ من الكتاب قال : إن اللغة التى خوطب بها الأقوام فى قصص القرآن غير العربية ، وما حكاه القرآن من أقوالهم لم يقصد حكاية الألفاظ وإنما قصد المعانى ، ولذلك اختلفت وتعددت العبارات والألفاظ فى بعض قصص القرآن بين سورة وسورة .

قلت : وكذلك ما خوطب به الأنبياء ، وما خاطب الأنبياء به أهلهم وأقوامهم . كل ذلك حكى فيه المعنى دون اللفظ الذى كان ـ دون ريب ـ بلغة اولئك الأنبياء والأقوام .

واذن فلا داعى إلى توهُّم الاختلاف أو المخالفة .. مادام ذلك مجرد ترادف فى الألفاظ والكلمات وحدها .

□ □ □

□ وفى ص ـ ٣٠٢ و ٣٠٣ أورد الخطيب قوله تعالى : ﴿**والتى احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا**﴾ من سورة الأنبياء ـ وقوله عز وجل : ﴿**ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا**﴾ وذهب يعلل للتفريق بين التعبيرين (فيه) و (فيها) كما فعل فى ص ـ ٦٥ و ٦٦ بآية : ﴿**فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله**﴾ وآية : ﴿**فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى**﴾ .

والجواب الحق ـ فى نظرنا ـ أنه فى الآية الأولى أضاف حرف الجر إلى الكل «فيها» مجازاً وأراد الجزء الذى هو الفرج وهو طريق الحمل والولادة وفى الثانية أضاف حرف الجر إلى الجزء حقيقة . ولا داعى إلى التعسُّف والتكلُّف فى التعليل ، وقد فسرت بعض كتب التفسير بأن النفخ إنما كان فى كم ثوابها لا فى فرجها ..

□ □ □

□ وفى ص ـ ٣٧٧ ـ أورد المؤلف قوله تبارك وتعالى : ﴿**وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون**﴾ من سورة الحج ثم قال : أى يقع فى يوم من تنعيم المطيعين وتعذيب العاصين قدر ما يناله المنعم فى الف سنة من أيام الدنيا ، ويعذب العصاة فى يوم مقدار ما يعذب به الانسان فى الف سنة لو بقى فيها .. فعذابه فى يوم واحد عذاب ألف سنة . وذلك لما يتضاعف على المنعَّمين من الملاذ وعلى المعذَّبين من الآلام . والدليل على أن المراد فى هذه الآية ذلك قوله قبلها : ﴿**ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده . وإن يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدون**﴾ .

قلت : إن الخطيب الاسكافى ذهب بعيداً فى تأويل الآية ، واستدلاله بالآية السابقة على صحة تأويله أشد بعداً ، بل إن الآية التى تقدمت الآية موضوعة التأويل تدل على مراد غير المراد الذى قال به المؤلف .

فالكفار يستعجلون الرسول بالعذاب .. سخريةً وتعجيزاً ، والله يخبر رسوله بأن وعده لا يخلف ، واجل عذابه لا يؤخر ، ولكن جرت سنة الله الا يعجل للناس كفاراً أو عصاة ما يستحقونه من عقوبة كما قال عز وجل فى آيات عديدة منها قوله : ﴿**ولو يُعَجِّلُ الله للناس الشر استعجالهم بالخير.. لقضى إليهم أجلهم ..**﴾ وقوله : ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ..**﴾ .

ويخبره أيضاً ـ فى سورة المعارج ـ أن ما يراه الكفار والعصاة من الوعد بالعذاب أو البعث بعيداً هو قريب عند الله : ﴿**إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً**﴾ وذلك أن حساب الوقت أو التوقيت فى الدنيا

وفى مقاييس البشر ليس هو نفسه حسبان الله تبارك وتعالى ، فالليل والنهار ، والشمس والقمر : هى مواقيت للناس فى دنياهم ، وليست مواقيت لتدبير الله وتقديره فى ملكوته ولا هوته عز وجل .

ولذلك فيوم عند الله كألف سنة مما يعدُّ البشر أو يحسب الناس ، ومن هنا يستبطىء الكفار والعصاة ما ينذرهم الرسول ﷺ من حساب وعقاب ، وربما يتهمونه بالكذب فى وعيده وإنذاره .. ولكن الله يطمئن رسوله بأن وعده حق ، وان أجله آتٍ لا ريب فيه ، وإذا جاء أجلهم موتاً أو بعثاً أو عذاباً ، فسوف لا يستأخرون عنه ساعةً ولا يستقدمون .

ولا علاقة لتقدير (يوم الله) بألف سنة من أيام الدنيا بمقدار التنعيم للطائعين والتعذيب للعصاة فى الآخرة ، والآية السابقة بما ذكرته من الاستعجال بالعذاب تؤكد المعنى المراد من الآية اللاحقة فيما ذكرته من اختلاف التوقيت بين حساب الله وحساب البشر .

□ وفى ص ـ ٤١٩ ـ أورد المؤلف هاتين الآيتين : ﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**﴾ من سورة فصِّلت ؛ ﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله . إنه سميع عليم**﴾ من سورة الأعراف .. ثم ذهب يعلل للفرق بين تعريف (السميع العليم) فى الأولى وترك التعريف فى الثانية ؟ .. فقال ما خلاصته : إن ما سبق آية فصِّلت يشق على الانسان فعله .. من مقابلة السيئة بالحسنة ومقابلة غلظة العدو بالملاينة ، ثم قال ﴿**وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم**﴾ ـ أما ما سبق آية الأعراف فهو : ﴿**خذ العفو ، وأمر بالمعرف ، واعرض عن**

الجاهلين﴾ ولم يعظم هنا الأفعال التى دعا إليها كما عُظِّمت فى الأولى .. ولذلك لم تقع المبالغة فى اللفظ ، واقتصر على الأصل وهو (انه سميع عليم) .

قلت : إن ما سبق كلتا الآيتين واحد وواضح فى السورتين ، ولا فرق بين ما أمر به فى الأولى وبين ما أمر به فى الثانية ، وليس الأول أشق من الثانى ، بل كلاهما لا بدَّ فيه من قوة صبر واحتمال للأذى والجهل فى سبيل مقابلة الشر بالخير .. والعفو عن المسىء ، والدعوة إلى المعروف ، والاعراض عن الجاهلين .

وإذن .. فالتعليل بهذا الفرق الموهوم أو المزعوم لتعريف «السميع العليم» فى آية فصِّلت وعدمه فى آية الأعراف ، غير وارد .

وقد جاء التعقيب بأسماء الله الحسنى فى آيات كثيرة .. مرةً بالتعريف «انه هو الغفور الرحيم» ومرة : «إنه غفور رحيم» وفى قوله : **﴿إنه هو العليم الحكيم﴾** وأخرى **﴿إن الله عليم حكيم﴾** .. وفى قوله : **﴿والله عزيز حكيم﴾** وقوله : **﴿لا إله الا هو العزيز الحكيم﴾** .

ونرى أن التعبيرين جائزان ، لا فرق بينهما من حيث المعنى لأن الموصوف واحد عز وجل .

□ وفى ص ـ ٤٢٢ ـ يذكر المؤلف قوله تعالى من سورة الزخرف : **﴿وتقولوا سبحان الذى سخَّر لنا هذا .. وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾** والآية الأخرى من سورة الشعراء : **﴿قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون﴾** .. ويفترض سؤالا من سائل عن سر التأكيد فى الآية الأولى باللام فى (لمنقلبون) دون الثانية . ثم

يجيب : بأن الآية الأولى خطاب لكل الناس فى ذلك العصر ومن يكون بعدهم ، وتذكير بنعم الله ، ووجوب الشكر عليها ... فالتأكيد هنا لازم .. أما آية الشعراء فهى خبر عن السحرة لمَّا آمنوا ، ووصفوا حالهم ، واستهانتهم بما خوفهم به فرعون من العقوبة .. فلم يحتج الأمر إلى تأكيد الخ .

قلت : إن الأولى خبر عن الفلك وتسخير الله لها ليركبوا عليها ، ويذكروا نعمة الله عليهم بها ، والثانية خبر عن تهديد فرعون للسحرة بعد إيمانهم بموسى عليه السلام .. وفى نظرنا أن موقفهم أشد وأحوج إلى التأكيد لأنهم مهدَّدون بالموت بعد قطع الأيدى والأرجل من خلاف ، وتصليبهم فى جذوع النخل ؛ ومع ذلك نقول : لا داعى إلى هذا التعليل من الخطيب الإسكافى ، ولا إلى افتراض السؤال قبله . وحسبنا أن نقول : إن التأكيد جائز فى كل من الموقفين دون تفريق .

□ □ □

□ وفى ص ـ ٤٣٣ ـ يذكر الخطيب الآية ؛ من سورة الزخرف : ﴿**وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، مالهم بذلك من علم إن هم الا يخرصون**﴾والآية من سورة الجاثية : ﴿**وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وماهم بذلك من علم إن هم الا يظنون**﴾ .

ويفترض المؤلف سؤالاً : لماذا جاءت (يخرصون) فى الأولى و (يظنون) فى الثانية ؟ ثم أجاب : إن الآية الأولى عن الملائكة ، وما زعمه المشركون من أنها بنات الله ، وانه لو شاء الله ما عبدوهم ،

وليس ذلك عن علم بل هم كاذبون فيما يدعونه ، فأبطل خبرهم بالتكذيب ، وهو لائق بموقفهم . أما الموضع الثانى فهو خبر عن الكفار الذين أنكروا البعث وزعموا أنه كلما هدم الدهر قوماً أنشأ آخرين .. وهم لم يقولوا ذلك على علم ، بل قالوه على سبيل الظن ـ فكان مناسباً أن يقال : ﴿**إن هم الا يظنون**﴾

قلت : كلا الزعميْن إفتراء وكذب وباطل .. وكلا الفريقيْن لم يقولا ما قالاه عن معرفة أو علم ، بل عن جهل ووهم ، إلا أن الأول متعلق بالذات الإلهية وإرادتها العليا ، أما الثانى فيتعلق بما يعتقدونه عن البعث والحساب وأنهما غير واقعين بعد الموت ، فكان وصفهم بالكذب فى الأولى أولى ووصفهم بالظن فى الثانية أحق .

□ □ □

□ وفى ص ـ ٤٣٤ ـ أورد قوله عز وجل ، من سورة الزخرف : ﴿**بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون**﴾ والآية التالية من السورة نفسها : ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ .

ثم افترض كدأبه سؤالاً عن (مهتدون ـ ومقتدون) هل تصلح إحداهما مكان الأخرى ؟ واجاب بما خلاصته أن أولئك ادعوا الاهتداء بسلوك آبائهم ، والتمسك بآثارهم . أما الآية الثانية فهى خبر عن الأمم الكافرة بأنبيائها .. وأقصى ما احتجوا به أنهم وجدوا آباءهم على أمة ـ أى ملة ـ فاقتدوا بهم ولم يدعوا الاهتداء كما فعل الآخرون الخ .

قلت : ان الموقفين متساويان صورة وموضوعاً .. فهؤلاء الحاضرون فى عهد الرسول ﷺ ، والغابرون قبلهم سواء فى الاحتجاج بأنهم وجدوا أسلافهم على طريقة دينية فاتبعوا آثارهم ، كما أن رد كل واحد من الفريقين على رسوله واحد ، غير مختلف .. الا أن القرآن أراد أن يخالف بين اللفظين فى آيتين متتابعتين ، فقال فى الأولى : (مهتدون) وفى الثانية : (مقتدون) . والاهتداء هنا معناه : إتباع الطريق كالاقتداء تماماً ، والمقتدى دائماً مقتنع بأنه على هدى ـ كما قال تبارك وتعالى : ﴿**وكذلك زينا لكل أمة عملهم**﴾ .

□ □ □

□ وفى ص ـ ٤٦٢ ـ ذكر المؤلف قوله تعالى ـ من سورة الرحمن : ﴿**والسماء رفعها ووضع الميزان ، الا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**﴾ ، وافترض سؤالاً عن تكرار كلمة (الميزان) فى الآيات الثلاث ، ولماذا لم يكتف بالضمير فى الأخيرين ؟ وذكر أن أهل النظر أجابوا بأن الآيات الثلاث لم تنزل فى وقت واحد ، ولو نزلت فى وقت واحد لأضمر ذكر الميزان .

وأضاف إجابة أخرى لا تستقيم فى نظرنا .. وهى أن الميزان الأول ، يعنى الاعتدال فى خلق الانسان ، والثانى يعنى الحكم بالعدل ، والثالث آلة التعديل .. الخ .

قلت : إن الاعتدال فى خلق بنية الانسان لا ذكر له هنا فى هذه الآيات ، ولا فى ما قبلها ، وفى سورة الانفطار عن تسوية خلق الانسان ما يكفى : ﴿**خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة**

ما شاء ركبك﴾ .

والرأى عندنا فى فهم هذه الآيات الثلاث وتكرار (الميزان) فيها ثلاثاً : أن قوله تعالى فى الأولى : **﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾** أى أنه تبارك وتعالى شرع مبدأ العدالة وفرضه على أهل الأرض ، ولفظة (وضع) تستخدم لغوياً لمعنى التشريع والتقنين . وقوله عز وجل ثانياً : **﴿الا تطغوا فى الميزان﴾** يعنى بالميزان هنا المصدر .. أى الوزن بمعنى الحكم والتقدير ولذلك كانت الآية ناهية عن الطغيان فيه زيادةً أو نقصاً ، سواء أكان الحكم أو التقدير تجارةً أم قضاءً أم كلاماً . كما قال عز وجل فى آية أخرى ــ من سورة النساء ــ **﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما ..﴾** .

أما الميزان فى الآية الثالثة فهو كما قال الخطيب : آلة التعديل .

ومع ذلك نرى أن التكرار فى الألفاظ القرآنية ينبغى الا يسأل عنه ، لأن التكرار ليس عيباً فى الكلام إذا كانت له أسبابه ودواعيه من جهة المعنى أو جهة النظم .. على نحو ما جاء فى سورة الرحمن كلها من تكرار الآية : **﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟﴾** وفى سورة المرسلات **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** وفى سورة القمر : **﴿فكيف كان عذابى ونذر﴾** ؟ .

كما أن نظام الفواصل فى القرآن يقتضى إعادة (الميزان) ولو لم يتغير المراد منها فى مواضعها الثلاثة .. بل حتى لو نزلت فى وقت واحد ، لا كما يقول الخطيب : إنها نزلت فى أوقات متفرقة . وإنه السبب فى تكرارها الخ .

□ وفى ص ـ ٥٠٠ ـ تصدى المؤلف لتفسير قوله عز وجل : ﴿**إن الانسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا**﴾ ثم افترض سؤالاً من القارىء : فإن قال ما الحكمة فى خلق الانسان على مساوىء الأخلاق ؟ قلت : الحكمة فى خلق شهوة القبيح ليمانع نفسه إذا نازعته نحوه ، ويحارب شيطانه عند تزيينه معصيته . وهذا واضح لمن تدبره فاعرفه تصب إن شاء الله تعالى» !

قلت : هذا غير صحيح ، وغير واضح ، فالإنسان لم يخلقه الله على مساوىء الأخلاق ـ كما يقول المؤلف ـ والآيات المذكورة من سورة المعارج لا تعنى ذلك .. وقوله عز وجل : ﴿**إن الانسان خلق هلوعاً**﴾ .. مثل قوله : ﴿**خلق الانسان من عجل ..**﴾ والمعنى أن الانسان طبع على طبائع مختلفة متعددة من استعجال الأمور قبل أوانها ، ومن حب الخير ، والجزع من الشر ، والهلع عند المصيبة ، وطغيانه عند الغنى كما قال تبارك وتعالى فى سورة (أقرأ) : ﴿**إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾ .

وإلى جانب هذه الطبائع السلبية فى تكوين الانسان هناك طبائع إيجابية من العقل والتفكر والتعلم والاستيحاء .

فالانسان خلق جامعاً لطبائع الخير والشر .. لا على مساوىء الأخلاق وحدها كما يقول الخطيب الإسكافى ، وأعطى العقل تمييزاً له على الحيوان ليختار بينهما ، وسلط عليه الشيطان ـ بنص القرآن ـ امتحاناً له : ايطيع الله أم يطيع الشيطان بعد أن منحه الله العقل ثم أرسل له الرسل ، وأنزل الكتب : ﴿**لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾ ـ ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ .

ومن العجيب : أن يناقض المؤلف نفسه ، فيعترف بأن الانسان خلق فى أحسن تقويم : «أى فى خلقة قويمة .. ودلالة على طريقة مستقيمة» ص ـ ٥٣٢ .

□ □ □

□ وفى ص ـ ٥٠٧ ـ أورد قوله تعالى : ﴿**كلا بل لا يخافون الآخرة .. كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره**﴾ .. من سورة المدثر ، وقوله عز وجل : ﴿**إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ..**﴾ وافترض سؤالا من سائل عن اختلاف المكانين ، ولماذا أعاد الضمير المذكر فى قوله (ذكره) على مؤنث ؟ ثم أضاف قوله : لما كانت الآيات المتقدمة فواصلها فى الموقف (هاء) كقوله ﴿**حمر مستنفرة فرت من قسورة**﴾ عادت (الهاء) إلى مذكر دلت التذكرة عليه وهو بمعناه لتتعادل الفواصل الخ .

قلت : إن الضمير فى (ذكره) (إلى الله عز وجل أو إلى القرآن نفسه . وقد تعدد عائدٌ مثل هذا الأسلوب فى القرآن نفسه فى قوله تعالى : ﴿**ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفراً**﴾ أى الزرع وهو غير مذكور فى الآية ولا ما قبلها ولكنه مفهوم من السباق والسياق .

وقد جاء فى سورة (عبس) قوله عز وجل : ﴿**كلا إنها تذكرة ... فمن شاء ذكره**﴾ أى قصة الأعمى فى أول السورة والضمير فى (ذكره) بعدها يعود إلى الله عز وجل : يذكره رغبة ورهبة .

□ وفى ص ـ ٥٠٩ ـ ذكر المؤلف قوله تعالى من سورة القيامة : ﴿**أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى**﴾ وقال إن معناها : إن الهلاك

قريب منك مجاور لك .. وأولى : هى من ولى يلى ، إذا قرب منه ، والتكرار معناه هلاك فى الدنيا ثم هلاك فى الآخرة الخ .

قلت : فى بعض التفاسير : إن قوله ﴿**أولى لك فأولى**﴾ معناه ويل لك ثم ويل لك ويبدو لى ـ والله أعلم بمراده ـ أن معناه : أجدر بك ثم أجدر بك لو آمنت بى ، وصدَّقت برسلى ، فتنجو من عذابى .

□ □ □

□ وفى ص ـ ٥٣٧ ـ تعرض لسورة (الناس) وهى المعوذة الثانية والسورة الأخيرة من القرآن الكريم ، وافترض سؤالا من القارىء عن تكرار كلمة (الناس) فى الآيات ..

وبعد أن فسر كلمات الرب ـ والملك ـ والإله تفسيراً صحيحاً قال : فصار الناس الذين أضيف إليهم (ملك) غير الناس الذين أضيف إليهم (إله) . والذين أضيف إليهم(إله) غير الذين أضيف إليه (رب) وبذلك لا يكون تكرار . فهو رب الأجنة والأطفال ـ ثم ملكهم بالعبودية لما كبروا ـ ثم أصبح إلههم لما أصبحوا مكلفين ، وبذلك سلمت السورة من التكرار بترتيب صفات الله تعالى الخ .

قلت : هذا افتعال وتكلُّف .. فالله عز وجل هو رب الناس جميعاً أطفالاً ورجالاً ، وإله الناس جميعاً اطفالاً ورجالاً ، وملك الناس جميعاً أطفالاً ورجالاً : : وتكرار (الناس) تأكيد وتذكير بأنه ليس غير الله للناس رب ولا مَلِك ولا إله ، وهو أيضاً نفْى لإله آخر وملك آخر ورب آخر ..

هذا من حيث المعنى ، ومن حيث اللفظ والهيكل والأسلوب :

رائع وجميل وبليغ . ولو خلت السورة من تكرار كلمة الناس لاختل المعنى ، وقبح الأسلوب .. ولكن كلام الملك ـ عز وجل ـ ملك الكلام .

□ □ □

وبعد : فهذه تأملات وملاحظات سريعة فى كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الإسكافى ... وهو كتاب كما أسلفنا فى المقدمة : قيم ونفيس . وهذه الملاحظات القليلة لا تؤثر على روائعه الكثيرة .

جزى الله المؤلف خيراً على نظراته فى الكتاب الكريم ، وما أفاد القراء به من شرح وإيضاح .

صدر من هذه السلسلة

الكتاب	المؤلف
١ ـ تأملات فى سورة الفاتحه	[الدكتور حسن باجودة]
٢ ـ الجهاد فى الإسلام مراتبه ومطالبه	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣ ـ الرسول ﷺ فى كتابات المستشرقين	[الأستاذ نذير حمدان]
١٤ ـ الإسلام الفاتح	[الدكتور حسين مؤنس]
٥ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكرى	[الدكتور حسان محمد حسان]
٦ ـ السيرة النبويه فى القرآن الكريم	[الدكتور عبد الصبور مرزوق]
٧ ـ التخطيط للدعوة الإسلامية	[الدكتور على محمد جريشة]
٨ ـ صناعة الكتابة وتطورها فى العصور الإسلامية	[الدكتور أحمد السيد دراج]
٩ ـ النوعية الشامله فى الحج	[الأستاذ عبد الله بوقس]
١٠ ـ الفقه الإسلامى آفاقه وتطوره	[الدكتور عباس حسن محمد]
١١ ـ لمحات نفسية فى القرآن الكريم	[د. عبدالحميد محمد الهاشمى]
١٢ ـ السنة فى مواجهة الأباطيل	[الأستاذ محمد طاهر حكيم]
١٣ ـ مولود على الفطرة	[الأستاذ حسين أحمد حسون]
١٤ ـ دور المسجد فى الإسلام	[الأستاذ على محمد مختار]
١٥ ـ تاريخ القرآن الكريم	[الدكتور محمد سالم محيسن]
١٦ ـ البيئة الإدارية فى الجاهلية وصدر الإسلام	[الأستاذ محمد محمود فرغلى]
١٧ ـ حقوق المرأة فى الإسلام	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
١٨ ـ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته[١]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
١٩ ـ القراءات أحكامها ومصادرها	[الدكتور شعبان محمد اسماعيل]
٢٠ ـ المعاملات فى الشريعة الإسلامية	[الدكتور عبد الستار السعيد]
٢١ ـ الزكاة فلسفتها وأحكامها	[الدكتور على محمد العمارى]
٢٢ ـ حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم	[الدكتور أبو اليزيد العجمى]
٢٣ ـ الأقليات المسلمة فى آسيا وأستراليا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٢٤ ـ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	[الدكتور عدنان محمد وزان]
٢٥ ـ الإسلام والحركات الهدامة	[معالى عبد الحميد حموده]

الكتاب	المؤلف
٢٦ ــ تربية النشء فى ظل الإسلام	[الدكتور محمد محمود عمارة]
٢٧ ــ مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامى	[الدكتور محمد شوقى الفنجرى]
٢٨ ــ وحى الله	[الدكتور حسن ضياء الدين عتر]
٢٩ ــ حقوق الإنسان وواجباته فى القرآن	[حسن أحمد عبدالرحمن عابدين]
٣٠ ــ المنهج الإسلامى فى تعليم العلوم الطبيعية	[الأستاذ محمد عمر القصار]
٣١ ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣٢ ــ الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٣٣ ــ الاعلام فى المجتمع الإسلامى	[الأستاذ حامد عبد الواحد]
٣٤ ــ الإلتزام الدينى منهج وسط	[عبدالرحمن حسن حبنكة الميدانى]
٣٥ ــ التربية النفسية فى المنهج الإسلامى	[الدكتور حسن الشرقاوى]
٣٦ ــ الإسلام والعلاقات الدولية	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
٣٧ ــ العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية	[اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ]
٣٨ ــ معانى الأخوة فى الإسلام ومقاصدها	[الدكتور محمود محمد بابللى]
٣٩ ــ النهج الحديث فى مختصر علوم الحديث	[الدكتور على محمد نصر]
٤٠ ــ من التراث الاقتصادى للمسلمين	[الدكتور محمد رفعت العوضى]
٤١ ــ المفاهيم الاقتصادية فى الإسلام	[د. عبدالعليم عبدالرحمن خضر]
٤٢ ــ الأقليات المسلمة فى أفرقيا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٣ ــ الأقليات المسلمة فى أوروبا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٤ ــ الأقليات المسلمة فى الأمريكتين	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٥ ــ الطريق إلى النصر	[الأستاذ محمد عبد الله فودة]
٤٦ ــ الإسلام دعوة حق	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٤٧ ــ **الأسلام والنظر فى آيات الله الكونية**	[الدكتور محمد عبدالله الشرقاوى]
٤٨ ــ دحض مفتريات	[د. البدراوى عبدالوهاب زهران]
٤٩ ــ المجاهدون فى فطانى	[الأستاذ محمد ضياء شهاب]
٥٠ ــ معجزة خلق الإنسان	[د. عبد الرحمن عثمان]



طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة